رواية

تشيزَره باڤيزِه
الرفيق

ترجمها عن الإيطالية: عرفان رشيد

مكتبة ٢٩٠

المتوسط

الرفيق

مكتبة أهد

٢٠١٨١١١

حقوق هذه الترجمة ونسخها © ٢٠١٨ منشورات المتوسط - إيطاليا.

Il compagno *by* "Cesare Pavese"
Copyright © Cesare Pavese 1947
Arabic translation copyright © 2018 by Almutawassit Books.

المؤلف: تشيزَره باڤيزه / المترجم: عرفان رشيد / عنوان الكتاب: الرفيق
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-61-1

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

تشيزَرِه باڤيزِه

الرفيق

ترجمها عن الإيطالية: عرفان رشيد

مكتبة أهد
telegram @ktabpdf

المتوسط

١

نادوني باسم "پابلو"، لأنني أعزف الگيتار.

في الليلة التي تعرّض فيها آميليو إلى كسر في العمود الفقري على الطريق إلى (آڤيليانا)، كنتُ برفقة عدد من الأصدقاء لقضاء وقت قصير على سفح التلّ. لم نبتعد كثيراً، وكنّا نرى جسر المدينة من هناك. شربْنا واستمتعْنا تحت ضياء قمر أيلول، ثمّ بحثْنا عن مكان آمن من البرد، لنواصل الغناء. عندها ابتدأت الفتيات بالرقص بينما كنتُ أنا أعزف.

"هيّا، يا پابلو، اِعزفْ، يا پابلو"، كانوا يهتفون بي، لكنّي لم أشعر بالبهجة، فقد كنتُ مهموماً، على الدوام، بالعزف برفقة مَنْ يُدرك ما يعتلج في داخلي، بينما لم يكنْ أولئك الذين رافقتهم في تلك الأمسية إلاّ ثُلّةً من أشباه الصبية الذين يهوون الصراخ بأعلى صوت.

عزفتُ أيضاً خلال رحلة العودة، وغنّى بعضهم. كان الضبّاب يُبلّل أصابعي، وكنت ضَجِراً ومُتعباً من الحياة.

أمّا الآن، وقد انتهى آميليو إلى المستشفى، لم يعدْ لي منْ أُفصِحُ له عن أسراري، وأُفرغُ أمامه ما يعتلج في داخلي. لم تكن زيارة آميليو في المستشفى مُجدية، لأنّه كان يتأوّه ويصرخ بسبب الآلام ليلاً ونهاراً، ولا يتعرّف على أحد من زائريه.

ذهبْنا لرؤية الدرّاجة البخارية القابعة داخل الحفرة التي هوت فيها. انفجر أحد إطارَيْها، وطارت في الهواء. مُعجزةٌ أنّها لم تنفجر، أو تشتعل فيها النيران. لم نلحظ حتّى قطرة دمٍ واحدة، لكن المكان كان غارقاً في بقايا بركة بنزين.

جاء العمّال بعد حينٍ، وحملوها بعربة رافعة.

لمْ تستهوِني الدرّاجات البخارية أبداً، ولمْ أشعرْ بأيّة جاذبيّة صوبها. درّاجة آميليو تلك كانت تُشبه، في ليلة الحادث، گيتاراً مهشّماً. أُخبِرتُ فيما بعد بأن آميليو سيبقى على قيد الحياة بعد الحادث. كنتُ دائم التفكير في هذا كله وأنا أُقدّم خدماتي إلى الزبائن في دكّان العائلة، وأتردّد عن زيارة آميليو في المستشفى، لأنني عَدَدْتُها بلا جدوى. لم أتحادث مع أحدٍ بشأنه، إلاّ أنّه كان دائم الحضور في ذهني، وبالذات في المساءات وأنا عائد إلى البيت. كنتُ أُفكّر بأحاديثي مع الكثيرين، لكنّي لم أُخبر أحداً من بينهم بمقدار وحدتي، كنتُ وحيداً كما الكلب، وليس ذلك لأن آميليو لم يعد موجوداً، - وقد شعرت بثِقل غيابة بالفعل -، بل لأنّني كنتُ أمتلك الجرأة الكافية لأُخبره، هو وحده، بأن هذا الصيف هو الأخير الذي أقضيه ما بين الدكّان والمقاصف والگيتار، وبأنني أشعر بضجر كبير. وحدَهُ آميليو كان قادراً على إدراك كُنه هذه الأمور.

بعد أيّام علمت بأن الأطبّاء جبّروا جذع آميليو بالجبس، وبأن قائمَيْه كانا يموتان رويداً رويداً. انشغل فكري بذلك ليلاً ونهاراً، وكنت آملُ ألاّ يُحدّثني عنه أحد. عرفتُ فيما بعد بأنّ فتاةً كانت ترافقه ليلة الحادث، وقد طارت من على متن الدرّاجة البخارية، وهوت في الحفرة، لكنْ، دون أن تُصاب بأيّ أذى، أو حتّى تضطرب تسريحة شعرها. وعلمتُ بأنهما كانا

يطيران على متن تلك الدرّاجة كمَمْسوسَيْن استولى السُّكْر عليهما. "كان لا بُدّ أنْ يحدث هذا طالما تكرّرت الحالة كل يوم"، هذا ما كان يُردّده الآخرون الذين ذهبوا أبعد من هذا القول في بعض المرّات. في صباح أحد الأيّام دلّني أحدهم على الفتاة التي رافقت آميليو. أشار إليها بينما كانت تعبر الشارع، ممشوقة القوام، منتظمة الجسد، لن يتصوّرَ مَنْ رآها في تلك اللحظة بأنّها قفزت تلك القفزة المُريعة. نعم، هذه تليق بآميليو فعلاً، وشعرتُ ببعض الحنق عندما فكّرتُ بأنهما أمضيا الصيف بأكمله متعانقَيْن على متن الدرّاجة البخارية، يجولان في الدروب والضواحي. علمتُ فيما بعد أنهّا تواظب على زيارته. لا بأس، هذا أفضل من لا شيء، لذا لم تكن هناك ضرورة مُلحّة أن نزوره نحن أيضاً.

كنتُ أقضي القليل من الوقت في دكّان العائلة، أجولُ وحيداً، وأذهب صوب نهر (الپو)، أجلس هناك على مصطبة، أتأمّل العابرين والقوارب التي تعبر مياه النهر. كان الجلوس تحت شعاعات الشمس صباحاً يملؤني بالارتياح النفسي.

عجزت عن تحديد أسباب ضجري، وعن معرفة أسباب الشعور بأنّني وحيد مثل كلب سائب. كنت خالياً من الرغبة في التعرّف على الأمور الذي تخصّ الآخرين. فكّرتُ بآميليو الذي سيعجز عن الجلوس والمشي بعد اليوم. هو الذي عاش من أجل الحركة، وقضّى جُلّ وقته طائراً على متن درّاجته البخارية. كيف سيُمكِنه العيش ما بعد اليوم؟ ربمّا كان بمقدوره أن يمخر عباب النهر على متن قارب، لكنْ، ليس ما تملك من مال أو قوارب ما يمنحك بهجة الحركة، ويُدخل الفرح إلى قلبكَ. ليس الگيتار، ولا أيّ شيء آخر. وقد لمستُ هذا بنفسي. كنتُ على استعداد لدفع أيّ ثمن لمعرفة

طبيعة حياة آميليو قبل تعرّضه إلى الحادث. كان قادراً على الاستغناء عن الآخرين، ولم يكن يشترك في العادة في أيّ حديث إلاّ بمفردات قليلة. ولم يدُر في خلدي أبداً أن أُحدِّثه في ذلك. كنتُ أزوره في أماسٍ عديدة، لنعزف الگيتار، ونمرح معاً، ونتقاسم كأساً من الشراب، ومن ثمّ، نخرج، هو إلى الطريق، وأنا إلى الدكّان. ومُذْ تعرّفت إليه رأيتُه مرتدياً سترة الجِلْد الخاصّة بمتسابقي الدرّاجات البخارية. كان يمرّ بدكّاننا للحظة، ويكتفي بقول: "نلتقي مساءً؟". لم يرَ أحدٌ منّا فتياته أبداً، وحين كان يصل المقصفَ مَنْ يعرفونه، لم يكن آميليو يُبارح مكانه، بل يبقى جالساً إلى مائدته.

ذات صباح، دخلت الدكّانَ الفتاةُ التي أشاروا إليها في الشارع، كانت باسمةً وواثقة الخطو، وسألت عن پابلو.

"أنا ليندا"، قالت "أرسلني آميليو. نقلوه إلى البيت، ولا يستطيع الحراك، يريد أن يرى أحدكم".

أمّي التي كانت في الدّكان في تلك اللحظة، استعلمتْ من ليندا عن صحة آميليو، وتداولت المرأتان أحاديث تخصّ النساء. كانت عينا ليندا تُحدّقان في الاتّجاهات جميعها، وتتفحّصان كل شيء. كانت جذلةً، مسرورة، وتنبعث من حضورها جرأة استثنائية. وكانت جريئة أيضاً في رواية تفاصيل الحادث، لم أستمع من ذي قبل إلى رواية الحادث بالتفصيل الذي أوردتْه هي.

في اليوم التالي ذهبتُ لزيارة آميليو، ووجدتُه ممدّداً في الفراش في غرفة مُشرعة النوافذ، لم يقلْ شيئاً عن الأيّام الماضية، ولم يذكر شيئاً عمّن أرسلها لدعوتي. كان، كالمعتاد، ممتلئ القوام، طويل القامة، يرتدي

بلوزة صفراء، بوجه منتفخ شيئاً ما، كما لو أنّه أفاق للتوّ من رقدة طويلة. كانت أشياء الغرفة مبعثرة في فوضى كبيرة ومتناثرة في كل مكان. تسلّل الضباب إلى الغرفة ببطء من النافذة، وبدا لي وكأننا جالسان في الدرب.

لم أسأله عن الحادث، لأنّني عرفت كلّ شيء مُسبقاً. بينما سألني هو عن انشغالاتي وعمّا أفعل، وإنْ كنتُ عزفتُ الگيتار مراراً في تلك الأيّام. رفعتُ كتفيّ "عن أيُّ گيتار تتحدّث؟!". أخرجتُ علبة السجائر، وأوقدتُ اثنَتَيْن، دخّنّاهما معاً.

"ذهبنا لرؤية الدرّاجة"، قلتُ له، "يا للحالة التي آلت إليها! هل ستبيع قطعها؟".

"الدرّاجة البخارية قابلة للتصليح، ليس لها ساقان!"

كان الضباب يدخل ويُبلّل أصابع يَدَيّ. الطقس في الخارج باردٌ في الصباح.

"اسمعْ"، قلتُ له، "ألا تشعر بالبرد؟".

"أغلقِ النافذةَ، الطقس بارد".

مررتُ من أمام المرآة، ورأيتُ صورته منعكسة فيها. كان مُمدّداً في الفراش في تلك البقعة من الغرفة، كان يرى نفسه في المرآة كل يوم كَمَنْ يَطّلِعُ برأسه من قارب. يرى الأغطية أولاً، وبعدها قطعة الشرشف ومن ثمّ البلوزة، فوجهَهُ وذلك الدخان.

"تُدخّن كثيراً؟"، سألتُه.

أوقع رمادَ السيجارة بأصبعه، وأوحى بابتسامة.

"هذه هي الأولى اليوم، وسأنتهي من السجائر في الليل".

حملتُ معي من الدكّان ربطة بمائة سيجارة، ولم أعرف كيف أفعل، لأتركها له. انتهزتُ فرصة صغيرة، انشغل خلالها، فدسَسْتُها بين الصحف.

"منذ أنْ وقع الحادث، لم أحملْ گيتاري خارج البيت"، قلتُ له، "أنا في غاية الضجر، بِمَ ينفعُ أن أحمل الگيتار معي، لأُسلّي أربعة أو خمسة أشخاص يجتمعون مساءً في الحقول، ويتسلّكونَ سلوك الحمقى المجانين؟ أيّةُ آصرةٍ يمكن أن توجدَ بينهم والگيتار؟ من الآن فصاعداً، لن أعزف إلاّ بمفردي ولنفسي، إذا ما شعرتُ بالرغبة في العزف".

"العزفُ وحيداً لا يُدخِلُ البهجة إلى النفس"، قال لي، "أنتَ محظوظ، لأنكَ لستَ مُرغماً على العزف، لتقتاتَ لقمة العيش".

أكان بمقدوري أن أُخبره في تلك اللحظة بأنني ضَجِرٌ بما يكفي، وبأنني أُفضّل أن أعزف وأقتات لقمة عيشي من العزف؟ أو أن أقول له بأن العالم واسع، وأنا أحلم بالتغيير؟ وبأنّني أرغب أن أجول في أرجاء العالم، وأن أتغيّر؟

في ذلك الصباح، كنتُ واثقاً من شيء واحد فحسب، وهو أنّني سأُقْدِم على خُطوةٍ ما، وبأن تلك الخطوة كانت على وشك الحدوث.

"إذا ما عزفتَ لغرض العيش، فإنّكَ قد تتوصّل إلى إدراك أمور عديدة"، قال آميليو وهو يرمي عُقبَ السيجارة، ويُريح رأسه على الوسادة. إذّاك فقط، رأيتُ مقدار ما فَقَدَ من وزنه، وما كانت رقبته إلاّ عظاماً مُغطّى بالجلد.

عدتُ لزيارته في الصباحات التالية، في الساعة التي تُعجبني، وعندما

لا يتواجد في البيت أحدٌ غيره. وما إنْ ألمس الباب، كنتُ ألج إلى المطبخ، أطلب الإذن بالدخول، لأجد نفسي برفقته في الغرفة الباردة، مُشرعةِ النوافذ على الدوام.

كانت غرفة آميليو باردة، كما لو أنّه يعيش في الدرب، وكانت فتحتا أنفه تتنشّقان الهواء البارد وهو مستلقٍ في فراشه. كنتُ أجلس على حافّة السرير وأُحاذر بألّا أضغط على ساقَيْه.

"أتشعر بالألم؟"، كان يُحدّق فيَّ دون أن يرفَّ له جفن. كان آميليو يتجاهل الردّ على بعض الأسئلة، ويُجيبُ بطريقته الخاصّة عبر الصمت والنظر. مرّةً سألتُه عمّن يزورنه، فأومأ بحركة من عينَيْه إلى باقة ورد، وقدح نبيذ إلى جنب السرير.

"أتُعجبك؟"، سألتُه.

كنتُ عاجزاً عن منحه الثقة، بدا لي بأنّه أكثر جرأة منّي، لم يتحدّث عن الفترة الزمنيّة التي يتطلّبها الشفاء من الإصابة، ولم يُشرْ إلى شيء من موضوع العلاج وفترة النقاهة. كان، كما هو على الدوام. أنا الذي أبادر بالقول، وفي أحيانٍ أخرى، هو من يُحفّزني لأقول، ويستمع إليّ، ويُجيب بهمس.

"لم تعدْ تذهب إلى الريف؟"، سألني.

"يبدو أنّ شيئاً ما حدث في داخلي، لم أعد أستسيغ تلك الرفقة، وحتّى الدكّان لم يعُد يُثير اهتمامي، ربّما فقدتُ الرغبة في فعل شيء. نحن كُثرٌ في العالم، وكل واحد منّا يفعل شيئاً ما، يعيش الجميع، ويواصلون

حياتهم. أنتَ نفسكَ كنتَ في حركة دائبة ومتواصلة، وبإمكانكَ أن تُخبرني هل ينفعني مكوثي في كنف عائلتي في شيء ما؟".

"ألديكَ فتاة الآن؟".

"وحتّى إذا كانت لديّ فتاة!، بِمَ تنفع؟ اهْجُرْها، وستجد وضعكَ أفضل".

"يعتمد الأمر على طبيعة العلاقة مع الفتاة".

لماذا حاورتُه في تلك الأمور بالذات، هو الذي كان مُقعَداً في تلك اللحظة؟ لكنْ، مع مَنْ غيرَه أتحاورُ؟. انتبهت إلى ذلك فيما بعد خروجي من عنده، وأدركتُ الأمر وأنا في الشارع، وبعدما استعدتُ عافيتي إثرَ مغادرة تلك البقعة الضيّقة المتخمة بروائح الأغطية والفضلات، وبأجواء التعب والإنهاك والضجر من الكلام. شعرتُ بالخجل، لأنني أعلنتُ أمامه بأنني سأفعل، سأبحث، وسأجول في أماكن أخرى. ما الذي يهمّه من ذلك كله، وهو المهشّمُ المتسمّر في الفراش؟.

في إحدى المرّات، التقيتُ بليندا عند عتبة باب العمارة وهي خارجة، حدجتْني بنظرة، ومرّتْ. صعدتُ ببطء، كي لا أصل إليه على عجلٍ، وهو لمّا يزلْ غارقاً في التفكير بها. قلتُ لنفسي "لو أنّني بكّرتُ الوصول ببرهة قصيرة، لوجدتُهما معاً".

لم أكن، في تلك المرحلة، أعرف الكثير عن الفتيات، رُغم أنّني كنتُ أتحدّث عنهنّ كَمَنْ قاسى منهنّ الكثير. كنتُ أُصاحب بعضهنّ مساءً في صالة السينما، على متن قارب أو في المرقص، أو واحدة من اللاتي يرتدْنَ الدكّان، لكنّي ما أزال أجهل الكثير.

دخلتُ على آميليو بعد أن طرقتُ الباب، ليسمعني. كان قد رفع جذعه، واستند على الوسادة يُدخّن، والتصق عُقبُ السيجارة بشفته. سألتُه ما إذا كان يرغب بمغادرة الفراش. تنشّقتُ عطر ليندا في الأجواء، وأدركت، إذّاك، سبب كون النافذة مُشرعةً دائماً. لم أنتبه لما قال لي، لأنّ ذهني كان مضطرباً، وانشغلت عيناي بالبحث عن باقة الورد، التي ما عادت موجودة.

"لم يأتوكَ بالورد هذا الصباح؟"، سألتُه.

كان على الكرسي قدحٌ، وصحن فيه بقايا طعام، وسترته الجلدية مَرميّة ما بين الصحف، والغرفة في فوضى أكبر في ذلك الصباح. كان الطقس بارداً بعد المطر الذي هطل في الليلة السابقة، لكنّ الشمس في بداية إطلالتها الآن من وراء الغيوم، فيما كانت تصل إلى الغرفة نداءات الباعة وصيحاتهم في السوق، وجلبة الناس.

"هل يُناسبكَ مجيئي في هذه الساعة؟"، قلتُ له.

هزّ آميليو كتفَيْه كعلامة عدم اكتراث، وبصق عُقب السيجارة.

"اذهبْ إلى المطبخ، واجلبْ كأساً لكَ"، قال. وعندما عدتُ إلى الغرفة، وجدتُه قد ملأ كأسه بالكونياك من قنّينة على الأرض. ملأ كأسي أيضاً "بدلاً من الورد حملوا إليّ الشراب". قلتُ له "لكن، ألا يُضرُّ بكَ الشرب في هذه الساعة؟"، تردّد قليلاً، ثمّ قال "ليس عليّ الاشتراك في سباقات العَدْو، كما ترى". كان الشراب طيّباً ولذيذ المذاق، وأُحبّ ارتشاف القليل منه في الصباحات.

لكنّي قلتُ له "لا ينبغي لكَ أن تُسرف في الشراب".

أخرجتُ ربطة أخرى من علب السجائر، وعانيت، كالعادة، من اختيار اللحظة التي أتركها له. وضعتُها فوق الكرسي إلى جانب الصحون. نظر إليها، وترك كأسه على الأرض. كانت السجائر آخر ما يشغل باله. "المسألة وما فيها، يا صديقي، هي عربة وعُكّازان"، وقال بحنق شديد "إنّه الشلل!".

كنتُ أترقّب تلك اللحظة مُنذْ زيارتي الأولى. ولم تكنْ الأحاديث الأخرى جميعها إلاّ مُجرَّد كلمات. "أنظر"، فكّرتُ في داخلي "لم يحلقْ ذقنه حتّى بوجودها معه". لم أفُهْ بشيء، بل أتيتُ بإيماءة مَنْ لا يُصدّق ما تسمع أُذناه. ازداد سطوع الشمس في الخارج، وتركّزت نظراتي على الأغطية التي تُغطّي ساقَيْه.

"وماذا يقول الأطبّاء؟".

"برأيهم!"، شهق بشدّة وصعوبة بالغَتَيْن، أزاح الأغطية عن ساقَيْه، ورماها أرضاً، وكشف أمامي عن فخذَيْن مُتّسخَيْن، لم يبقَ منهما إلاّ الجلد الذي يُغطّي عظام الحوض حتّى الرُكبَتَيْن. كان قائماه يبدوان كجزء ميت. نظرتُ إلى النافذة المفتوحة، وسألتُه "ألا تشعر بالبرد؟"، أومأ برأسه نافياً، وكانت نظراته في تلك اللحظة قاسية وغاضبة. عندها نهضتُ، وأوصدتُ زجاج النافذة.

في أمسيّة اليوم ذاته، جاءت ليندا إلى الدكّان، وسألتني عن أخبار آميليو.

"أوَلَمْ تلتقيا اليوم؟"، سألتُها مندهشاً.

"علمتُ بأنهم أزالوا الجبسَ عن جسمه"، قالت.

كان معي في الدكّان لاريو وكيلينو، وهما يعرفان ليندا، واستمعا إلى حديثنا. سألتْني بعد قليل ما إذا كنتُ سأذهب لزيارته.

عندها تدخّل كيلينو، وبدأ بتصريف حماقاته "آميليو يُفضِّل زيارة الفتيات".

لم أكن أُطيق كيلينو وحماقاته في تلك الأيّام، كان من صنف البشر الذي يُلاحقكَ مردّداً جملته المعتادة "الليلة سنتسلّى ونغرق بالضحك". هذا الصنف كان قادراً على انتقادكَ، لأنّك اشتريتَ الگيتار بأموال أمّكَ، بينما أنتَ تعزف وهو يمرح ويغنّي على عزفكَ، وهو صنف البشر ذاته الذين يطالبونكَ بدفع ثمن النبيذ أيضاً، إذا ما وزّعتَ عليهم السجائر، ومن ثمّ، ينعتونكَ بأنكَ تُرافق آميليو، لأنّه متمرّد، وأنتَ لستَ إلاّ أبلهاً.

حدجتْهُ ليندا بواحدة من النظرات التي كانت تُجيد استخدامها عند الحاجة. ابتسمتْ، لكنْ، دون أن تردّ على كلامه.

سألتْني إنْ كنتُ راغباً في الذهاب معاً لزيارته.

عندما صرنا في الدرب، أبطأتْ سيرها، بعد أن ألقتْ نظرة إلى الوراء، وقالت "آميليو في حالة سيّئة، لن يستطيعَ المشي بعد اليوم. أُريد أن أعرف ما الذي يقوله لكم عندما تذهبون لزيارته".

"أنا الوحيد الذي يذهب لزيارته".

"كلا، يا پابلو"، قالت ليندا "فلدى آميليو أصدقاءٌ كُثر، ويزورونه".

"لكنّي لا أعرف هؤلاء الأصدقاء".

"اطمئنّ، يا پابلو" قالت ليندا مبتسمة، وأمسكت بذراعي "لنَجُلْ في المدينة قليلاً، لا أرغب في الصعود إلى منزل آميليو الآن. بالمناسبة، من عادتي أنْ أُكلّم من أعدّه صديقاً دونما تكلّف".

جُلنا في ذلك المساء طويلاً، وتحدَّثْنا في أشياء عديدة. أنا أشعر بالارتياح كثيراً حين يتوفّر لديّ الوقت الكافي لارتداء ثياب جديدة مساءً، مُغايرة لما أرتدي في الصباح. وأُحبّ أن تكون ربطة العنق منسجمة مع ألوان ما أرتدي من ثياب، لكنّ ليندا عَدَّتْني أُخطئُ في اختيار الألوان.

"خرجتُ معكِ بالثياب التي ارتديتُها صباحاً، كنتُ أنوي زيارة آميليو، ألا ترين ذلك؟"، قلتُ.

"لا تُشغلْ بالكَ.. سنقضي الأمسيّة في الحديث".

حين أخبرتُها بأنني قابلتُها عند بوّابة عمارة آميليو في ذلك الصباح، لم تُعطني جواباً، لم ترغبْ في معرفة أيّ شيء عن ذلك. كانت تسكتُ أحياناً، ومن ثمّ، تُغيّر مسار الحديث بابتسامة. روتْ لي عن تفاصيل وقعتْ خلال رفقتها مع آميليو في زياراتهما العديدة، وعمّا حدث عندما وقع الحادث، وطارت من فوق الدرّاجة البخارية إلى الحفرة، وعن ثوبها الذي تمزّق في الحادث.

"لكنْ، لماذا نحن نرافق بعضنا الليلة؟"، قالت بعد أن توقّفتْ فجأة. كنّا نعبر لحظتها ساحة، لم أكنْ قد وصلتُ إليها أبداً في ما مضى.

"ما الذي تعنينه؟".

"آه، كنتُ أريد أن أطلبَ منكَ ما إذا كان بمقدورك مساعدته".

كانت تتكلّم وتُبدِّل من حالتها النفسية، كما لو أنّها ثملة. لكنْ، لم تبدُ لي بأنّها بلهاء. كانت ملاحقةُ أحاديثها أمراً مُنهِكاً. كنتُ أحادثُها وأنا أمسك بذراعها والعَرَق يتصبَّبُ من أوصالي.

"أريد أن يستعيدَ آميليو قدرته على الوقوف على قَدَمَيْه"، قالت بانزعاج.

"لكنْ، لا أنْ يعودَ إلى امتطاء الدرّاجة البخارية؟".

"وأنتَ، لِمَ لا تمتلكُ درّاجة بخارية؟".

عندها قلتُ لها "بأن لكلّ منّا اختصاصه، وبأن آميليو أفضل منّي. بينما أنا أعيش في شوارع الحيّ، وأُجالس باعة التبوغ والدرّاجين".

"لكنّك تفعل شيئاً آخر أيضاً".

لم يكن ذلك ليخطر ببالي في تلك اللحظات، فذكَّرتْني بأنني أعزف الگيتار.

"وهل عزفُكَ جيّد؟".

"مَن يدري؟".

"أودّ أن أسمعكَ في أمسيّة ما".

وإذاً، فإنّنا سنلتقي مرّات أخرى؟، تساءلتُ باسماً.

"بالتأكيد"، أجابتْ.

جلسنا فيْ المقهى، وتسنّى لي إذّاك أن أتمعّن بوجهها. كانت تُحدِّق في عمق عينيّ خلال حديثي معها. بينما كنتُ أنا غارقاً في التفكير بساقَيْ

مكتبة أهد

آميليو، ولكي أعرفَ ما إذا شاهدتْ هي الأخرى ساقَيْ آميليو النحيلَتَيْن، رويتُ لها عمّا حدث في الصباح، تألّمتْ، وأغمضتْ عينَيْها، وتركتْ لي المجال لأقول ذلك كلّه. لم أنتهِ بعد من حديثي، حتّى رأيتُ يَدَها تُمسكُ بذراعي، وتقول بعجالة:

"علينا مساعدته. لن يستطيعَ العمل بعد الآن".

"وهل تعتقدين بأن لديّ عملاً ما؟ أنا أعيش في كنف عائلتي، وأعتاش عليها".

"لماذا لا تعزف ضمن فرقة موسيقية؟".

يبدو أنّني كنتُ بحاجة إلى أمسيّة مثل تلك، لأسمع هذه الجملة. لم يكنْ ذلك قد خطر ببالي من ذي قبل. كان گيتاري مناسباً لمقصف شعبي في نهاية شارعنا. لم يكن العزف مهنة لأمتهنَها، كنتُ أُحبّ العزف بمفردي.

"وهل ترتاد المرقص؟".

اتّفقنا على الذهاب إلى المرقص ذات مساء. تركتُها تحت أقواس الساحة. كانت تسكن في ساحة كاستيلّو.

٢

لم أُخبِرْه بأنني خرجتُ مع ليندا. ولمُجرَّد دخولي الغرفة، شممتُ ذات العطر، كانت النافذة مُشرَعَة، لكنّي شممتُ العطر رُغم البرد. نظرتُ إلى أعقاب السجائر علّني أعثر على بعضٍ منها مصطبغة بلون أحمر الشفاه.

"أنا واثق من أنّكَ ستُشفى"، قلتُ له "يكفيكَ إجراء تمارين إعادة التأهيل".

"أيّ تمارين؟".

"ألم تتعلّم المشي عندما كنتَ طفلاً؟".

"لكنْ، بأيّة سيقان؟".

لم يعدْ يُحدِّثني عن الورود، لم يحلقْ ذقنه، كان قد عبّ في داخله محتويات قنّينة الكونياك .

"إذا واصلتَ على هذا المنوال، فإنّكَ ستُثير فيهنّ الفزعَ".

"فزعُ مَنْ أُثير؟".

"فزع الفتيات".

ذات صباح، طلب منّي إحضار الگيتار. في تلك الأيّام، كانت تكفيني

حتّى كلمة واحدة منه، لأشعر بسعادة غامرة، كأنْ يقول لي مثلاً "لا تمزح، يا پابلو!". جئتُ ومعي الگيتار، وحاولتُ العزف وأنا جالسٌ على حافّة السرير. كان يستمع إليّ ورأسه مسندٌ إلى الوسادة. كانت عيناه تنغلقان بالشكل ذاته الذي تُغلِق فيه ليندا عينَيْها. عزفتُ بشكلٍ سيِّئ. لم يقلْ شيئاً. قلتُ له "غداً سأحمل معي بعض الشراب".

في اليوم التالي، جلستُ في المقهى المواجه لباب العمارة التي يسكنها آميليو، علّني أرى ليندا وهي خارجةٌ من عنده. رأيتُ والدة آميليو وأناساً آخرين، غادين وعائدين، لكنّ ليندا لم تأتِ. صعدتُ في الساعة المعتادة حاملاً قنّينة النبيذ بيد والگيتار باليد الأخرى. عزفتُ بارتياح أكبر، شربْنا، وتحدّثْنا. لم أكن متأكّداً بأنّني أشمّ عطر ليندا أم لا. وفي الأيّام التالية جلستُ في المقهى لمرّاتٍ عديدة، لكنّي لم أرها تمرّ.

"اسمعْ"، قلتُ له ذات صباح، "لقد كنتَ محظوظاً بأنكَ أُصبتَ بكسور في العظام فحسب، فقد كنتُما ثملَيْن للغاية. هل فكّرتَ في هذا الأمر؟".

"نعم، فكّرتُ".

"تلك الفتاة، لم تُصبْ بأيّ أذى".

"دائماً، لا تُصابُ النساءُ بالأذى".

"لكنّكما كنتُما في غاية الثمل".

"ومَنْ يدّعي ذلك؟".

مرّة سألني ما إذا كنتُ أذهب إلى المرقص؟

"لا رغبة لديّ في ذلك"، أجبتُه "أجول في الطُّرُقات فحسب".

"ألا تشعر بالرغبة إلى النساء؟".

"ليس هذا هو الموسم الأنسب"، قلتُ له "وإذا ما كنتَ أنتَ نفسُك قادراً على الاستغناء عنهنّ الآن، فبإمكاني أنا أيضاً أن أُطيقَ غيابهنّ".

"تلك المرآة!"، قال "أشعر وكأنني مستلقٍ في صالة سينما".

"أنا أُريد أن تأتي النساء أنفسهنّ للبحث عنّي"، قلتُ "أنْ أمكث مستلقياً في الفراش مثلكَ، وأتركهنّ يفعلنَ ما يُردْنَ بأنفسهنّ. فالنتيجة هي ذاتُها في نهاية المطاف".

كان آميليو يُحدِّق في السقف دونما رَدٍّ على ما أقول.

"لا عمل لديكَ، ولا تسعى وراء الفتيات "، قال "أنتَ شابّ وسيم، ومُحيّاك تُثير الحبور".

حاولتُ، مُنذْ ذلك اللقاء أن أتصرّف معه خلال الزيارة بشكل تبدو فيها الأمور وكأنّني لم ألتقِ بليندا أبداً. كان ذهني منشغلاً بساقَيْه وبالدرّاجة البخارية، إلاّ أن ليندا كانت تقتحم ذهني. كنتُ أشعر وكأنها بين ذراعَيّ، تمسّ ركبتَيّ وهي راقصة، تضحك ملء شدقَيْها، تسير بجواري، أو تسبقني.

في مرّات كثيرة، لم أعزف الگيتار خلال زيارتي لآميليو، إذْ لم يكن مناسباً أن نحتسي الشراب، ونثمل في كلّ صباح، ولم أكن أزوره في فترة ما بعد الظهر، وحيث كانت أمّه منشغلة بشؤون المطبخ، ولا ترغب أن يحتسي ابنُها الكثيرَ من الشراب. مرّةً، أوقفتْني عند الباب، وحادثتْني. لم تبكِ خلال الحديث، ولم ترفعْ صوتها، كيلا يستمع آميليو إلى حديثنا، أخبرتْني بأن والده أشبعَهُ ضرباً حدّ الموت في إحدى المرّات، لأنه كان يهرب من المنزل

ممتطياً درّاجته الهوائية، دون أن يعلم أحدٌ منّا أين يذهب، وأخبرتْني أيضاً بأنّ آميليو أُصيب في طفولته بمرض في الرأس، وبأن الطبيب تمكّن من شفائه عبر زرقه حقنة واحدة في اليوم. "وبِمَ تفيد المستشفيات اليوم؟ يُبقون الناسَ في الردهات لوقت طويل دون أن يُحقّقوا لهم الشفاءَ، يلتهمون المال، ومن ثمّ يُعيدون المريض إلى عائلته".

ليس بمقدور آميليو القيام بأيّ شيء الآن، أخبرتْني. وأنا أستمع إليها تُحدِّثني في تلك الأمور، شعرتُ بالخجل، لأنني أحمل الگيتار بيدي، قلتُ لها بأنّ آميليو شابّ طيّب، وبأنه سيعثر بالتأكيد على عمل ما.

"كان يتقاضى كمّاً لا بأس به من المال، لكنّه أنفق كل شيء"، قالت "كان يُنفق على الجميع، فهل هناك من أحدٍ جاء لزيارته، وليُعيد إليه بعضاً ممّا أنفقه عليه؟. بِعتُ الراديو، وأنفقت كلّ ما كان مدّخراً في دفتر التوفير، ما الذي منحه أولئك الناس لآميليو؟".

"لديه أصدقاءٌ يُحبّونه".

"يأتون إلى هنا للثرثرة فحسب...".

ناداها آميليو من غرفته طالباً منها أن تتركَني أذهب إلى بيتي.

"مَنْ يَنعم بصحّة وافرة لا يخطر المرضى بباله"، قالت العجوز.

في هذه المرّة، بادرتُ أنا بسؤال ليندا ما إذا كان بمقدورنا فعل شيء يَفيد آميليو.

"أنا فعلتُ الكثير"، قالت بجفاء "صرتُ ممرّضة له في المستشفى،

في الوقت الذي لم تكنْ أنتَ تعرف حتّى بمكان رُقاده. أعدتُ ترتيب الفوضى كلها التي تركها. اسألْه عمّن أنقذ من الضياع ما كان له من مالٍ في مدينة نوفارا؟".

"لا، لا تسألْه عن أيّ شيء"، استدركتْ بعجالة وهي تمُسكُ ذراعي "إنْ لم يسألْكَ هو شيئاً بعينه".

كانت معرفتي بليندا تزداد كلّما استمعتُ إلى أحاديثها. في تلك الأمسيّة، روينا لبعضنا أموراً عديدة، ومزحنا كثيراً. لكن لحظة تفكير واحدة بأمرٍ مُحدّد كانت كافية لزَرْع الرعب في داخلي، وهو ألاّ ألتقيها بعد هذه المرّة. لم أكنْ أعرف أين، وكيف تعيش، كنّا نمزح ونمرح فقط، ونُغلِق الأمور. كان الحديث والمزاح معها يُشعرني بالبهجة، وصار ذلك مساراً للاتّفاق ما بيننا. إلاّ أنّ إحساساً ما كان يراودني، بأن عواقب الأمور ستكون عكس ذلك.

"على أيّة حال، فآميليو لم يرقصْ برفقتكِ"، قلتُ لها ونحن عائدان "وليس ذهابنا إلى المرقص معاً خطيئة".

"أنتَ على حقّ"، قالتْ لي.

تحدّثْنا عن آميليو الذي لم يعد قادراً على الرقص، لكنه ما يزال قادراً على احتساء الشراب حتّى الثمالة. يستطيع الجلوس، وبإمكانه ممارسة الحبّ أيضاً. أكّدتْ لي قناعتها بأن لدى آميليو الآن رغبة عارمة في ممارسة الحبّ "لدى الجميع هذه الرغبة"، قالتْ "هل تعرف ذلك؟".

ثمّ سألتْني ما إذا كان آميليو طلب منّي أن أُرسل إليه امرأة، قالت "أنا لا أعرف أحداً من تلك النساء، مَنْ أعرفهم هم رجال فحسب".

"وهل هناك امرأة يمكن أن تعاشرَه الآن؟".

"ولِمَ لا؟".

إذآك قلتُ لها "وإذاً، فالدور دوركِ أنتِ".

"لا أرغب أن أُشعرَه بالبؤس بفعلٍ كهذا" قالت.

في اليوم التالي، أخبرتْني ليندا بأنها ترغب في مرافقتي خلال زيارتي لآميليو "أريد أن أستمعَ إلى أحاديثكَ معه"، قالتْ "أن أتعرّفَ على ما تقولونه فيما بينكم أنتُم الرجال".

ذهبتُ إلى منزل آميليو في ساعة غياب أمّه، حملتُ الگيتار، وشربنا ما تبقّى في القنّينة من نبيذ، شربْنا معاً، وضعتُ الگيتار جانباً فوق السرير، فأخذه، وصار يتلمّس أوتاره. كان صامتاً، أخفض رأسه يُنصت نغم الأوتار. "هل يُجيد آميليو العزف؟"، فكّرتْ "بمقدوره أن يخرج مستنداً على عكّازَيْن، ويشحذ كعازف، مثل أولئك الذين يُعسكرون في زوايا الطُّرُقات. معوّقون، عميان، ربمّا كانوا في البدء شباباً مثل آميليو بالضبط. مَنْ يعلم ما إذا كانت ليندا تفكّر بالشيء ذاته؟ كنتُ سأغضب، لو أنها جاءت في ذلك الصباح".

عندما أعاد آميليو الگيتار إليّ، بدأتُ العزف بهدوء متخيّلاً نفسي بأنني بمفردي، ورويداً رويداً صرتُ أتلذّذ العزف، ولا أكفّ عنه، أبحث عن لحظات العبور من لحن إلى آخر. لا أعلم لماذا كان آميليو يتفهّم ما أفعل، كان من نوع البشر الذين يُحبّون عزف الگيتار كيفما كان، يحبّون اليد التي تعزف وقدرتها، وليس رقّة ما تعزف تلك اليد. كان يستوعب اللحن، لكنه لا يُدرك عبوري من لحن إلى آخر. كانت عيناه مرتكزتَيْن على أناملي.

في لحظة ما، رفعتُ رأسي، فوجدتُ ليندا واقفة عند الباب، كانت

مسرورةً، وأومأت لي بسبّابتها أن لا أُصرِّح بوصولها. سحب آميليو نفسه إلى الأعلى مستنداً على مرفَقَيْه.

بادرتْ ليندا بالكلام في الحال، قالت أنْ لا أحد يوقظها في الصباح على عزف الگيتار، وبأننا نفعل ذلك خلسة، لذا قرّرتْ أن تُنصتَ إلى العزف هي الأخرى في ذلك الصباح. اقتربتْ من السرير، ونظرتْ إلى آميليو، ومرّرتْ راحة يدها على غطاء الفراش. لم تَقلْ شيئاً عن قنّينة النبيذ الفارغة على الأرض. نهضتُ من حافّة السرير، لأفسحَ لها المجال بالجلوس.

"يا لغرابة وصولكِ في هذه الساعة!"، تساءل آميليو بنبرة غائمة. استلقى، وبدا هادئاً.

أدركتُ بأن عليّ الانصراف، عليّ أن أهرب الآن، لأن وجودي هناك لم يعدْ ضرورياً. كانت ليندا قد لفّتْ حول عنقها إيشارب الحرير شذري اللون، جالتْ في الغرفة، كما لو أنها من ساكنيها منذ الأزل.

"أنتما تمارسان هذا الطقسَ منذ وقت طويل"، قالتْ ليندا بحزم "لِمَ لا تفعلان الشيء ذاته في وجودي؟".

ثمّ قالت لي "لا رأيَ لديكَ؟ اسمعْ، پابلو، لنرفعِ الكِلفة ما بيننا. هل أخبرتَ آميليو؟".

كان آميليو صامتاً يُحدِّق في نفسه في المرآة.

"لا تشعر بالرغبة في العزف من جديد؟"، قالتْ "سأُعدّ القهوة، لكنْ، اِعلَمْ بأنّني سأُنصت". ذهبتْ إلى المطبخ. كان الگيتار يُثقِل ذراعي، لا أعلم ما الثمن الذي كنتُ مستعدّاً لدفعه، لأكون في المطبخ في تلك اللحظة.

"افعلْ ما يحلو لكَ"، قال آميليو "إذا كنتَ ترغب في العزف، فاعزفْ ثانية".

عندها جلستُ على حافّة السرير، وأمسكتْ بالگيتار. لم أعزفْ، بل داعبتِ الأوتارَ فحسب. أوحيتُ بأنّني غارق في التفكير، ولستُ متنبّهاً إلى شيء. أشعل آميليو سيجارة. من المطبخ كانت ترِدُ إلينا أصوات أكواب القهوة.

نادتْني ليندا "تعال، ساعدني".

قابلتُها عند باب المطبخ، وحدجتُها بنظرة. كانت تحمل كوبَيْن، وطلبتْ منّي حمل كوبي، وعند عبورها مسّتْني بخاصرتها.

عندما عدتُ إلى الغرفة، كانا قد ابتدآ بالحديث "ستكون حالتكَ أفضل لو شربتَ القهوة بدلاً من النبيذ".

"اسمعي، اتركيني وشأني" قال آميليو.

تكلّما بعد ذلك عن الدرّاجة البخارية. قالت ليندا بأن شخصاً ما آتى لرؤية ما كانت عليه. "عندما سأراها بدوري"، قال آميليو "سيكون لنا حديث عنها".

"أنفقتُ كل ما لديّ من مال، وأنا خالية الوفاض الآن"، قالت ليندا "پابلو أفضل منّا جميعاً".

كانت تُحدِّق بي. ونظر إليّ آميليو بدوره.

"لا تعزفْ، ولا تفُوه بكلمة"، قالتْ ليندا وهي تضحك "ألا تُريد أن ترفع الكلفة بيننا؟ أما زلتَ تُفكّر باستنباط ما يمكن أن يُفيد آميليو؟".

قال آميليو "وما دَخْله هو في هذا كله؟".

كنتُ وضعتُ الگيتار على السرير، قلتُ بعُجالة "أتريدينني أن أعزف؟".

أمسكتُ باللحن الأوّل الذي خطر ببالي، وصرتُ أعزف كالممسوس، بهدوء، لكنْ، دون أن أعرف أيّ وجهة ستسلكها أناملي. أحسستُ خلال العزف ثانيةً بالألحان التي أهواها، كانت كالنشوة، لكنّي كنتُ أدرك أيضاً بلا جدوى ذلك كله، وأنّ عليّ أن أكون الآن خارج هذا المكان. استمعا إليّ صامتَين، وفي النهاية، أتتْ ليندا بابتسامة تغنُّج.

قال لي آميليو بأنّني عزفتُ بشكل جيّد. "ألا تشعر بالرغبة في الرقص؟"، داعبتْه ليندا وهي تضع كوب القهوة جانباً "هل تذكُرُ رقصتنا عند مقهى (جيجي)؟ كان هناك گيتار واحد يعزف".

تحمّس آميليو.

"هل تذكُرْ؟" قالت ليندا "كان الطقس بارداً، ورفع الجميع ياقات ستراتهم، وكان العازف يُبلِّل أنامله بشراب "الگراپّا"(*) ليقاوم البرد".

"كان الشارع مغطّىً بالثلج"، قال آميليو "ذات الليلة التي انزلقت بنا الدرّاجة".

"كنّا كمجنونَيْن. تحت أقواس الميدان في شهر يناير".

رفعتْ ليندا جريدةً من الأرض، وسألتْ آميليو "هل تقرأ هذه الصحف جميعها؟" واستدارتْ إليّ "يعدّ نفسه مالكاً لكلّ صحف تورينو"

نظرتُ إليها دون أن أقول شيئاً، "في حين، پابلو مثلي، لا يقرأ الجرائد".

*) "گراپّا" شراب مُستخلَص من الكروم بنسبة كحول عالية.

"لا أُصدّق ما تقولين". ردّ آميليو.

لم أعد أعرف ما الذي عليّ أن أفعله في تلك اللحظة، لم أعرف ما إذا كانت ليندا ضجرةً من وجودي هناك، أو أنّ آميليو قد أدرك كل شيء. كنتُ أراقبهما وهما يتحدّثان، وددتُ أن أكون خارج ذلك المكان الآن، أن أكونَ على ضفّة "البو". كنتُ أتصوّر ليندا بمفردها معه في تلك الغرفة.

نهضتُ، وقلتُ لهما "وداعاً، سأذهب إلى البيت".

"لا ترغب في بقائي هنا"، قالتْ ليندا وهي ترمقني بنظرة حادّة.

"لا أرغب في أيّ شيء الآن" قلتُ بحدّة "يجب أن أذهب".

"هل تشعر بغيظ تجاهي؟"، قالتْ ليندا.

هززتُ كتفَيّ باللامبالاة، وضعتُ الگيتار في جرابه، وكانت تنتابني رغبة جامحة بتحطيمه.

"أعطني سيجارة على الأقلّ"، قالت.

"إنها فوق السرير"، وخرجتُ.

أمضيتُ ذلك الصباح أجول دونما هدف محدّد. مطرٌ خفيف كان يُبلّل الطُّرُقات، ويخلّف كمّيّات من الطمي. جُلْتُ في أعماق تورينو، في شوارع ضائعة، وقفزتْ إلى ذهني ذكرى الليلة التي قضيناها، ليندا وأنا، نجول في الطُّرُقات، وحين توقّفتْ في ساحة، وسألتْني على حين غِرَّة "لكنْ، لماذا نحن الليلة معاً؟". مَنْ يدري أين هي تلك الساحة. توقّفتُ في الشارع الخالي من أية نأمة حياة.

كانت ليندا ذهبتْ إلى دكّاننا تبحث عنّي، وتركتْ لي رسالة على قُصاصة ورق، تطلب فيها منّي أن أذهب لزيارة آميليو عندما تهدأ ثائرتي، فهو وحيد. وضعتِ القُصاصة على الطاولة، وكانت تأمل بلقائي في بيت آميليو.

لم أزرْ آميليو في تلك الأيّام. أمضيتُ جُلّ الوقت في الدكّان، كنتُ أقفُ عند الباب وأُدخّن من السجائر أكثر بكثير ممّا أبيعُ منها. وكنتُ، في بعض أيّام الضباب والشمس المشرقة أتخيّل ليندا وهي تصعد درجات السّلّم إلى منزل آميليو، تمسّ غطاء فراشه براحة كفّها، تقبّله، وتعانقه. كنتُ أتخيّل صوتها وهي تواسيه قائلة "هل تذكُرُ؟". ربّما كانا الآن مستلقيَيْن في الفراش معاً.

وفي المساءات، كنتُ أخرج مع بعض من معارفي، مرّة مع لاريو، ومرّات مع الآخرين. كنتُ أرافق فتيات لمشاهدة الأفلام. لم أتحدّث عن آميليو، وكنتُ أصمت إذا ما ذكَرَ اسمَهُ أحدٌ منهم. وأمعنُ في التفكير قائلاً لنفسي "كلّ هذا للاشيء.. كلّ هذا لأن ليندا ليست سوى فتاة بلهاء". لكنّي، في الوقت ذاته، كنتُ متيقّناً بأنها ليست بلهاء. في تحصيل الحاصل هي تُفضّل آميليو المُقعَد عليّ أنا الذي لا أُجيدُ إلاّ عزف الگيتار، كذلك العازف الذي بلّل أنامله بـ "الغراپّا"، وازدَدْتُ قناعةً بأنها لن تعودَ إليّ.

لكنّها جاءتْ بوجهها المشرق الباسم. دخلتْ ثابتةَ الخطو - لم يكن في الدكّان زبائن آخرون - وسألتْني ما إذا تجاوزتُ عصبيّتي. في تلك الأثناء، دخلتْ والدتي إلى الدكّان، فاشترتْ ليندا بعض الطوابع البريدية، واتّخذت مظهراً جادّاً إلى درجة أن والدتي لم تنتبهْ إليها مَنْ تكون. فكّرتُ

في داخلي "ها هي نفسها بالذات، إنّها ليندا". طلبتْ منّي مرافقتها حتّى باب الدكّان، وأخبرتْني بأنها لم ترَ آميليو منذ حين. كانت تلفّ الإيشارب ذاته حول عنقها. "هل تريد الخروج معي هذا المساء؟"، سألتْني.

٣

وهكذا عاودنا اللقاء والخروج معاً، كان واضحاً، بأننا لم نكن مُجرَّد صديقَيْن يلتقيان فحسب. كانت ليندا تعرف أماكن عديدة في تلال المدينة، وحيث يصل الرجال والنساء بسيّاراتهم للاختلاء ببعضهم. كان للوصول إلى هناك كُلفة ما، لكنْ، من المؤكّد لن تصطدم بمَنْ يعرفكَ، ولن يقتفي آثاركَ أحدٌ. كنّا نرقص بهدوء، ثمّ نجلس، لنتجاذب أطراف الحديث. سألتْني ما إذا كان أداءُ العازفين يُعجبني.

"أنتَ تعزفُ، ولذا ينبغي أن يكون العزفُ الذي تستمعُ إليه جميلاً"، وأضافتْ "عزفكَ جيّد، وقد لمستُ ذلك في منزل آميليو، واكتشفتُ مَنْ تكون حقّاً. لماذا لا تجلب الگيتار معكَ إلى مرقص (پارادايس)؟".

"هل جُننتِ؟ سيطردوننا".

"لنرقص إذاً".

تبادلنا القبل حين خفتتِ الأضواء. كانت ليندا تُراقصني، وتضمّني إليها باحثة عن شَفَتَيّ. كنتُ واثقاً منذ حين بأن الأمور ستأخذ ذلك المسار، لكنّي لم أشعرْ بأنني أقترف خطيئةً. كان عسيراً أن تجاورَها دونما أن تتلمَّسها بيَدَيْكَ.

كنّا نرتاد مرقص (پارادايس) دائماً. كان الطقس ما بين الأشجار بارداً، كنتُ أفكّر بسيّارة آميليو، وبدرّاجته البخارية.

"كنتُ تأتين إلى هنا برفقة آميليو؟" سألتُها في إحدى الأمسيّات.

"أنا آتي إلى هنا كلّما سنحتْ لي الفرصة".

"وهل تأتين بمفردكِ؟".

"لسنا بمفردنا أبداً عندما نرقص".

"اسمعي" قلتُ لها "أخبريني بكلّ ما كنتُ تفعلين مع آميليو".

حدجتْني بنظرتها وهي تضحك.

"ألا يكفيكَ بأننا موجودان معاً هذا المساء؟! أليس أجمل أن نرقصَ بدلَ الحديث عن الآخرين؟!"، ثمّ قالت "كانت حياتي مليئة بالحركة والاضطراب، كنتُ أسافر إلى نوفارا، سالّوتسو وكازالي. آميليو كان يُرافقني في بعض المرّات بدرّاجته البخارية، كنّا نرحل صباحاً، لأحملَ بعض النماذج إلى زبوناتي".

روتْ لي بأنّها تعرّفتْ عليه في السنة السابقة، كانت ذهبتْ إلى ساحل (الريفييرا) حاملة نماذج من بضاعتها. وبعد أن استحمَّتْ في البحر نسيتْ شالها الشذري على الساحل. "إنّه شالٌ جميل للغاية"، قالت "لا يمكن العثور الآن على مثيل له". في اليوم التالي، ذهبتُ إلى مضمار سباق الخيل، وإذا بشخص طويل القامة يصل إلى المكان، وقد برز من جيب سترته الجلدية حريرٌ شذري اللون، "ذلك الشال لي"، فأخرج آميليو الشال، وقال "لنرى ما إذا كنتِ على صواب"، ثمّ تشمّم كتفها، وقال لها "أنتِ على صواب، بلا شكّ". وكان ذلك هو اللقاء الأوّل بينهما.

"كنتُ أجهل بأن آميليو ضليعٌ بالعطور".

"آميليو شابّ ذو مقدرات عالية وكبيرة".

بحثتُ في تلك الليلة عن عطر ليندا وأنا أراقصها، وودتُ لو كنتُ على ساحل البحر، تحت شعاع الشمس معها، أستقلُّ القطار، وأدور معها في البلدان. كنتُ أُريد أن أتوجّه إلى عملي، وأنا أعرف كل ما يختصّ بحياتها، وعمّا شكّله آميليو في تلك الحياة، وكيف كانت في طفولتها. انتبهتْ ليندا إلى يَدَيَّ الراجفَتَيْن، أمسكتْ بذراعي، وضمّتْني إليها ونحن عائدان إلى الطاولة، "ما بكَ!" سألتْني، وقد اصطبغ وجهها بحُمرة قانيّة.

حدث كل شيء في تلك الأمسيّة، أذكرُ بأنّ ليندا كانت مُضطربة، وكانت هي الليلة التي التقينا فيها بلوبراني. مرّات كان هناك مَنْ يُلقي التحيّة على ليندا، لكنّها لم تَدْعُ أحداً إلى طاولتنا أبداً. أمّا ذاك، فقد جاء إلى الطاولة، وهتف "أنتِ هنا؟".

أطلقتْ ليندا صرخة، وأمسكتْ بيده. رمقتْه بنظرة عاجلة. كان بديناً مليئاً بالنشاط، شارباه كثّان، ويرتدي معطفاً. وابتدأ هو وليندا لعبة الأسئلة والأجوبة المصاحبة للضربات على الكتف والذراع، وانتهى بي الحال أن أُلقي عليه التحيّة، ثمّ جاء النادل، ليأخذ معطف لوبراني.

قدّم لي نفسه "لوبراني"، وجلس. تحدّث مع ليندا فيما كان يرمقني بنظرات. كانت ليندا تبتسم. كان من نوع الرجال الذين يبدون وكأنهم يُدغدغون النساء في أثناء الكلام. جاء إلى المكان ليرقص، وليرى ما إذا سيتعرّف على امرأة. كان دائم التمسيد على شعره، ويقول "صار رمادياً".

قالت ليندا بأنها تجده في كل مكان. نظر إليها بريبة "أنتِ عثرتِ على ضالّتكِ؟"، تمتم من خلل شاربَيْه، وقال لها "راقصيني في هذه الجولة".

وفيما كانت تحتضنه في أثناء الرقص، حيّتْني ليندا بحركة من يدها، إذْ بقيتُ جالساً إلى الطاولة أراقبهما وهما يرقصان. كنتُ مضطرباً أستمع إلى الموسيقى، وأُراقب خطوات الراقصين، فيما كان تفكيري يرحل صوب الأشجار خارج المرقص، وإلى الشارع البارد وجميع مراقص الدنيا. فكّرتُ بالذين يبتسمون الآن ويستمتعون. فكّرتُ بمَنْ في حوزتهم مالٌ وفير، لكنّي كنتُ في الوقت ذاته أُفكّر بأن ليندا موجودة برفقتي داخل هذا المرقص، وسرعان ما ستعود إلى الطاولة، وسننتهي بالتأكيد من الحديث الذي ابتدأناه.

انتهت الرقصة، لم أعدْ أراهما، وبعد قليل، سمعت صوت ليندا، عاد لوبراني بعدها وبرفقته فتاة شقراء، وجلسا إلى طاولتنا. فكّرتُ "لوبراني هذا صيّاد جاء إلى هنا ليصطاد سمكة الليلة. وأعلن بأنه يرغب في الاحتفال بهذه الأمسيّة وبهذا اللقاء، فأمر بإحضار نبيذ أبيض، وشراب آخر. ليندا هي التي عثرت على الفتاة الشقراء، وكانت تُحادثها دون تكلّف، وتناديها باسم لِيلي، وسَعَتْ إلى التوفيق بينها ولوبراني، وقالت "آه، لو عرفتْ كارلي الآن!". لكن لوبراني حصر حديثه مع ليندا فحسب، كان يُمسك بإحدى يَدَيْه ذراع الشقراء، ويُطبطب على كتفها بالأخرى، كما لو أنّها ابنته. وفيما الفتاة تحدِّق حواليها، كان لوبراني وليندا يتحدّثان عن سالف الأيّام عندما كانت ليندا تحمل إلى المسرح علبَ النماذج للبيع، وكان حضورها يُشعلُ أعصاب كارلي، فتُطلق على الدوام العنان لشجار فاضح مع لوبراني.

"تلك المرأة المسكينة"، قالت ليندا "أما تزال جميلة؟".

"وجب عليّ إسكانها في مَنزلي"، قال لوبراني وهو ينظر إليّ بشكل

يوحي إليّ وكأنني أنا مَن اقترف ذلك الذنب. ولأُرفِّه عنه في تلك اللحظة، وأُدخل السرور إلى قلبه، بادلتُه ابتسامة.

"إنّها تهرب من المنزل بين الحين والآخر"، واصل لوبراني "ما تزال تريد مواصلة الغناء، وقد تكون الآن في نابولي".

دعانا للشراب، وصبّ النبيذ في الأقداح للجميع. عزفتِ الموسيقى، نهض وسحب لِيلِي دون أن يفوه بشيء، وابتدآ يرقصان معاً.

"من أين نبع هذا؟"، قلت لليندا "من أيّ غابةٍ جاء هذا الهدهد؟".

"كان مالك المسرح"، قالت بصوت واطئ "عندما كنتُ صبيّة، كنتُ أحمل إلى المسرح ثياب الراقصين، كان يحتلّ درجات سُلّم المسرح، ليُحدِّق بنا ونحن نمرّ بجواره".

"إنّه أكثر حماقة من الفتاة التي يُراقصها".

"لقد جمع أموالاً كثيرة، وهو ليس أحمقَ كما قد يبدو".

اعتقدتُ بأن ليندا كانت تُخطِّط لأمرٍ ما. كانت عيناها تتضاحكان، ولم يكنْ ذلك بفعل الشراب، فقد احتستْ منه القليلَ. نظرتْ إليّ مثل ذي قبل عندما كنّا جالسَيْن بمفردنا، وقالت "اطمئنّ"، ومسّدتْ ذراعي براحة يدها.

"ومَنْ هي الشقراء؟".

"ما يُدريني مَنْ تكون؟" قالتْ بمرح.

تُرى لماذا يُمسكان بذراعَي بعضهما مبتهجَيْن. كانت الفتاة ترفس الأرض، لتنتعل حذاءَها بشكل جيّد، وهو يسندها، كي لا تتهاوى أرضاً.

وتوقّف لوبراني فجأة، وصاح "ما للجميع هنا أقلعوا عن الشرب والرقص؟!"، صاح فجأة "لم أعد أرى ليندا التي عرفتُ في ما مضى".

صار يُثير انزعاجي. أعرف هذا النوع من الرجال الذين ينهارون أرضاً باللكمة الأولى. إلاّ أنني لم أكن واثقاً من نفسي داخل ذلك المرقص. "يمكن أيضاً أن نرتاح لو بقينا بمفردنا"، قلتُ.

عندها ضحك لوبراني بملء شدقَيْه، وضحكتِ الشقراء أيضاً، لا لشيءٍ فهمتهُ، بل لترافقَهُ في الضحك، وجلسا، ثمّ هدأتِ الحالة.

أنهينا الأمسيّة على هذه الشاكلة. وابتهجتْ لِيلِي الشقراء، وروت لنا بأنّها تعمل في الصباح مُحمِّمة للكلاب، تمشِّط شَعْرَها، وتحملها إلى منازل مالكيها.

"حاذري، وافتحي عينَيْكِ جيّداً عندما تُحمِّمين ذُكُور الكلاب"، قال لوبراني، لكن لِيلِي لم تُدرك مغزى مزحته. تركتُهم يتحاورن فيما بينهم، كانت ليندا تفي بالمهمّة، وتردّ على الأسئلة جميعها. وبين الحين والآخر ترقص، وأنا أرافقها. أكانت تلك هي ليندا بالفعل؟ وددتُ لو أمسك بها، وأهمس في أذنها "أهذه أنتِ؟!".

أخيراً وبعد أن عادتْ من رقصة مع لوبراني، قالت "هل نذهب؟".

كان الطقس في الخارج بارداً، وكنّا نشعر ببرودة الطقس في المرتفع، وانهالتْ علينا قطرات من المطر، قالت ليندا "كان من الأفضل لو أنّنا بقينا داخل المرقص".

وانتهى بنا الأمر بأن ركبْنا في سيّارة لوبراني. سيّارة كبيرة. "لنذهب،

ونُنهي الحفلة في بيتي"، قال. جلستُ إلى جانب ليندا، وضغطتُها نحوي، وأمسكتُ بيدها في ظلمة السّيّارة، لأؤكّد لها بأنني استوعبتُ كل شيء.

كان لوبراني يسكن قرب برج "ليتّوريا". أدخَلَنا إلى صالة ذكّرتْنا في الحال بالمرقص الذي تركناه للتوّ. مصابيح مخفيّة في الجدران، وطاولة زجاجية كبيرة. حرّك الغرامافون، وصبّ لنا الشراب.

جلستُ وليندا على أريكة واطئة. كنتُ أشعر بالقرف من الرقص. رقص لوبراني برفقة لِيلِي قليلاً في منتصف الغرفة التي بدت وكأنها صُمِّمتْ لما تحتويها من أثاث. كانت الشقراء تهزّ أرضيّة الصالة خلال الرقص.

"لو لم تكن السماء ممطرة"، قالت ليندا "لكان بمقدورنا رؤية تورينو وسقوفها القرميدية الحمراء من هنا".

ثمّ ابتدأت لِيلِي بالتراكض ولوبراني يُلاحقها. "أطفئي النور"، قالتْ ليندا.

شربنا مرّة أخرى، كانت لِيلِي تتضاحك كدجاجة. "مسكينة"، فكّرتُ "أيُعقل أنّها تستمع إلى هذه الدرجة؟"، انزويا معاً، وسمعتُهما يشهقان، وفي الظلمة، امتدّت يد ليندا لتُمسكَ بيدي.

"ماذا تريدين؟" قلتُ لها وأنا أبتسم. كنتُ على وشك أن أقولَ لها "مَنْ يدري ما الذي يفعله آميليو في هذه الساعة؟"، لكنّي أحجمتُ عن ذلك، احتضنتُها، وحدث كل شيء.

عندما نهضتُ، لم أكن أرى شيئاً، وودتُ لو أنني كنتُ بمفردي. كانت النافذة أكثر وضوحاً من الأجزاء الأخرى في الصالة. لمستُ جبهة ليندا، وبقيتُ جالساً إلى جوارها.

مكتبة أهمد

"أكلٌ شيء على ما يرام؟"، قالت ليندا دون أن تُحرِّك ساكناً. قبّلتُها، واستلقيت إلى جوارها.

نادتْنا لِيلِي بعد قليل وهي تصرخ. كان لوبراني في الحمام يتقيّأ ويتصبَّب عَرَقاً، لا يستطيع الوقوف باستقامة، وكانت لِيلِي عاجزة عن إسناده. هناك، داخل الحمّام أيضاً، كانت الأضواء مخفيّة في الجدران المغطّاة بقطع السيراميك. قلتُ لِليلِي "هذا الوحش عبارة عن فجيعة". حدّقتْ بي بدهشة، كما لو أن الجاهل هنا هو أنا، إلاّ أننا غرقْنا بالضحك، وقرّرنا غَطْسَ رأس لوبراني في حوض ماء، وانتهى كل شيء. خرجتْ لِيلِي من الحمّام بخطوها الراقص. تركتْ لوبراني جالساً على المرحاض، يُحدّق بالأرض وهو يشهق بصعوبة وَحِدّة. عدتُ إلى الصالة. قالت ليندا، "لنمكثَ هنا قليلاً، ولنُدخّن".

لم أعد أتعرّف على الغرفة السابحة في ضياء قوي. شعرتُ وكأنني في مكان آخر. كانت لِيلِي وليندا تُدخّنان، والطاولة ملأى بالكؤوس التي اندلق الشراب من بعضها، وسال على زجاج الطاولة. كان كلّ شيء مختلفاً. دون أدنى رغبة حدّقتُ بالأريكة والوسائد المتناثرة وبساقَيْ ليندا. لم يكن أحدٌ منّا ينبس ببنت شفة.

قالت لِيلِي "سيحلّ الفجر قريباً".

"أعطني لأشربَ"، قالتْ ليندا.

كان مذاقُها ما يزال في فمي وعطرُها يغمرُ أنفي، ودون أن أفوه بكلمة، رشفتُ قطرة من كأسها، وناولتُها إيّاها. حدّقتْ فيّ بعينَيْن واثقَتَيْن. ابتسمتْ، وشربتْ.

لم يطلعِ الفجرُ بعد، لكن الوقت كان متأخّراً. سمعنا صرير أحد الأبواب وهدير خطوات ثقيلة، وكان ذاك لوبراني. كان مبتلاً بالكامل، استند إلى الباب، ورمقَنا بنظرة شرّيرة.

رمت لِيلِي سيجارتها. سار لوبراني في الصالة مترنّحاً حتّى بلغ الأريكة.

"يجب أن نتركه ينام".

عند ذاك، قفزتْ ليندا واقفة، وقالتْ "أنتَ رافقْ لِيلِي إلى منزلها، أنا سأضعُه في فراشه، وأذهب إلى البيت، فأنا أسكن على بُعد خطوَتَيْن من هنا".

ألحّت لِيلِي "لنذهبَ جميعاً، فهناك مفتاح واحد فقط".

"ابقَيْ معي أنتِ أيضاً، إنْ أردتِ"، قالت ليندا "وستذهبين إلى العمل مباشرة من هنا".

عندها قلتُ "أنتما تثيران ضحكي. إنّه ثملٌ وكفى، وسيستيقظ في الغد ناسياً كلّ شيء".

خرجنا معاً، ومشينا تحت أقواس المدينة الفارغة. رافقتْنا ليندا لمسافة قصيرة. كنّا نسمع وقع خُطانا على حجارة الطريق. وعلى حين غِرَّة، قالت ليندا "أنا وصلتُ".

وذهبتْ غارقة في الضباب. أمسكتُ بذراع لِيلِي، وطوّقتُ عنقها بذراعي. سرنا مسافة دون أن نفوه بكلمة واحدة، عبرنا الحدائق صوب حديقة "دورا".

"أبإمكانكَ أن تتصوّر هذا اللامعقول؟"، قالتْ لِيلِي "مَنْ لديه سيّارة ينام مغشياً عليه في بيته، وعلينا نحن أن نبلغَ مبتغانا سيراً على الأقدام".

ليستْ بلهاء، كما توقّعتُ في البداية، كانت تتقافزُ، وتتفّهمُ أسباب صمتي. وأدركتْ بأنني أرغب في البقاء بمفردي. توقّفتْ فجأة، وقالت "لا نُصادف أحداً في الدرب. وأنا معتادة على الليل".

"هيّا بنا، إذاً" قلتُ لها بحزم.

ثمّ مزحْنا وتحدَّثْنا عن ليندا. كانت لِيلِي تعرّفتْ عليها في مرقص (بارادايس). لم تُخبرني مَنْ كان برفقتها في الأمسيّة التي التقتْها لأوّل مرّة. لم أسألها عن ذلك. كنتُ أشعر بدوران في الرأس. تركتُها تتكلّم، إلاّ أنّني سألتُها عن سبب ذهابها إلى المرقص بمفردها.

"لماذا أذهب بمفردي؟"، تساءلتْ مندهشة. ثمّ سألتُها ما إذا كانت تهوى حقّاً حفلات الشراب مع لوبراني، وأنْ تذهبَ إلى العمل في الصباح التالي. "وماذا عن النوم؟".

كانت لِيلِي تتقافز، واحتضنتْ ذراعي بقوّة.

"سيكون لديّ ما يكفي من الوقت للنوم عندما أشيخ".

وهكذا وصلْنا إلى المحطّة الأخيرة لقطار الأنفاق. كانت محاطة بالأشجار الخضراء. نظرتْ لِيلِي إلى السماء، واستدارتْ إليّ بنظرة امتنان، وقالتْ "لسنا في بيت لوبراني، هذا ما لا شكّ فيه".

"سيطلع النهار بعد ساعَتَيْن"، قلتُ لها.

٤

لو كان الطقس جميلاً خلال الفصل، كنتُ سأقضي جُلّ النهار في الحقول. كنتُ سعيداً ومبتهجاً، لأنّني وحيدٌ ومتكاسل. مشيتُ لما يربو على نصف ساعة، ولم أتقاطع إلاّ مع الشاحنات وسيّارات النقل، التي يتناهى هديرها إلى مسامعي من وراء الضباب، ثمّ يظهر ضياؤها رويداً رويداً على امتداد الشارع. فكّرتُ وأنا أسير هناك "لا أحد يعلم بما حدث في الليلة الفائتة". لم يكنْ عليّ أن أُمعن التفكير في الأشياء، لكنْ، اقتحمت خاطري فكرة ما إذا كانت لِيلِي هناك في ظُلمة الضباب.

أمضيت الليلَ في كافتيريا المحطّة، كانت الشوارع فارغة بأكملها، والدكاكين جميعها مُقفلة، إلاّ هذه الكافتيريا. دخان القطارات السريعة زاد من تشكُّل الضباب في المحطّة، ورائحة نفّاذة تجتاح المكان أتتْ من خارج المحطّة، وتلك هي رائحة كاربون القطارات. يا إلهي، كم أثارت تلك الرائحة ارتياحي في ذلك الصباح! ما يزال الجميع نائمين، بمَنْ فيهم ليندا. نظرتُ إلى الطرف الذي سيبزغ منه الفجر عبر زجاج الكافتيريا وعبر سقف المحطّة المفتوح.

آه، كم كان جميلاً لو أنّ الگيتار بين يَدَيّ الآن!.

في الصباح، ذهبت لزيارة آميليو، لم يكن لديّ ما يشغلني حتّى

المساء. ذهبتُ إليه وأنا مُزمِعٌ على إعلامه بكل شيء لأستعيدَ الوئام مع ذاتي. ولجتُ السُّلّم . رأيتُ البابَ مُغلقاً. فتحتْ لي والدة آميليو. فكّرتُ "إذا ما شممتُ عطر ليندا في الغرفة، فإن كل شيء سينتهي". قالتْ لي والدة آميليو بجفاء "هناك زائرٌ آخر"، عندها نادى عليها آميليو. ثمّ قالتْ لي "آميليو يدعوكَ للدخول إلى غرفته". كان الوقت مبكّراً. خرجتِ العجوز، وأغلقتِ البابَ خلفها.

وجدتُ في الغرفة فتاةً نحيلة ترتدي سترة جِلْدية قبيحة، وتعتمر بيريّة على رأسها. لم تكن تبدو كبنات الهوى، وإنّما مثل واحدة من طالبات المدرسة المسائية. حدّقتْ فيّ دون حراك، وأغمضت عينَيْها. كان آميليو مُسنداً ظهره إلى الوسادة. قال لي "آه، هذا أنتَ؟".

أوحيتُ بابتسامة، وقلتُ له "أترُكُكُما في سلام، وأذهب". كانت النافذة مُغلقة وأغطية الفراش في فوضى كبيرة، وقد تبعثرت الصحف على أرضيّة الغرفة. كانت الفتاة تُمسك في يَدَيْها بعض الأوراق، وفي الغرفة رائحة الفراش.

"تشرب كالعادة؟".

ردّ عليّ بابتسامة على وجهه، لكنْ، دونما صوت. سألني "هل نمتَ الليلة؟".

"وهل ذلك واضح على سحنتي؟"، أجبتُه.

كانت تلك هي الساعة المناسبة لأُخبرَه بكلّ شيء، لكنّي أحجمتُ بسبب وجود الفتاة في الغرفة. كنتُ سأُفصِحُ له عن كل شيء في هذه

المرّة، ربمّا سأُجمّلُ بعض التفاصيل، ربمّا سيشعر بالوهن وهو يستمع إليّ، أو ربمّا سيسكتُ. لا أدري كيف ستكون ردّة فعلي لو كنتُ في موقعه. تفحَّصني بنظرة.

عرفتُ بأن ليندا لم تعدْ تزوره. كانت الفتاة النحيفة تترقّب وهي تتفحّص أظافيرها. قفز الگيتار إلى ذهني، وما إذا كان آميليو مستعدّاً للاستماع إليّ الآن. لم أجرؤ على النظر في عينَيْه.

قلتُ له "لقد تجوّلتُ في أرجاء تورينو الليلة، أنا الآن قادم من محطّة القطارات، تعرّفتُ على فتاة تُعطِّر الكلاب، وتُمشِّدُ شَعْرها. ذهبنا إلى التلال ...".

لم يقلْ آميليو ولا الفتاة شيئاً. كانت هي منشغلة بقضم أظافيرها، فيما كان آميليو يترقّب شيئاً ما.

"... وتعرّفتُ على بليدٍ، هربتْ منه زوجته. إنّه يدفع ثمن الشراب، وليس الأكل، يملك سيّارة فارهة ... وأنتَ متى ستغادر الفراش؟ هل تريد التدخين؟".

واصلتِ الفتاة وآميليو بالتحديق فيّ.

"إذاً!"، قلتُ لهما "أترُكُكُما بهدوء وسلام؟".

"اخلدْ إلى فراشكَ، نَمْ ودخِّنْ"، قال لي آميليو.

همّتِ الفتاةُ بالنهوض - كانت تبدو كتلميذة مُنصاعة - لكن آميليو أشار إليها بالبقاء، فبقيتْ جالسة. عندما وصلتُ إلى المطبخ، خُيِّلَ إليّ

بأن هناك مَنْ يُناديني، لكنّي انتبهتُ بأن آميليو بدأ محادثة مع الفتاة، وسمعتُ صوت إغلاق الباب خلفي.

دخلتُ في سجال طويل وشديد مع أمّي وشقيقاتي في الدكّان. فقد وجب على شقيقتي كارلوتّينا البقاء وراء طاولة الدكّان، لتُنجز عملي أيضاً. كنّ غاضبات منّي بسبب تلك الليلة، فقد عرفتْ كارلوتّينا بأنني ذهبتُ إلى المرقص، وتعرف أيضاً مَنِ التي رافقتْني. لم أُجبْ على صياحهم، واستلقيتُ على السرير.

جاءتْ ليندا إلى الكافتيريا مع حلول الليل. لم تسألْني إن كنتُ خلدتُ إلى النوم أم لا. لم تسألْ عن أيّ شيء. انزوتْ تُدخّنُ وتُحدّق فيّ، كما لو أنّها تُحدّق في دخان السيجارة.

عندما طلبتُ منها أن تستمعَ إليّ، لم تأتِ حراكاً. تركتْني أتكلّم. واصلتِ التحديق بالدخان، واستمعت إليّ حتّى النهاية.

"ألا يكفيكَ بأننا الآن مع بعضنا؟"، قالتْ.

"أرغب في الحصول على المال".

"أنتَ لم تُولَد من أجل المال".

"أحتاج للحياة التي أمارسها"، قلتُ لها "إلى الكثير من المال".

"إذا كنتُ ساعياً للحصول على المال"، قالت لي "يكفيكَ دكّان العائلة. أنتَ لا تسعى وراء المال".

"عمّاذا أبحث إذاً؟".

عندها هزّتْ ليندا كتفَيْها بالطريقة التي تُجيدها وحدها.

"ما الذي فعلتَ اليوم؟"، سألتْني بهدوء.

"آميليو"، قلتُ لها "كان قادراً على الحصول على المال".

"اتركْ آميليو وشأنَه"، قالتْ ليندا.

"ذهبتُ اليوم لزيارته".

عندها نظرتْ ليندا إليّ، وسألتْني "هل هو أفضل حالاً الآن؟". رفعتُ كتفَيّ. "ذهبتُ إليه عندما عدتُ إلى البيت ليلاً". أطفأتْ ليندا سيجارتها، وقال بهدوء "لماذا تتصرّف بهذا الشكل؟".

أمسكتُ يدها "لم أذهبْ في الليل، بل صباح اليوم"، قلتُ لها "كان لديه زوّار آخرون".

"هل أخبرتَهُ بكل شيء؟".

ضغطتُ على يدها، وقلتُ "لا".

"كنتَ تنوي أن تُخبره؟".

"لا أدري"، أجبتُها "لا أدري بماذا عليّ أن أُخبره. هو لا يُحدِّثني عنكِ، وأنتِ لم تُخبريني ما إذا كان أحدكما مَسَّ الآخر".

"وإنْ كان قد مسّني!"، قالت ليندا "هل سيُغيّر ذلك من الأمر شيئاً؟".

عندها فعلتُ بالضبط كما تفعل هي، قلتُ "أيّ شي؟".

حدّقتْ في الطاولة، ثمّ قالتْ بحدّة "لنخرج من هنا".

بعد قليل، جلسنا في مقهى آخر.

"لماذا تريننى عاجزاً عن الحصول على المال؟".

"لأنّكَ لن تسعى وراء المال".

"يكفيني العثور على عمل ما".

"العمل وحده ليس كافياً، ينبغي عليكَ أن تكون شغوفاً به".

"لا تتصوّري بأنّني أرغب في أن أكون مليونيراً، يكفيني أن أكون قادراً على مرافقتكِ للرقص".

"أرأيتَ، بأنّكَ لا تبحث عن المال؟".

"أنا ضجرٌ من الحياة التي أعيشها"، قلتُ لها "أرغب أيضاً في امتلاك درّاجة بخارية، أجول برفقتكِ على متنها".

"أتريد أن تُلقي بي أنت أيضاً في حفرة؟"، نظرت إليّ بابتسامة مازحة.

"أنتَ تمتلك الگيتار"، قالتْ "لماذا لا تُجرِّبُ العزفَ برفقة فرقة موسيقية؟".

"وكيف لي ذلك؟".

"أنا لا أفقه من الموسيقى شيئاً"، قالتْ "لا أُجيد الغناء أو العزف، لكنْ، أنت پابلو، والكلّ يقول بأنّكَ وُلدت للموسيقى".

لم نذهبْ للرقص في تلك الليلة. مكثْنا نتحدّث عن الليلة الفائتة، وعن لِيلِي التي كانت ترتاد مرقص (بارادايس) بمفردها.

"نعم تلك، قادرة على جمع المال"، قالت ليندا "لو قُيِّضَ لها ذلك".

"أحذية الرقص التي كانت تنتعلها في قَدَمَيْها غالية الثمن".

"تلك؟ إنّها على استعداد على الإقلاع عن الأكل والشرب والاكتفاء بشراء الأحذية".

عندذاك استفسرتُ من ليندا عن السبب الذي يولِّدُ كراهية الفتيات لبعضهنّ، ضحكتْ، وقالت لي بعجالة "إنّها لا تعرف حتّى نوعية الأحذية التي كانت تنتعل بقَدَمَيْها. هل قبّلتَها؟".

"أنتَ شبيهٌ بها"، قالتْ "جرِّبْ حظّكَ معها".

تذكّرتُ السنة السابقة، عندما أمضيتُ أماسي كثيرة أجول بين المقاصف عازفاً. كنتُ أتساءل عن كُنه الإنسان. كم من الوقت انقضى. يبدو ذلك وكأنه حدث بالأمس.

"لِمَ تضحك؟".

"كنتُ أُفكّر بجيراننا، تُرى ما الذي سيقولون إذا ما حالفني الحظّ".

"ها قد حالفكَ الحظّ مرّة"، قالتْ ليندا. نظرنا إلى بعضنا "ألا يكفيكَ ذلك؟".

"هو كذلك"، قلتُ "تحدث هذه الأمور جميعها في وقت واحد. صباح

اليوم كنتُ سعيداً في محطّة القطارات، وكنتُ مستعدّاً على عدم العودة إلى البيت".

قالتْ ليندا "ها قد بدأ الغرور يعتريكَ"، وأضافتْ "كم من الأماكن ارتدْتَ هذا الصباح؟".

"أتعرفين مَنْ هي الفتاة التي كانت عند آميليو هذا الصباح؟"، قلتُ لها "أنتِ التي تبعثين إليه بالنساء؟".

"أيّ نساء؟".

رويتُ لها عن الفتاة النحيفة. هزّتْ ليندا كتفَيْها "هذه من أنواع المشاكل التي يُورِّط آميليو نفسه فيها. اتركْه وشأنه".

"كانت دميمة".

قالت ليندا "أتريد أن نغادر هذا المكان؟".

خرجنا وعندما صرنا في الشارع قالتْ "احتضنّي، واضغطْ على ذراعي، فأنا أشعر بالبرد". وهكذا سرنا متلاصقَيْن، أحادثُها وشَفَتَيّ مزروعتان داخل خصلات شَعْرها.

"لنذهب إلى مكان آخر"، همستُ في أذنها.

قالت ليندا "ألا تعرف أين أسكن؟ إذا وعدتَني بأن تُغادرَ بسرعة، أدعوكَ لزيارة مسكني".

كانت دمائي تغلي في العروق ونحن نرتقي درجات السّلّم. قبّلتُها

أكثر من مرّة، وتوقّفنا في الظلمة. قالت "لنصعد". أنارتِ الضوء في غرفة واسعة تعبق بروائح وعطور الأقمشة، وفيها دولاب واحد. "هذا المكان آتيلييه للخياطة خلال النهار"، قالتْ لي. أطفأتِ الضوءَ، وكانت أنوار الشارع منعكسة على زجاج النوافذ في عمق الغرفة. "أعيش في غرفة تُشبة صندوقاً". عبرنا غرفة طويلة ومظلمة، فتحتْ باباً، وأضاءتْ النورَ في الداخل، دخلتُ بعدها.

في تلك الليلة، طالبتْني بالاحتفاظ بالسكينة، وعدم الاعتماد كُلّيّاً على أيّ شخص آخر. "أترين، إذاً، أنّني على صواب عندما أرفض الاعتماد على أحد؟"، قلتُ لها. "الأمّ والأخوات شيءٌ آخر"، ردّتْ عليّ "لا ينبغي لكَ أن تتصرَّف بتهوّر"، وأضافتْ بأن آميليو كان بعيداً عن التهوّر والغرور، ولهذا السبب كان بمقدوره امتلاك درّاجة بخارية "بمقدور المرء أن يثمل كما يشاء، وأن يرحل إلى أيّ مكان، لكنّه في النهاية سيؤوب إلى بيته. أنتَ تملك الگيتار"، قالت لي "وتملك الدكّان أيضاً".

"وهل يعني ذلك شيئاً؟ انظري إلى آميليو، لقد فَقَدَ كلّ شيء".

"اتركه وشأنه، أنتَ لا تعرف مَنْ يكون"، قالت "آميليو رجل مقتدر، اطمئنّ، وينبغي أن تُحاذرَ حتّى معه، ليس عليكَ أن تأتي بفعل أهوج، لا ينبغي له أن يُثيرَ الشفقة لديكَ".

سألتُها عن سبب إصرارها في عدم الإقرار بأنها كانت فتاة آميليو.

"ولِمَ لا؟ كنّا نترافق، لكنّنا كنّا كما نحن الآن".

"وهل رأيتَ ساقَيْه الآن؟".

telegram @ktabpdf

ضغطتْ ليندا على ذراعي دون أن تفوه بكلمة.

همستُ "وهل جاء هو الآخر إلى هنا؟".

"أعتقد بأنّه فعل الكثير"، قالتْ ليندا "أتعتقد بأنّه لو كان في موقعكَ لم يكن ليفكّر بالمجيء إلى هنا؟".

سخّنتِ الشاي على موقد صغير، وسقتْني منه. كان الموقد هو الضياء الوحيد في الغرفة، ويُصدر شعاعاً أحمر، يتمازج مع الأضواء الأخرى الواردة من الشارع. لم تُشعلِ النورَ عندما خرجتُ من عندها. احتضنتْني عند الباب، وهمستْ "غداً في الكافتيريا".

الصباح مرّة أخرى. لم تكن عربات الترام تُرى، لكني كنتُ أسمع هدير محرّكاتها عن بعد. برد الصباح يُشبه برودة الجبال، فيما مصابيح الإنارة العامة تتراقص في مهبّ الريح. فكّرتُ بذلك الآخر وأنا أُحدِّق ببرج "ليتّوريا"، وما إذا كانت سَكْرته قد مرّت بسلام. ربمّا ثمل ثانية اليوم. كم من الأمور تحدث في تلك البنايات. قد تكون ليندا نائمة في هذه الساعة. قد لا تُتاح لي السعادة التي أشعر بها في هذه اللحظة في وقت آخر. صرختُ في داخلي كما لو أنّني أحادث أحداً ما. كانت الساحة فارغة من المارّة، وبمقدوري الصراخ إنْ شئتُ.

لم أذهبْ إلى محطّة القطارات، بل دلفتُ في مقهى مفتوح في شارع ميلانو. حشرتُ نفسي داخله وقد اعتلاني النعاس، كان التدخين والتفكير في تلك اللحظة جميلاً. طلبتُ كوباً من الحليب، لأُدخلَ الدفءَ في جسدي، وأجعلَه يتحمّل وطأة البرد، ثمّ طلبتُ قدحاً صغيراً من "الغرابّا".

أهناك ما هو مغاير عمّا كنّا عليه في صبانا، فكّرتُ، ثمّة مَنْ يجول في

كل مكان، ويشعر بكل الأمكنة كما لو أنّها بيته، أو ربمّا ليس ذلك البيت موجوداً في أي مكان. وهناك مَنْ يحتسي الآن كأساً من "الغراپّا"، لكن الحليب هو ذاته في كلّ مكان. مَنْ يدري ما إذا كانت ليندا تُحبّ الحليب. وخطر ببالي بأن ليندا لا تختلف عن النساء الأخريات، فالحليب جزءٌ مُكمِّل من كينونتهنّ. فكّرتُ بالطفل الوليد الذي يشرب الحليب من ثدي أمٍّ قد تكون مارست الحبّ قبل حين، وبأنه سيصرخ باكياً، إذا ما مُنع عنه ذلك الحليب. أضحكتْني هذه الفكرة وأنا جالس في ذلك المقهى.

دلف إلى المقهى بعض من الروّاد الذي أحرق البرد وجوهَهم، دخلتِ امرأة، وبعدها اثنتان تبيعان الخضروات على عربات متنقّلة. كانتا ترتديان صدريات جلدية، وطلبتا القهوة مع الغراپّا، حمّالٌ ضرب الأرض بقَدَمَيْه ليُزيل الطمي عن حذائه. تلك الوجوه تُشابه وجوه مَنْ كانوا في الشارع. ابتدأ الفجر بالانبلاج.

أمعنتُ التفكير في تلك الوجوه وأنا عائد إلى البيت. هناك مَنْ يعمل، وآخرون عاطلون عن العمل، تساءلتُ ما إذا كان العمل يفيد في شيء عندما يمتلك حمّال وأيّ بائس آخر الوجه ذاته؟ وهل ثمّة فارق ما بين مَنْ لا مكان لديه لينام فيه ومَنْ يمضي نهاره عاملاً في عرض الساحة؟ لا وجود لفوارق كبيرة، حين تشتعل الوجوه بالبرد ذاته.

سينتهي بي الأمر إلى الاقتناع بأنّ ليندا على حقّ عندما تقول بأنْ لا آصرة بيني وجمع المال. أرى الجبل في عمق الشارع. ليندا نائمة بالتأكيد في هذه الساعة، رافقتْ آميليو إلى الجبل في تلك الليلة الباردة كالثلج، واستمعا إلى عازف گيتار، يغطس أنامله في كأس "الغراپّا" ليَقيها من البرد.

كنتُ أشعر بالبرد وأنا سائر في طريقي، ومررتُ أمام السجن "الجديد"،

وفيما كنتُ أُلقي نظرة على تلك الأسوار الثقيلة، وأتساءل "مَنْ يدري ما إذا كانت إدارة السجن تُدفئُ الزنازين؟"، رأيتُ أمامي حافلة كبيرة مُغلقة من الجهات كلها، توقّفتْ أمام البوّابة الحديدية الثقيلة. كنتُ على مقربة منها. لم أكن قد شاهدتُ من قبلُ كيف يزجُّون الناس إلى عمق السجن. كم من الأمور تحدثُ الآن. "يزجُّون الناس في السجن حتّى في هذه الساعة؟" ظلّتِ الفكرة تجول في خاطري حتّى بلغت البيت "مَنْ يدري ما إذا كان شُرب الحليب مُتاحاً للسجناء؟".

٥

في تلك الأيّام، خرجتُ مع لاريو مرّة واحدة ما بعد الظهر، ومرّة أخرى خلال أمسيّة. في جولتنا ما بعد الظهر اعتلَيْنا الدرّاجة الهوائية، وذهبنا إلى "سان ماورو"، حيث كان على لاريو أن يحمل قِطَع غيارٍ إلى بعض زبائنه. كان يوم السبت، ولم يكن لاريو يعمل في العادة أيّام السبت. لم ألتزم بأيّ موعد أنا أيضاً. ليندا قالت لي "أريد البقاء بمفردي، اذهب، نلتقي غداً".

أدرك لاريو بأن هناك ثمّة ما يحدث في حياتي، وعندما انفصلتُ عنه في "ساسّي" سائقاً درّاجتي بسرعة كبيرة، تبعني بصمت، ولم يسأل عن السبب. أفرغتُ ما في داخلي من الهموم، كنتُ كالممسوس في ذلك اليوم المنعش، أردتُ معرفة ما إذا كان بمقدوري أن أفعل شيئاً ما. وما بين لاريو والشارع الذي سرنا فيه، تركتُ نفسي للخيالات، وكان خيالي اليوم يحملني إلى الغد.

في "سان ماورو" أكلنا شرائح من اللحم المُقدّد ونحن جالسان على العشب. تأمّل لاريو المشهد، وأبدى إعجابه به، لكن إعجابي بنهر "الپو" كان أكبر بكثير، فذلك النهر الذي ينتصف تورينو يُثير فيّ الإعجاب. لم أُفصح للاريو عن شيء. وابتدأت الشمس بالغروب. قال لاريو "لو كنتُ أُجيد عزف الگيتار، لعزفت ليلاً ونهاراً". و"وهل تتصوّر بأنني لستُ راغباً في ذلك؟"، قلتُ له "لا يمرّ عليّ يوم دون أن أتدرّب نصف ساعة على الأقلّ".

"لم نعد نستمع إلى عزفكَ"، قال "ما الذي يحدث لكَ؟".

عُدنا إلى المدينة مع ابتداء البرد، ومشينا صوب البيت. "أتعلم؟" قال لي "الأصدقاء عاتبون عليك كثيراً، لماذا لم تعدْ تنظمّ إلينا؟".

كان لاريو من نوع البشر الذين يتحدّثون بهدوء، يسكتُ، ومن ثمّ، يُعيد النظر فيما قال. كان عنيداً.

"لا تقلْ لي بأنكَ تذهب لزيارة آميليو حتّى في الليل".

"خلال الليل أجول في أرجاء تورينو جميعها".

كنتُ سعيداً في هذه المرّة "أتجوّل وأنا أعزف وأُغنّي"، قلت له "ثمّ أدور على الجمهور مادّاً قُبّعتي، وأجمع قِطَع النقود".

في ذلك المساء، ذهبت مع لاريو إلى المطعم حاملاً گيتاري. لم يكونوا يترقّبون حضوري، لكنهم لم يبالغوا بالاندهاش. كان الكثير منهم عائداً من المرقص، وربت البعض على كتفي قائلاً "لو كنتَ هناك معنا، كنتَ ستعزف بالتأكيد أفضل من عازفي المرقص".

جلسنا نتحاور. كان السجال دائراً ما بين مَنْ يستمعون إلى فرقة العزف في أثناء الرقص ومَنْ لا ينتبهون إليها على الإطلاق. تركتُهم يتخاصمون، وفي النهاية، قلت لهم بأن ما يُهمّني في أثناء الرقص هي المرأة التي أرافقها فحسب، وأنّ من الأفضل الاستماع إلى الموسيقى عندما لا ترقص. ثمّ احتضنتُ گيتاري، وصرتُ أُداعب الأوتار وأنا أُنصتُ إلى أحاديثهم.

مَنْ كان يخطر في ذهنه، في اليوم السابق، بأنّني سأجلس إلى تلك

الطاولة من جديد؟ وبدا لي بأنني أُشابه في ذلك آميليو الذي كان يأتي إلينا في الأماسي التي كانت ليندا بعيدة عنه. كنتُ صامتاً مثله، وغارقاً في التفكير. تخيّلتُهُ خارجاً من منزلة ماشياً على عكّازَتَيْن، يعبر الشارع، ويصل إلى الدكّان. كان سيقول لي، وهو ما يزال واقفاً على عتبة الدكّان، كيلا يصعد درجة السّلّم الواطئ "هذا المساء! ". كان سيسأل شقيقتي كارلوتّينا "أين پابلو؟". كنّا سندخل المقصف معاً مثل هذا المساء، وسأرى قسمات وجهه تتغيّر والسيجارة مُلتصقة بشفته، وأرى قبضته تُمسك حنكي، ويقول لي "كُنْ يقظاً پابلو"، ويقول "هيّا، نذهب".

وسرح تفكيري صوب ليندا، وما إذا كانت معي هنا الليلة. آميليو لم يكن يأتي بها أبداً إلى هنا، بيننا. ازداد غضبي عندما انتبهتُ بأنّ تلك الأفكار تُراودني في هذه الأمسيّة أيضاً. قلتُ للآخرين الذين يلعبون الورق "پابلو يشعر بالعطش".

كان لاريو ومارتينو يستمعان إلى عزفي وهما متّكئان على النافذة، عزفتُ لحناً سريعاً، ثمّ توّقفت يداي. جاء النادل بالنبيذ، وشربنا ثلاثتنا. كيلينو الجالس إلى طاولة اللعب، قال دون أن يستدير، "اسقونا من نبيذكم".

لم أُمسك بالگيتار منذ آخر مرّة عزفتُ فيها في غرفة آميليو، وكنتُ أعرف سَلَفَاً ما الذي سيقولون. أعرف أنّه بمُجرَّد ما أبدأ العزف سيقول بعضهم إمّا أن نلعب أو نُغنّي. كلّ ما كنتُ أرغب به في تلك اللحظة هو أن أكون الآن ثملاً، وكفى.

بعد فترة وجيزة من العزف، رأيتُ الجميع يُؤطّرون طاولتي. كنتُ أُفكّر بليندا وبرأيها حول العزف مع فرقة موسيقيّة "إذا ما طلبتُ من هؤلاء الآن

أربعة قروش، فستهوي قرّابة النبيذ على رأسي، وتُحطّم جمجمتي". ليس عزف الگيتار مهنة ينبغي الدفع مقابلها. إنّه لا شيء يُذكَر، تسلية أمارسها في وقت فائض حين تكون لينـدا في مكان آخر. أشفقتُ على نفسي. كانت تلك الشفقة تُشبه كفّاً دميماً، يسدُّ شهقاتي. عزفتُ، وارتشفتُ النبيذ، لأستعيد شهقاتي المخنوقة، وكنتُ أرغب في الوقوف الآن على قَدَمَيّ، لأخرجَ من ذلك الانغلاق، ولأجولَ في الدروب حتّى الصباح.

لكن الدرب الأقصر الذي كنتُ أجده أمامي الآن هو الاستزادة من سَكْرتي. ثرثر الجميع، وزادوا من صياحهم، وكانوا يصمتون عندما أضرب على الأوتار، لأرحل مع لحن، لا يفقه منه أيّ منهم شيئاً. كانوا يُنصتون للحظة واحدة، ثمّ يُصرّحون بما يدور في خلَدهم. وحده مارتينو، المتّكئ على النافذة، كان يُنصتُ إليّ، ويراقب كل ما أفعل.

"ذلك مسكين منحوس، ستكون نهايته مثل نهايتي"، كنتُ أُفكّر "مَنْ يدري مَنْ ستكون ليناه؟!".

لكنّي عندما رأيتُ كفّه الذي يؤطّر حنكه بأصابع سميكة ما تزال مسوَدّة بزيت المصنع، أدركتُ في الحال بأن قَدَرَهُ سيكون مغايراً "لو أنّه وُلد بدلاً عنّي، لكانت لينـدا له الآن". لكنْ، ما العمل، فقد سارت الأمور على هذه الشاكلة؟! رفعتُ كأسي، وابتسمتُ له. وكما كان آميليو يفعل معي، ردّ على ابتسامتي بنظراته.

لم يتحدّثْ أيّ منهم عن آميليو، لم يَرُزْهُ أحدٌ، ولم يسألني أيّ منهم إن كنتُ زرتُهُ، في حين مازَحَني غالبهم حول لينـدا. كانوا يجهلون اسمها. بعضهم شاهدني برفقتها في عمق الشارع. أسْكَتَّهُم قائلاً "اتركوها وشأنها، أخبروني، أتعرفون أحداً يبحث عن عازف گيتار جيّد؟".

مكتبة أهد

"نحن لدينا هذا العازف الجيّد مجّاناً"، قال كيلينو "ومَنْ يُنفق المال من أجل الاستماع إلى عزف گيتار؟".

امتلأتُ بالغيظ وأنا أستمع إليه يتكلّم بتلك الطريقة. قال أحدهم "تستطيع الذهاب إلى ملهى (ماركيارو)".

"لكنْ، هل لكم أن تُخبروني أيّ عزف يُعجبكم؟"، قال لاريو "عندما يغيب پابلو عن مجلسنا تغوصون في الهمّ، ويأكلكم الضجر".

تركتُهم يتصايحون. كنتُ أُدرك ما سيجري. انزويت جانباً أُداعب الأوتار في عزف راقص، فرأيتُهم بعد قليل متجمهرين خلفي. هذا أجمل ما في الموسيقى: ترى الناس لا يرغبون في الاستماع إليها، لكنّك تشدّ، برُغم ذلك، أوتاركَ. والأجمل من هذا كلّه، أنّهم يحثّونكَ عندما تتوقّف عن العزف "هيّا .. هيّا!"، ثمّ توحي إليهم بأنّكَ اكتفيتَ. إنّها شبيهة بحرفة الممثّل الكوميدي. هناك دائماً مَنْ يُفصح عن إعجابه في عزفكَ، يُعجبه سماع ذلك العزف، ثمّ، ما إن تبدأ، يُقلع عن الاستماع إليكَ، وهناك مَنْ لا يستمع إليه بالمُطلق، ويغرق في التفكير بشيء مغاير تماماً، وإذا ما عجزتَ من اجتذابه واللعب عليه، فعليكَ السلام.

نمتُ على مضضٍ في تلك الليلة. وفي اليوم التالي، شعرتُ بالقلق عندما لمحت ليندا تظهر من زاوية الشارع. ربّما كان من الأفضل البقاء في "سان ماورو"، إلاّ أنني شعرتُ بالطمأنينة عندما رأيتُها فرحةً جذلة، وسار الدم في عروقي بيُسر. أخبرتْني بأن لوبراني ينتظرنا على الغداء.

"آنّا لي ذلك؟ فنساء البيت بانتظاري لتناول الغداء في البيت".

إذّاك عاملتْني ليندا كما لو كنتُ طفلاً صغيراً "تستطيع البقاء خارج المنزل ليلاً"، قالت "وتعجز عن ذلك خلال النهار؟ رتّبتُ ذلك من أجلكَ. لوبراني يرغب في الاستماع إلى عزفكَ".

"لكن منزله ليس مطعماً".

قالت ليندا "أنتَ أحمق"، وأضافت بأن لدى لوبراني گيتار في منزله وجميع أنواع الآلات الموسيقية الأخرى. اتّصلتُ بأهلي من هاتف المقهى المجاور، لأخبرهم بأنني لن أعود للغداء. وعندما انفتح باب المصعد، سألتُ ليندا "هل مرّت ثمالته بسلام؟"، "اسكتْ"، ردّت عليّ بحدّة.

"وهل هناك أُناس آخرون؟".

"ما الذي تقول؟!".

فتاة جميلة فتحت لنا الباب، وطلبت منّا الدخول "تفضّلوا".

رافقتْنا إلى الغرفة الأولى. عادت إلى خاطري أحداث تلك الليلة. كان كل شيء يبدو كالمستحيل، لكنّي لم أستوعب لماذا تتصرّف ليندا مع لوبراني بكل هذه الحُرّيّة، ودون أدنى رسميات، فيما تُواصلُ البقاء معي.

ذهبت ليندا إلى النافذة الواسعة الشبيهة بواجهة إحدى المحالّ التجاريّة، ونظرت إلى سقوف البنايات الحمراء.

وصل لوبراني وهو يرتدي بدلة فاتحة اللون، ولولا التجعيدات تحت عينَيْه وشارباه، لبدا أكثر شباباً. احتسينا الشراب، وتناولنا غداءَنا على مائدة زجاجية. كانت ليندا تأكل وتروي الحكايات، فيما هو يغرق في الضحك. لم نلحظْ وجود الفتاة الأخرى التي فتحت لنا الباب، وكانت المائدة قد

أُعدَّتْ من ذي قبل. أردتُ أن أسأله عن لِيلِي، إلاّ أنّني أحجمتُ عن ذلك. كان لوبراني يبدو في هذا النهار أقلّ حيوانية ممّا بدا عليه في تلك الأمسيّة. كان يستمع إلى أحاديثي أيضاً. وكان يناولنا الصحون بأدب وودٍّ كبيرَيْن.

لم نتحدّث عن الگيتار، بل عن موضوع رحلة إلى جنوة، وسألتْه ليندا "هل نسافر بالسّيّارة؟". في نهاية المأدبة، كان لوبراني يناديني باسم "پابليتو"(*) وقال لنا "هل بإمكاننا أن نقوم بنزهة اليوم؟".

"لنذهب إلى بحيرات آڤيليانا"، قالت ليندا.

ذهبنا إلى البحيرات. وفي منتصف الدرب، ونحن غارقون في الضباب قلتُ لليندا "أين هي الحفرة التي طرتِ إليها؟"، أتتْ بحركة انزعاج من بوجهها، ولم تُعرْ سؤالي أيّما اهتمام.

"والگيتار؟ ما الأمر مع الگيتار؟"، سألتُها في الحال.

تحدّثت ليندا مع لوبراني الذي كان يقود السّيّارة، ويستمع إليها "سنجد الگيتار عند البحيرات، حيث لا يوجد هناك غير الگيتارات"، ودون أن يستدير برأسه واصل "أعرف جيّداً بأنّكم، أنتم الموسيقيون، لا ترغبون بالعزف بغير آلاتكم".

قالت ليندا "ما تلك إلاّ حماقات".

كنتُ في العام السابق أقطع ذلك الدرب بدرّاجتي الهوائية. نزلنا في الساحة، وكان الناس ينظرون إلينا، دخلنا المقهى، يتقدّمنا لوبراني. كان ذهني منشغلاً بـ "سان ماورو".

---

*) "پابليتو"، تصغير مُحبَّب لاسم "پابلو".

أوصى لوبراني بإحضار قنّينة نبيذ أحمر من نوع "بارولو". صعدنا عبر سلّم خشبيّ إلى الطابق العلوي، وكانت الصالة مليئة بالستائر، وثمّة أريكة وموقد. لم نعد نسمع ضوضاء الأصوات القادمة من الصالة السفلى.

كان الوقت ما يزال مُبكّراً والمطر يوشك على الهطول. رأيتُ عبر النافذة صورة كبيرة لامرأة، ترتدي ثوباً من طراز أزياء "نابولي". بدتْ سمراء البشرة، واقفة تضع يدها على خصرها بهيئة راقصة. قالت ليندا "لنطلب منهم إيقادَ النار في الموقد".

وعندما دار النادل الشابّ يصبّ لنا النبيذ، وقف ينظر إلينا ونحن نحتسي ذلك النبيذ. قال لوبراني "أنتَ، يا پابلو، ما تزال شابّاً، وتجهل بأن على المرء امتلاك ثلاثة أنوف عندما يشرب نبيذ "بارولو".

قلتُ له بجفاء "أجهل ذلك".

"لكنْ، ما أطيبه!"، قالتْ ليندا.

وعندما ابتعد النادل من مائدتنا، شعرت بارتياح أكبر. في الوقت ذاته، تجوّلتْ ليندا في أرجاء الصالة، وبدت وكأنها تُراقص كأسها، ثمّ ألقت بنفسها على أحد الكراسي دون أن تأتي حراكاً آخر.

"ستُخبرنا ليندا الآن أيّ نوع من أنواع النبيذ ينبغي أن يُحتسَى عندما يُمارَس الحبّ في يوم من أيّام الشتاء، فهذه أشياء تعرفها النساء فحسب. ليندا، في يوم مثل هذا والثلج يتساقط..".

ألقتْ ليندا برأسها إلى الخلف، وقالت بعجالة "النبيذ الذي في الكأس الذي أحمل بين أناملي الآن".

"آه، لا، لا تتحايلي علينا، أجيبي بالحقيقة".

"إذا كان مَنْ يحتسون نبيذ "بارولو" ثلاثة أشخاص"، قالت ليندا "فلنحتسِه إذاً".

"هل سبق لكِ أنْ زُرْتِ هذا المخدع من قبل؟"، سألتُ ليندا.

رفعتْ كتفَيْها، قال لوبراني "لقد زارتْ ليندا الأماكن كلها".

وكنتُ، لمُجرَّد أن أرفع رأسي أرى لوحة المرأة بالضياء الواهن الذي ينبعث من الزجاج. كانت شعاعات النار الموقدة تمنح تلك الصورة روحية راقصة أقوى من ذي قبل. التقطتْ ليندا اتّجاهَ نظرتي، وقفزتْ على الفور "الگيتار".

قُرع الجرس، فحضر النادل الشابّ، قال له لوبراني "الگيتار". انتظر الشابّ دون أن يستوعب الطلب. "اذهبْ، وابحثْ عن گيتار، هناك بالتأكيد گيتار في المطعم". نظر النادل الشابّ إلى لوبراني فزعاً.

"أريد أن أعزف الگيتار"، صاح لوبراني في وجه الشابّ غاضباً، لكنْ، وجب عليه أن يذهب إلى السّلّم الخشبي، ويتدلى بجثّته الضخمة، ليشرح لصاحب المكان ما يريد. ألقتْ ليندا سيجارتها، وحدجتْني بنظرة. رأيتُ شُعاع النار منعكساً في حدقَتَيْها. لم يتوفّر لي وقت طويل للانفراد بليندا، فقد عاد لوبراني بسرعة.

كان الوقت مبكّراً، لكن المساء حلّ. كان مرأى النار في الموقد جميلاً. كنتُ واقفاً قرب الستائر، وأشعر بالبرد الذي يتسلّل إلى داخلي. شعرتُ كما لو أنّني شخص يقف خارج ذلك المكان، يُفكّر بأولئك الثلاثة الذين

يحتسون النبيذ هنا. إلاّ أنّ لوبراني كان يواصل الحديث معي أيضاً، في موضوعه الأثير عن نبيذ الـ "بارولو".

"لقد بلغتُ العمر الذي يمنحني السرور في أن أتسامر معكم، أنتم الشباب .. أن نُغلق أنفسنا في غرفة.. خذا راحَتَيْكُما، واشربا من الكأس ذاته، إذا ما حلا لكما"، كان يقول "إنها لعبة تملأ القلب بالمَسرَّة. نتسامر ونضحك معاً".

كانت ليندا تضحك، وتقول له "اشربْ أنتَ، كانت تُناوله الكأس ولوبراني يحتسي النبيذ.

كان يتراقص على كرسيّه، ويحتسي النبيذ بطريقة لا يُضيّع فيها حتّى ولو قطرة واحدة، ثمّ يُناولها الكأس بانحناءة الراقصين. ليندا بدورها، كانت تشرب وهي تواصل الضحك.

"وأنتَ، يا پابليتو، ما لكَ تُحدِّق فينا من عَلِ"، قال لوبراني "أنتَ لستَ شبيهاً بي"، وكان يُريح يده على رأسه "هل تعرف ليندا؟ نعم أم لا؟" "ليندا أسوأ من الجلاد"، كان يقول "إنها تدوس على الجميع، شيباً وشباباً، وإنّ أجمل ما فيها هو كونها سيّدة رفيعة الذوق".

نهضتْ ليندا، واقتربتْ من النافذة ووقفت إلى جواري، ولفّتْ ذراعَيْها حول رقبتي، وقالت وشفتاها فوق عينَي "ألا تأتي لتجلس؟". وأومأتْ بأنّها تُراقصني، تبعتُها، وجلسنا، فيما يزال لوبراني مواصلاً كلامه، إلاّ أنّ ليندا قرّبت شفتيها منّي، وبقينا جالسَين في الظلمة.

قال لوبراني أشياء كثيرة، لكنّه لم يكن بعد ثملاً. كان جذلاً ومسروراً

للغاية أن يرانا مُتعانقَيْن، وكان يُرطِّبُ شَفَتَيْه بلسانه، ويُعيد تكرار جملته الأثيرة حول جمال أن نكون معاً في حُرّيّة مُطلقة داخل غرفة واحدة.

"فنادق الشتاء في هذه الضواحي"، قال "أماكن هادئة وبعيدة عن الابتذال. بأيّة (فينيسيا) وأيّ (ريفييرا) يتغنّى الآخرون؟! هنا تستمتع بالحياة، وتحتسي نبيذكَ، هنا، يا پابليتو، تتأكّد قيمةُ الإنسان، لكنْ، ينبغي أن تكون قادراً على تقدير كُنه تلك القيمة".

وأخيراً وصل الگيتار، وطلب لوبراني القهوة "حتّى أتذوَّقَ عزفكَ بشكل أفضل".

وصلتِ القهوة، ووصل النبيذ أيضاً. "هل أُضيءُ الأنوار؟"، لا، لستُ بحاجة إلى ذلك". لم أتحرَّكْ. ضبطتُ أوتار الگيتار، وانتحت ليندا جانباً، لتُنصت إلى گيتاري.

عزفتُ ألحاناً صعبة للغاية، تُستخدم عادة للتدريب، لكن ذلك الوحش كان يفهم ما أفعل، وبعد قليل، كان هو مَنْ يُعطيني النوتة الموسيقية، حاذرتُ من جعله يشعر بالحاجة إلى الرقص، وكنتُ أرى ليندا تلاعب قَدَمَيْها وتُراقصهما، وبعد كل مقطوعة كانت تُصفّق لي وتهتف "برافو"، ولوبراني يمدّ إليها الكأس مليئاً بالنبيذ.

"إن لديكَ موهبة رائعة"، قالت لي وهي غارقة في ظلمة الزاوية التي انتحتْ إليها.

أوحيتُ لنفسي بأنّ آميليو يستمع الآن إلى ما أعزفه، وكان التنويع في الألحان أمراً يسيراً بفضل الوحي القادم من شعلة النار في الموقد. وعندما

كنتُ أنتهي من المقطوعة، وأودّ إنهاء العزف، كان لوبراني يقول "لا، لا، أتريد أن تتحايلَ علينا!".

وكما يحدث في العادة، فبعد فترة وجيزة، استلم هو الگيتار، وصار يُسخّن أصابعه، ويقول لي "هل تعرف هذا؟"، وعزف لحن " پالوما، البحر والسماء "، إلاّ أنّ يده كانت ثقيلة. كان ذلك واضحاً. قالت ليندا "كفى الآن"، وهكذا انتهينا من قنّينة الـ " بارولو "، وخرجنا إلى الساحة. كانت النجوم ملتمعة في كبد السماء، واتّفقنا على تناول العشاء على ضفّة البحيرة.

جُلْنا حول البحيرة بالسّيّارة المُقادة بسرعة مَنْ يمشي على قَدَمَيْه. كانت ليندا تُعبّر عن إعجابها بالمنظر، لكنْ، دون أن توجِّه الكلام إليّ "كم هو جميل!"، لوبراني، بدوره، كان يستدير لينظر إلى أعواد القصب والضباب في البحيرة. كان الطقس بارداً. نعم، فقد كانت تهبّ ريح جليديّة.

تحدّث لوبراني عن (جنوة) وهو يقود السّيّارة "هل تعرفين مَنْ سألتقي هناك؟"، ثمّ ذكر اسماً ما، ربمّا فيرّيرو أو كارليتّو، وإذا بليندا تُحرِّر يدها من بين أصابعي، وتلطم كتف لوبراني "أنا أيضاً؟"، "ولِمَ لا؟"، ردّ هو، "لنذهب جميعاً".

تحدَّثا عن كارليتّو، تناولنا العشاء عند البحيرة، وعدنا إلى تورينو، وأنهينا الليلة في مرقص (پارادايس).

٦

أذكر أنّني كنتُ، في تلك الأيّام، أُفيق من نومي على حين غِرَّة، وليندا ماثلة في خيالي، وأتخيّلها إلى جواري، وأعاود الرقاد في فراشي بعينَيْن منغلقَتَيْن وذهن منشغل بأمور متباينة. كنتُ أشعر بثقل كبير على كاهلي، كنتُ كما الطفل وأكثرَ وحدة من الكلب، يعتريني شعور بأنّني اقترفتُ خطيئة كبيرة، لا أمل في التوبة عنها، وإصلاحها. لا مناص ولا خلاص، وكنتُ أشعر بعجز هائل عن الإحساس بذاتي. كم تمنّيتُ بألاّ أفيق من النوم، وأن أموتَ في مكاني هناك في الفراش. لم تكفِني حتّى فكرة امتلاك ليندا إلى جواري يوماً ما، وكنتُ أشعر بشفقة كبيرة على نفسي. كنتُ مثل طفل تركوه عارياً فوق مائدة، وغادرتْ أمّه والأخوات المنزل. كنتُ أُخفي رأسي، وأشعر بإنهاك كبير.

وفي حالات كثيرة، ودون أن أُحرّك ساكناً في فراشي، تخيّلتُ نفسي مُقعَدَاً مثل آميليو، وبأنّه سيستحيل عليّ الخروج من المنزل بعد اليوم، أُحسّ بالإحساس ذاته الذي ينتاب المرء حين يُغلق عينَيْه، ويُجرِّب بأنه فَقَدَ البصر، تخيّلتُ نفسي سائراً على عكّازَتَيْن، نصف ميّت. كنتُ أتلمّس ساقَيّ، وأُفكّر باليوم الذي كشف فيه آميليو الغطاء عن جسده "ماذا فعلتُ؟!"، كنتُ سأطرق الگيتار على الجدار، وأُحطّمه. وددتُ لو أنّني شخص آخر، وأن أختفي من هذا الوجود.

ذهبنا إلى جنوة صباح أحد الأيّام. قلتُ لأهلي في المنزل بأنّني ذاهب

للبحث عن عمل، وللتعرّف على أشخاص يرغبون في الاستماع إلى عزفي - والگيتار، كما هو معلوم، مسألة سماع -.

"ولماذا لا تحمل معكَ گيتاركَ؟"، قالت شقيقاتي، أمّا والدتي، فقد قالت "أنا أراها رحلة غامضة، لا خير يُرتجى منها". وضعوا في جيبي ورقة بمائة ليرة، ارتديتُ ثياباً رمادية، وحملتُ معي لفّاف عنق، وخرجتُ من المنزل سعيداً.

كانت ليندا محمّرة الوجنَتَيْن ومصابة بالزكام: دفنتْ نفسها بين الأغطية طوال الرحلة، جلستُ في المقعد الأمامي إلى جوار لوبراني، وساعدتُهُ في قيادة السّيّارة قليلاً، وبين الحين والآخر، كنتُ أستدير وأُلقي نظرة سريعة إلى الوراء. قال لوبراني "لن تهربَ منكَ، اطمئنّ". رافقتْنا شمس عذبة وبرودة جافّة، وكان الطريق كما لو أنّه يشدو لتلك الحلاوة، وأنا كنتُ أشدو وأُغنّي بهمس. دفعتُ ثمن القهوة في الموقف الأوّل، وعندما ركبنا في السّيّارة، جلستُ في المقعد الخلفي إلى جوار ليندا.

"وهل كارليتّو بانتظارنا؟"، سألتُه.

"بإمكانكَ الاطمئنان والوثوق بذلك".

كان كارليتّو هذا ممثّلاً مسرحياً، عمل في وقتٍ ما في المسرح الذي حملتْ إليه ليندا أزياء الممثّلين، وَصَفَاه بأنّ كان شابّاً لطيفاً، وذا بنية جيّدة، إلاّ أنّ لوبراني أضاف بأنّه "محتال كبير، يمثّل دور الأهبل". سألتُ ليندا هامساً "كم من الناس تعرفين؟"، "الكثير"، قالت لي "أنا لا أُضيّع أحداً، لأنّني صديقة للجميع".

كنتُ حذراً من جعلها تعرف بأن تلك هي أطول رحلة أقوم بها حتّى تلك

اللحظة، وساءلت نفسي في سرّي عن أعداد الناس الذين يعيشون في هذا العالم، دون أن يعرف أحدٌ عنهم شيئاً، وكانت تنتابني رغبة غامرة في القيام برحلة طويلة، أن أقفز على متن القطار. وتنتابني الرغبة في الصراخ عالياً، أيّ گيتار وأيّ (تبوغ وأملاح!)(*). الحياة!، هي تلك التي كان يحياها آميليو، وهي حياة الجميع.

توقّفنا فوق التلال، لنتناول فطور الصباح، وقفتُ في الشمس قليلاً، كانت الريح أكثر تحرُّراً وانطلاقاً، والأغصان فتيّة، تشابكتْ فيما بينها، لتقيَ بعضَها من البرد. لم أكنْ قد رأيتُ مثل ذلك من قبل. سألتْني ليندا "أين وصلنا؟".

وصلْنا إلى جنوة جائعين ومسرورين. نزل لوبراني، ودخل المقهى باحثاً عن كارليتّو. كان المقهى عامراً بالشمس، ومليئاً بالناس وبالدخان. سألتُ ليندا التي كانت تحتسي القهوة "أين الميناء؟"، أجابتْني "على ساحل البحر".

ثمّ خرجنا لتناوُل الغداء، وانتبهتُ بأن السماء كانت تُرى من خلف تلّة في عمق أحد الشوارع. كانت السماء هناك، بزرقتها الشفيفة. وشعرتُ بها خفيضة جداً. وذُهلت حين رأيتُ الناس يغدون ويجيئون دون أن يُلقوا نظرة إلى ذلك الاتّجاه،

وتساءلتُ مع نفسي "يا لهؤلاء الناس!، إنهم عاجزون عن حبّ جنوة كما يليق بها".

في المطعم الذي كان يبدو مثل جُحرٍ في شارع مسدود، عادت ليندا

---

*) (تبوغ وأملاح) - عناوين الدكاكين المالكة لرُخص بيع السجائر والملح في إيطاليا.

إلى مرحها المعتاد. أكلتْ بشهيّة كبيرة، وسرّني أن أراها وهي تأكل. لا أعرف أنواع الأكلات التي طَلَبَا، هي ولوبراني، من النادل إحضارها، وكان النادل المسكين في رواح ومجيء دائمَيْن حاملاً أنواع الصحون، وفي أجمل اللحظات، وصل كارليتّو.

أحدبٌ يبدو كلُّ ما فيه ضاحكاً. ناولناه كرسياً، وكشف في الحال عن سلوكيّات ونظرات صبيّ "ومَنْ هذه؟"، قال، عندما مدَّتْ ليندا يدها، لتصافحه، ثمّ تذكّرها، وكان الأحدب لا يكفّ عن لمسها.

جامل أحدُهما الآخر، واستخدما الكثير من مفردات الإطراء، هو، لأنّ ليندا كبرتْ، وهي، لأن كارليتّو يتقاضى الكثير من المال. في الأثناء حمل النادل الطعام لكارليتّو أيضاً. كان قليل الأكل والتدخين، ويضحك بشكل متواصل. كان عصبياً مُستفزاً مثل القطّة.

مضى زمن طويل، تعرّفتُ خلاله على الكثير من الناس، ورأيتُ كارليتّو مرّات أخرى، ولم أعد أراه يضحك مثل ذي قبل، لكنّ صورة اللقاء الأوّل ما تزال عالقة في ذهني، كما لو أنها حدثتْ بالأمس. لا أدري لماذا أصررتُ على أنّه من مدينة جنوة، فقد كنتُ أرى البحر من خلال زرقة عينَيْه. كان كبيرَ الرأس مُجعّدَ الشَّعْر، وانتبهتُ إلى أنه بدلاً من الضحك، يلجأ إلى القهقهة فحسب. لم يكن يقول "لقد رأيتُ.." بل "أتعرفون كيف..؟!". غمز للوبراني بعينه، وقال له "التهِمِ الطعامَ، فهذا يفيد صحّتكَ".

كان كارليتّو أحدبَ متكوّراً كالحلزون، وقد بُهرتُ بالاستماع إليه. كانت ليندا تُحادثه دون حدود أو رسميات، ولا أدري ما الثمن الذي كنتُ مستعداً لدفعه مقابل معرفة ما كانت عليه ليندا في طفولتها. أخبرتْني بأنها كانت

تذهب وتجيء حاملة علب الأزياء للممثّلين في المسرح. ومرّة من المرّات، أوقفها رجل عجوز، وقال تعالي إلى بيتي، فلديّ الكثير من الحلوى"، وهناك مدّ إليها نقوداً ورسالة بانتظار أن تحمل إليه ردّاً إيجابياً على تلك الرسالة. كانت ليندا تتضاحك وهي تروي هذه الحكايات. ترى أكانت مَنْ أُشاهد في تلك اللحظة هي ليندا نفسها؟ أم هي امرأة أخرى؟ أردتُ معرفة حقيقة ما كانت عليه. قال كارليتّو شيئاً ما للوبراني بينما كان يمضع الطعام "أنتَ، يا لوبراني، أفلحتَ في إيقاع الكثير من النساء، لكنّك عجزتَ مع هذه، لم تستطع إحراز أيّ تقدّم معها. أخبرينا، يا ليندا، ألم يقلْ لكِ بأن عليكِ أن ترقصي وتغنّي، وبأن تصنعي لنفسك اسماً؟".

"لقد بلغتْ به الحال بأن يعرض عليّ السفر معه إلى باريس".

"يا له من نذل!".

"كنتُ أريدها أن تعتلي خشبة المسرح"، قال لوبراني "أنتَ نفسكَ تعرف ذلك. أرى أنّ بمقدورها أن تفعل ذلك حتّى الآن".

"سنسامحكَ إذا كنتُ عازماً على افتضاض بكارتها، ليس ذلك أمراً خطيراً، سامحيه، يا ليندا".

"أذكر"، قالت ليندا "بأنّه كان يعدني بأشياء كثيرة".

"كنتِ في الخامسة عشر من العمر، وذُدْتِ عن بكارتكِ. إيه، يا لوبراني، لقد وجدتَ نفسكَ في مواجهة عنيدة، لا تُضاهى، ليس بمقدوركَ الإغارة على النساء جميعهنّ".

طلب لوبراني نوعاً من الشراب وشفتاه مبتسمتان من تحت شاربَيْه

"كفاكَ حماقات"، واسترعى انتباهه "ليندا الآن تُعاشر پابلو". وهنا فقط سأل كارليتّو عمّنْ أكون.

"لم أمارسِ الغناء أبداً"، قلتُ له "ولم أحظَ بمَنْ يحاول دفعي إلى اعتلاء خشبة المسرح".

"أثق بما تقول"، ثمّ قال "أنا من ڤانكيليا، لكنّ جُلّ أصدقائي من تورينو، وكنتُ في صغري أعزف آلة الهارمونيكا".

"والآن توطّدتْ صداقتكما؟"، قالت ليندا.

"أيُغيظكِ هذا الأمر؟".

عرفتُ بأنّه كان بانتظار عقد عمل في كازينو (سان ريمو)، ترقّبه كثيراً، وخسره، لأنه كان دائم الضحك، وقد ناصبه الجميع العداء، بدءاً من النقابيِّيْن وصولاً إلى الشرطة. كان وجهه باسماً على الدوام. "أنا في غاية السرور لذلك"، حدّق فيه لوبراني، واستدار إلينا "لأنّكَ ستُدرك يوماً ما بأن مهنتكَ هي الكوميديا، استغلّ الحدبةَ، واشتغلْ كوميديّاً".

"أنت، إستغل حدبتك!"، ردّ عليه كارليتّو "متى ستدعونا إلى تورينو؟".

وهكذا بدءا يتحدّثان عن عقد العمل، وبدا لوبراني إذّاك شخصاً آخر تماماً. أطفأ سيجارته، ولم يعد يُوزِّع علينا الشراب. كانت ليندا تُدخِّن وعيناها معلّقتان في السقف. كارليتّو وحده كان يستدير حولنا، ويزدرد قِطَع البُندق. بعد قليل، سألتُ ليندا ما إذا كانت ترغب في الخروج للتنزّه معي قليلاً.

"هل صحيح أنّه كان يُفترَض أن تشتغلي كممثّلة؟".

صعدنا دروباً تُشبه الطُّرُق الجبلية، ابتسمتْ ليندا، وأطلقت صوتها المتأثّر بالزكام "لوبراني مَنْ يدّعي ذلك، يا له من أحمق!".

قلتُ لها فيما بعد بأن حياتها في الصبا تُثير حنقي.

"ومَنْ تتوقّع أن أكون؟".

"أدفع كل غالٍ للتعرّف إليكِ بشكل أفضل. تعرّفتِ على أُناسٍ كثيرين، دونما رغبة منكِ. هل أنا مُحقّ؟".

"وهل تريدني أن أُغنّي وأنا لا أُجيد الغناء؟ لستُ واحدة تتقافز فرحة لمُجرَّد اللاشيء، كما تعتقد أنتَ".

"وإذاً، وكما ترين، أنا على حقّ عندما أرفض عزف الگيتار".

كان الدرب يصعد وينتهي بما يُشبه شُرفة مُطلّة على المدينة. رأيتُ خلفي تلّة، تحوّلت إلى مدرّج حجري، وبُنيت فيه بيوت، وإلى الأمام قليلاً كان البحر.

"إلاّ أنّ لديكَ مقدرة جيّدة على العزف"، قالتْ ليندا بعد رأت البحر هي الأخرى، وتوقّفتْ.

"لنُدخّن سيجارة"، قالت. أشعلتُ لها السيجارة، ووقفنا نُحدِّق في الأفق من هناك.

"يا له من نهار جميل! بالأمس نزل الثلج والشمس ساطعة اليوم. هل تعلم بأن كارليتّو يُثير حنقي؟".

"عندما ينزل الثلج يُغيّر البحر من لونه"، قلتُ لها، وضحكنا.

"لم أكنْ قد رأيتُ البحر إلاّ في السينما"، قلتُ لها. كان هناك دفء يُذكّر بالجنائن.

"وهل هذا هو عبق البحر؟"، ثمّ أضفتُ "كارليتّو هذا، أحمق كبير حين يفكّر بهجر هذا الجمال كله".

سألتْني ليندا "وهل يُعجبكَ شخص كارليتّو؟".

"اسمعي"، قلتُ لها "لنعد إلى هنا في الصيف، فأنا بحاجة إلى بعض المال. سأفعل كلّ شيء، لأتمكّن من البقاء معكِ. ابحثي لي عن عمل، حتّى مع خيّاطيكِ، سأشتغل في أيّ مكان، سأجول في كل مكان، وسأستقلّ القطارات. لقد فعلها آميليو قبلي، وأستطيع أن أفعل ذلك أنا أيضاً. أريد البقاء إلى جوارِكِ ليلاً ونهاراً".

تركتْني ليندا لأُقبّلها بعد أن أسندتُها إلى الجدار الحديدي. لم تُعطني شَفَتَيْها، بل تركتْني أُقبّل عينَيْها "لنذهب إلى المقهى لاحتساء قهوة"، قالتْ بهمس.

في المقهى، تحدَّثْنا عن كارليتّو "إنّه تعس الحظّ"، قالت لي "بتصرّفاته الطفوليّة جعلهم يطردونه من العمل. إنّه صريح الموقف من لوبراني، ويقول له كل شيء، وفي مواجهته. كانت أوضاعه جيّدة، إلاّ أنّه يُلقي باللائمة كلّها على "الفاشّو"(*)..

"لكنّه يعمل الآن من جديد".

---

*) "الفاشّو"، وتعني الحزمة، وهو الرمز والتكوين المحلّيّ لتنظيمات الحزب الفاشي بزعامة بينيتو موسّوليني.

"مَنْ يبتدئ بهذا الشكل، ينتهي بسرعة كبيرة"، قالت لي وتُمسك ذراعي، "عِدْني، بأنّكَ لن تأتي فعلاً مناهضاً لـ"الفاشّو".

كانت عيناها جاحظَتَيْن، لم تفتعلْ ذلك. طمأنتُها بدوري، وابتسمتُ لها.

ثمّ عدنا في الدرب نفسه، ووجدنا لوبراني وكارليتّو جالسَيْن وهما محاطان بقناني النبيذ، وأمامهما صحن مليء بالصور الفوتوغرافية.

"ومَنْ هذه؟" قال لوبراني.

"إنها إحداهنّ".

"ساقاها قبيحان".

"وأنا أيضاً ليس لي ساقان جميلان".

طلبتْ منهما ليندا أن يكفّا عن الحديث والشرب، ويأتيا معنا للنّزهة. كان كارليتّو يضحك بخبث "إذا ما جئتَ تبحث عنّا، فإن ذلك يعني بأننا نساوي بعض المال، وينبغي عليكَ أن ترضى بما أعرضه عليكَ".

"أرِنا دورينا" قالت ليندا.

"هل عثرْتَ عليهنّ هناك، في ذلك المكان؟" قال لوبراني.

عندئذ كفّ كارليتّو عن الضحك، واكتفى بالقهقهة. نهض. جمع الصور، وأمسك بيد ليندا، وقال لي "هل نذهب للاستماع إلى قليل من الموسيقى؟". وافقت ليندا على الفكرة. استدرتُ إلى لوبراني، وقلتُ له "هل نذهب؟".

ركبنا السّيّارة معاً. جلستُ لصق لوبراني، ودلفنا الزقاق الذي جُلتُ فيه مع ليندا، ومررنا قرب البحر. في المقعد الخلفي، كان كارليتّو يواصل الحديث مع ليندا، وكأن شيئاً لم يحدث قطّ. كان يرغب في تغيير نشاطه، وبولوج عالم المنوّعات، بالضبط كما كان عليه في ما مضى.

قال له لوبراني "أتعرف مقدار الفضل الذي ستُسديه إليّ لو أقدمتَ على خطوة من هذا القبيل حقّاً؟".

توقّفنا في مكان قرب البحر. كنتُ أرى الشمس ومياه البحر عبر النافذة، وأدهشني أنّ الناس كانوا يرقصون كما لو أنّهم في تورينو.

قال لوبراني "أنتَ الذي تُثرثر كثيراً، اجعل ليندا ترقص، وسترى".

"أنا أعرف بأن ليندا تحبسُ شهقتكَ"، أجابه كارليتّو "لكن ليندا فتاة رزينة وذكيّة".

غمز لي بعينه، ونهض طالباً من ليندا مراقصته. شعرتُ بقرف كبير عندما رأيتُ ليندا تحتضن تلك الحدبة. كان الناس يُحدِّقون بهما. تذكّرتُ بأن آميليو معوَّق الآن هو الآخر.

قال لوبراني "أمّا نحن، يا صديقي العزيز، فلنشرب".

عاد كارليتّو وليندا وهما يتضاحكان. كانا قد شاهدا فتاة شقراء ترقص برفقة شابّ داكن البشرة، يرتدي سترة سوداء. كانا يتندّران قولهما "إذا ما خُلطا معاً، فسيُنتجان كريماً لذيذاً". رقصتُ مع ليندا، وقلتُ لها في أثناء الرقصة "كارليتّو هذا يُعجبني".

عادت الصور الفوتوغرافية إلى الطاولة مع قناني النبيذ. أخذا منّي ليندا مرّة أخرى. نظرتُ عبر النافذة، ورأيتُ أمواج البحر ترتطم بصخرة كبيرة، وتعود أدراجها إلى البحر. ألقيتُ نظرة على بعض من تلك الصور.

"هذه التي في الصورة"، وأشار كارليتّو إلى فتاة قويّة البنيان، ممتلئة ومتلفّعة بالفرو بشكل مغرٍ "هذه دورينا".

لوبراني أيضاً كان يُحدِّق في الصورة، ويدرس تفاصيل الفتاة.

قالت ليندا "أخْضِعها إلى حمية غذائية". ردّ عليها كارليتّو "لا أدري ما الذي يحدث لها. إنّها قليلة الطعام، لكنّها تزداد بدانة بشكل متواصل".

"لا يحدث هذا مع الجميع، ليس مع الجميع"، كان لوبراني يقول فيما غطّى دخان السيجارة ملامح وجهه.

أمسك بصورة ممثّل آخر، وقال "آه، وهذا أنتَ"، قال ذلك دون أن ينظر إلى الصورة.

نظرنا إلى الصورة، وفيها كارليتّو يرتدي بدلة سوداء أنيقة وقد مشّط شعره كالراقصين، وانحنى إلى الأمام. لم يبدُ في الصورة مثل كارليتّو الذي أمامنا في هذه اللحظة. "إنّه وسيم للغاية"، قلتُ لليندا.

ضحكتْ ليندا، وأجابت "وما الذي كنتُ تعتقد؟ هل تعتقد بأنّكَ الوسيم الوحيد في العالم؟".

تناقش كارليتّو ولوبراني حول مجموعة من الفتيات "فَقَدْتُ اثنَتَيْن، لأنهما غيّرتا المهنة".

"وكم واحدة تفيض عن الحاجة؟" قال لوبراني.

مختصر الكلام، لم يكن لوبراني يُريد إلاّ كارليتّو، فيما كارليتّو كان يُلحّ عليه "تعال، واستمع إلينا".

"وهل تعتقد بأن لديّ فائضاً من الوقت لذلك. بالإمكان العثور على النساء بسهولة، فهنّ موجودات في كل مكان".

كنتُ أراقب ارتطام الأمواج بصخور الساحل عبر النافذة. أستمع إلى الموسيقى، وأفكّر بالصيف. تذكّرتُ الگيتار. وددتُ لو أذهب إلى ساحل البحر في منتصف الليل برفقة ليندا، أعزف لها، أحتضنها وأبقى معها بمفردي. في تلك الليلة التي أضاعت فيها الشال على الساحل، كانت بمفردها. آه لو قُدِّر لي أن أبلغ الصيف...

قال كارليتّو "أخبرتُكَ بأن لديّ التزامات، ولا أستطيع هجرها هنا دونما تبرير. هل تفهم ذلك؟"، وكان يضحك بخبث.

وقال لوبراني "هل تواصل تدريباتكَ؟ عليكَ أن تؤدّي دوراً كوميديّاً فحسب، وأن تستغلّ إمكانياتكَ، وتقيم بأودكَ".

أجابه كارليتّو "كان العرض جميلاً، وأُعجبتْ به الصحف كذلك ..."، وسحب خارجاً بعض الصحف.

أطفأ لوبراني سيجارته، ونظر حواليه.

"ألا ترغبان في الرقص؟"، قال لي "كم الساعة الآن؟". وعندما عدنا من تلك الرقصة كان كل شيء بين كارليتّو ولوبراني قد تمّ. وكان لوبراني يُغلق قلمه وكارليتّو يتفحّص كأسه، وقال لنا بروحية مبتهجة "في صحّتكما".

تركنا عند السّيّارة، وحيّانا. قالت له ليندا بسعادة تميّز النساء "تعال بسرعة"، ثمّ تغطّت بالأغطية. ورحلنا والشمس ما تزال مشرقة. آخر ما شاهدتُ من تلك المدينة كان تلالها التي بدت مُقفرة، وبلون الرماد.

مكتبة أهد
telegram @ktabpdf

٧

وصلنا إلى تورينو ليلاً. تركنا ليندا عند باب بيتها. "أنا مريضة"، قالت، وركضتْ مسرعة بعد أن غطّتْ أنفها بالمعطف. قال لي لوبراني "لنذهب، ونتناول العشاء".

"لا أملك حتّى قرشاً واحداً".

"حماقات".

في تلك الليلة، قال لي بأنّه يخشى أن يكون هو مَنْ تسبّب بمرض ليندا "في وقت متأخّر من مساء أمس، رافقتُها إلى المسبح"، قال لي "وأنتَ، ألا ترتاد المسبح؟ آه، نسيتُ، ينبغي أن تكون عضواً في النادي. إنّه مجتمع ضيّق ومكان ضيّق أيضاً، يُدفئونه، لكنْ، يكفي القليل جداً لتُصاب بالزكام".

"ألم تكن تعرف بذلك؟ ألا تُطلعكَ ليندا على هذه الأخبار؟".

وعندما أدرك بأنّه امتلكَني طوع بنانه، تقدّم واثق الخطو.

"ليندا تُخفي عن الآخرين كثيراً من الأمور، لكنّها تفعل تلك الأمور لشعورها بالحاجة إلى ذلك، مثلما تشعر أنتَ بالحاجة إلى التدخين. إنّها لا تفكّر في المسألة لمرّتَيْن. هل تُعيد أنتَ التفكير مرّتَيْن عندما تشهق دخان السيجارة؟".

ترك دخان السيجارة يخرج من بين شَفَتَيْه ببطء.

"هل لاحظتَها عندما تتحدّث عن شخص ما؟ إنّها تبدو وكأنها تشهق دخان السيجارة. يحدث ذلك معكَ أيضاً. ألا تتذكّر المرّات التي فعلتْ فيها ما أقول؟".

"يبدو عليها وكأنّها تترقّب أمراً ما"، قال بحدّة "ألا تتّفق معي؟ تبدو وكأنها تنتظر كلمة أو أمراً ما. لكنّها في الواقع أقدمتْ على الفعل".

"إنّه لمثير للأسى أن تفتقدَ إلى المال"، عاد ليقول "لماذا، برأيكَ، تُلاحقُ النساءُ مَنْ بحوزته مالٌ وفير؟ أأنتَ واثق بأنّها لم تُرافقْ مَنْ هو أفضل منكَ؟".

قلتُ "وما الذي تعني بذلك؟".

"أنا لا أعتقد بأنّها تُعنى بك لمقدرتكَ على عزف الگيتار. ذلك مُضحك حقّاً. الگيتار والدخان شيء واحد. أنتَ الذي تبيع التبوغ ينبغي لكَ أن تعرف ذلك جيّداً".

"اسكتْ -، كنتُ أفكّر في داخلي- عليكَ بالسكوت"، وكنتُ أُحدّق في العينَيْن المشتعلَتَيْن أمامي. هو مَنْ سيدفع ثمن العشاء، وأنا عليّ الإنصات إليه.

"أعرف كل شيء"، همستُ بهدوء "أعرف ذلك أفضل من أيّ شخص آخر. لكنْ، بِمَ ينفعني ذلك؟".

ثمّ ضحك وقال بأنه يمزح معي. - لا يمكن التفكير بأبديّة العلاقات.

هذه مسألة مهمّة. رافقتْني أنا فحسب. ليندا امرأة، لكنّي لا أعتقد بأنها خالية من الصدق في سلوكها معي. إذا لم تُخبركَ بأنها ستذهب إلى المسبح، فإنّ ذلك يعني أنّها لم تذهبْ. منذ متى وأنتَ تعرفها، يا پابلو؟".

لم أُجبْ على سؤاله، بل نظرتُ في عينَيْه. حدَّق أحدنا في الآخر. قلتُ له دون أدنى اهتمام "ما الذي كنتُ تعنيه عندما قلتَ بأن النساء لا يُلاحقنَ صاحبَ المال الوفير؟".

"آه، آه.."، ردّ جذِلاً، ونادى النادل "النساء يلاحقنَ أشياء كثيرة، ويركضنَ وراءها. ليس المال فحسب. اسمع" قال لي بهيئة رجل أعمال "وليست هناك استثناءات. أنا أجعل النساء تعرى أمامي، لأتعرّف عليهنّ بشكل أفضل. وجميعهنّ يتعرّينَ، ولا يتردّدنَ في التفكير. إن كل امرأة تعرف ما الذي تساويه حين تتعرّى، لكنْ، لا ينبغي لكَ أن تتصوّر بأنهنّ يبحثنَ عن شيء آخر. كلّهنّ طامعات، هناك مَنْ تبحث عن صديق، وتَصدُق معه بجوارحها كلها، وهنالك الكثير من المجنونات. هل رأيتَ امرأة ثملة؟ وهناك مَنْ يُغيِّرن الحبيبَ لمُجرَّد النكاية به، ويبصقنَ على المال".

"لحسن الحظّ، يفعلنَ ذلك"، قلتُ له.

غطّى بكفّه ورقةَ الحساب، ودفع للنادل محتوياتها.

"كنتُ أريد أن أقول لكَ"، قال بينما كنّا خارجَيْن من المطعم "إن فكرة العزف في المسرح، فكرة مبتذلة للغاية. ألا يكفيكَ ما تتقاضاه من بيع التبوغ والأملاح؟".

في اليوم التالي، ذهبتُ إلى مسكن ليندا في الصباح الباكر. مررتُ

عبر عدد كبير من الخيّاطات. طلبتْ منّي أن أُغلق الباب، لكنها لم توافق على دخولي إلى فراشها.

"أنا مُصابة بالحمّى" قالت.

لم أتحدّثْ معها عن المسبح، بل ألقيتُ اللوم على شمس جنوة وبرد الرحلة "هل أنتَ سعيد، لأنّني مريضة؟"، قالت لي "تحبسني هنا، وبإمكانكَ أن تصفَعَني أيضاً. أيُعجبكَ كارليتّو؟".

"يجري الحديث بيننا دائماً عن الآخرين".

"ومَنْ منّا تحدّث عن الآخرين؟".

"بالأمس كارليتّو. وذلك الآخر، دائماً".

"وعمّاذا تريدنا أن نتكلّم؟".

"لا نتمكّن من البقاء بمفردنا أبداً".

"أولستَ هنا هذا الصباح؟ أيزعجكَ ذلك؟ اذهبْ إذاً".

ثمّ قالت "ماذا بكَ؟ وما الذي تريده؟".

آه لو أنّني أخبرتُها بكل شيء في ذلك الصباح!. كنتُ أجلس على حافّة السرير وهي تتحدّث. أمسكتْ بيدي، ووضعتْه على وجنتها. أحنيتُ رأسي، لأُقبّلها.

"سأُعديكَ بالزكام".

دفنتُ رأسي في الوسادة، وهمستُ في أذنها "لنُمضِ اليوم معاً هنا".

"وماذا بعد؟".

"أجد عملاً، وأتزوّجكِ".

"برافو" قالتْها، وضحكت. أمسكتُ بوجهها قريباً من وجهي، ولم أتفوّهْ بكلمة. وبعد بُرهة، سألتْني "ها نحن مع بعضنا الآن؟ ما الذي تريده أكثر من ذلك؟".

لم أقلْ لها شيئاً. ولم تأتِ ليندا حراكاً. كانت تتنفّس. ولا أدري لكم من الوقت بقينا على تلك الوضعية. وبدا لي بأنني نسيتُ بأنّني كنتُ برفقتها. بحثتْ تحت الوسادة عن منديلها، فوجب عليّ التحرّك، فقالت لي بهدوء كبير "الحياة التي أحياها، تُعجبني كما هي. لماذا تريدني أن أُغيّرها؟ ينبغي عليكَ أن تعتاد على حياتي. لا أرغب في أن أكون تابعة لأحد. أنتَ أيضاً لا ينبغي لكَ أن تكون تابعاً لي. هل تشعر بالغيرة؟".

"أنتِ على حقّ" عادتْ لتقول "ليتني أعثر على مَنْ لا يشعر بالغَيرة. يجب عليكَ أن تعتاد على التغاضي عن الغيرة. لماذا لا تعزف الگيتار؟ إنّه عمل مناسب لكَ، ولا شيء لديكَ غيره. بإمكانكَ أن تُصبح عازفاً جيّداً".

طُرِقَ الباب في ذلك الصباح، ومرّة دخلتْ امرأة سمراء ترتدي صدرية، وسألتُ ليندا ما إذا كانت ترغب في كوب قهوة.

"لا، شكراً. سيُعدُّها لي هو"، قالت ليندا للسيّدة "إنّه طبيبي"، فرّتِ السيّدة على عجل وهي تتضاحك.

ابتدأتُ منذ ذلك اليوم بالبحث عن عمل. جُلْتُ في كل مكان، ولم أكنْ أمكث في الدكّان إلاّ لوقت قصير للغاية. ثمّ عاود بعضُهم الحديث

عن آميليو، وكانت تثير فزعي فكرة أن أراه ماثلاً أمامي وراء زجاج الواجهة. مرّتْ أُمّه بالدكّان، وأعلمتْنا بأن عليهما الانتقال إلى عمارة مُجهّزة بمصعد كهربائي، ليكون بمقدور آميليو الخروج من البيت، "ليذهبا للسَّكَن في طابق أرضي"، قالتْ امرأة استمعتْ إلى كلامها. كنتُ واثقاً من أن آميليو لن يأتي للبحث عنّي، لكنّي، ورُغم ذلك، كنتُ دائم التحديق بالباب. "إذا ما كان قد مارس الجنون، فذلك ذنبه". لم أُوفّق في العثور على عمل، لكنّي أعلم جيّداً، بأنه كان سيعثر على عمل، لو كان في موقعي. كنتُ واثقاً من أنّه سيفعل شيئاً ما رُغم كونه طريح الفراش، وإلاّ لكان الآن، هو ووالدته، على قارعة الطريق. لا بدّ أنّه يُتاجر ببعض الموادّ. ذلك مؤكّد.

مكثتْ ليندا في غرفتها لبضعة أيّام، وكانت تجتمع مع فتيات آتلييه الخياطة. في إحدى المرّات، حضرت سيّدة للحديث معها عن بدلة. لم تكن تثقُ إلاّ بها. شاهدتا معاً مجلّة أزياء فرنسية، كانت ليندا تُرسل الفتيات جيئة وذهاباً. إنّها تُجيد إدارة العمل حتّى وهي طريحة الفراش. تجاذبتْ مع السّيّدة أطراف أحاديث نسائية وعن الممثّلات وأزياء الرياضة. فعلتْ ذلك كله وهي تبتسم. كان أثاث غرفتها عبارة عن مرآة كبيرة وبضعة رفوف، رُتّبت فوقها الأمشاط والعطور. أنا أيضاً أُحب الأناقة، لكن الأمر مختلف بالنسبة لليندا. إنّها تُجيد الحياة على طريقتها، وتُجيد الحديث عنها، وتقول "لو كان لي بيت أملكه، سترى ما بإمكاني فعله".

مرّات، وحين تجوّلتْ معي في المدينة، توقّفتْ عند واجهات بعض المحالّ التجاريّة. كانت تعرف جيّداً أماكن الأزياء الأكثر أناقة وجاذبيّة. كنتُ أمرّ معها أمام تلك الواجهات دون أن يسترعي انتباهي ما تنتبه إليه هي. كان المسير معها في الشوارع باعثاً على فرح كبير. لو كنتُ أملك سيّارة

فارهة كتلك التي يملكها لوبراني، لبدونا نحن أيضا مثل ثريَّيْن. أبدتْ لي رغبتَها في شراء حقيبة سَفَر كبيرة، وقالت لي "منذ زمن طويل، وأنا أتوق للقيام برحلة طويلة إلى مكان بعيد".

حين شُفيتْ، دعوتُها للعشاء، ذهبنا إلى المطعم نفسه الذي أخذني إليه لوبراني. "إنّه العشاء الأوّل بمفردنا". لليندا طريقة خاصّة في أثناء الأكل، تشبه طريقة مَنْ لم يذقْ طعاماً منذ أيّام، وعيناها شرهتان. "يُعجبني السفر"، قالت "أتعلم كم هو جميل أن تصل إلى مدينة أخرى ليلاً؟".

"أن تُسافر بمفردكَ"، قالت "أنْ تُغيّر عاداتكَ، بيتكَ، مدينتكَ. أن تتركَ كل شيء لشهر أو لستّة شهور، أنْ تكون إنساناً آخر".

"أنتِ دائماً إنسانةٌ أخرى"، قلتُ لها.

ابتسمتْ. كنتُ قادراً على إثارة بسمتها حين أرغب في ذلك، تماماً كما العزف، فهناك إيماءات، أقوال وكلمات تُستخدم بطرافة وهزل، تفيد في جذب انتباه مَنْ يستمع إليكَ. كأن تُلقي نظرة ما، أو أن توحي بأنْ لا شيء حَدَثَ. ثمّ تأتي لحظات تُمارس فيها ذلك كله بتلقائية، ودون تفكير مُسبق. كانت ليندا تفهم هذه الأمور. تُمسك بذراعي، وتُحدِّق فيَّ. في تلك اللحظات، كنتُ مستعدّاً لأن أقول لها "لنذهب إلى البيت، ولنمارس الحبّ"، كنتُ واثقاً من قبولها طلبي.

"إذا ما عثرتُ على عمل يوفّر لي بعض المال"، قلتُ لها "سنذهب إلى البحر معاً".

"ومَنْ قال لكَ بأنّني سأذهب إلى البحر في هذه السنة؟"، قالتْها وهي

تضحك. فيما الثلج يتساقط، إلاّ أننا ذهبنا للرقص في (پارادايس)، وغطسْنا في عمق الثلج في الشارع. قالت ليندا "ليتنا نجد لوبراني"، لكنّنا وجدنا لِيلِي وهي ترقص بسعادة غامرة، حيَّتْني بإيماءة من يدها، وهتفت مع الموسيقى. قالت ليندا "حذار!"، وسحبتْني بعيداً إلى عمق الصالة. بقينا هناك طيلة المساء بمفردنا، راقصَيْن وضاحكَيْن. روتْ لي عندما كانت على الساحل في (سان ريمو)، اقتربتْ من الماء لتُبلِّلَ ساقَيْها وذراعَيْها فحسب، لكنّها صارت في عرض البحر، وقرّرتْ خَلْعَ لباس السباحة عن جسمها، وعرَّضتْ جسدها بأكمله إلى الشمس. "إن ذلك جميل ومثير للارتياح"، قالت "ينبغي أن نتعرَّى جميعنا، فإذا ما خرج الناس إلى الشارع عُراة، فإنّهم سيزدادون طيبة".

"ألا تذهبين إلى المسبح؟".

"لا"، قالت "فماء المسبح قذر".

ثمّ خرجنا من المرقص. كان الطقس ما بين الأشجار بارداً وقد اصطبغ كل شيء ببياض الثلج. بحثتُ عن سيّارة لوبراني ما بين السّيّارات الواقفة، فلم أجدها، ووجب علينا أن نستقلّ الترام. أُحبّ التدخين عندما يسقط الثلج، تجوّلنا تحت أقواس الشارع، لأُنهي سيجارتي، ودخلنا إلى مقهى.

"ماذا يقولون لكَ في البيت، وأنتَ دائم التجوال؟".

"أُزعجُهُم بالعزف خلال الوقت القصير الذي أقضيه معهم. أدرسُ وأتدرّبُ دائماً. يجب أن نقضي معاً سهرة كاملة، أعزف لكِ خلالها".

"يجب أن تأتي معي إلى مسرح (فارايتي). أنتَ لا تأتي إلى هناك أبداً، عليكَ أن تُجرّب مع لوبراني".

"لوبراني لا يُعجبني". كنّا عند مدخل بيتها "أتريدُ الصعود؟"، قالت لي. وهكذا كانت تمرّ الأيّام.

عرفتُ بأن لوبراني كان ينتظرها في منتصف النهار لدى خروجها من العمل، ليرافقها إلى المقهى. أخبرتْني بذلك بنفسها، إلاّ أنّها كانت تأتي معي في الأماسي جميعها. وطالبتْني بالإحجام عن الغَيْرة، لكني عجزتُ عن ذلك. ما الذي بإمكانها أن تجد عند لوبراني غير المال؟ إذا كانت تُعاشرني أنا، فإنّها لم تكن تفعل ذلك بحثاً عن المال بالتأكيد.

نسيتُ آميليو بشكل شبه نهائي، وكان يعود إلى خاطري عندما أخرج وأسير في الشوارع بمفردي فحسب. أنا الآن أحيا على طريقته عندما كان على آصرة مع ليندا. ما أفتقده هو العمل فحسب، إلاّ أنّني لم أرغب في الحصول على ذلك العمل من لوبراني، وطلبتْ من ليندا أن تكفّ عن إزعاجه.

"كما تشاء"، قالت "برأيي ذلك هو السبيل الوحيد".

قلتُ لها "لو أنّني في موقعه، لعملتُ المستحيل لإزالة شخص اسمه پابلو من سبيلي".

"أحمقٌ أنتَ"، ردّت عليّ "إنّه يسعى لمساعدتكَ لهذا السبب بالذات. ألن تُسدي لي خدمة وتُفرحني لو أنّني طلبتُ منكَ أمراً مشابهاً؟".

"هو يعلم حقّ العلم"، قالت بعد بُرهة "لو كان بمقدوركَ، فإنّكَ ستستديرُ عنّي، وتنساني بشكل كامل".

"لا أرغب في تحقُّق هذا الاحتمال".

"سيكون ذلك بمقدوركَ يوماً ما"، قالت ليندا بهدوء "أنتَ شابّ، وليس بالإمكان أن تُحبّ امرأة واحدة وأن تمارس الحب معها لوحدها طيلة حياتك".

"الحبُّ هو ما يربط بيننا".

"يا إلهي!"، قالت ليندا.

"قد لا نُمارس الحبّ دائماً، لكنّنا نعيش مع بعضنا، إنّه أمرٌ مغاير تماماً".

"أرأيتَ؟"، قالت بذات الهدوء "بأنه لا دخل للحبّ في ذلك كلّه".

كنّا، في المساءات جميعها على وجه التقريب، نُكرّر الأشياء ذاتها، وفي الصباح، كنتُ أجول باحثاً عن عمل. حاولتُ في البدء مع ربّ العمل الذي اشتغل آميليو لديه. كان يُصلّح الدرّاجات البخاريّة، ويُدير مشتريات ومبيعات وخدمات شاحنات الطُّرُق الخارجية.

"تعال إلى مكتبي صباح غد"، قال لي "لكنّي لن أُسلّم الشاحنة إلاّ بيد مَنْ تجاوز الثلاثين من العمر. هل تُعاني من أمراض في الدماغ؟ لا أرغب في تشغيل مجانين". عندها قلتُ له بأن يُتيح لي فرصة مرافقة أحد سائقي الشاحنات، لأُكوّن فكرة عن العمل "أنتَ تُبالغ في عزف الگيتار".

لو امتلكتُ جرأة العودة لزيارة آميليو كنتُ سأطلب منه أن يتوسّط لي لدى هذا الرجل، فآميليو يعرف الجميع، سواءٌ أولئك الذين يعملون في المصنع أو مَنْ يقودون الشاحنات. أعتقد بأنّه لم يكن ليبخلَ عليّ بالمساعدة لمرّة واحدة على الأقلّ. تعرّفتُ على عدد من سوّاق الشاحنات الذين كانوا يرتادون المقهى، "إنّه موسم سيِّئ"، أسرّوا إليّ "ستعاني كثيراً من برودة الطقس. لكنْ، ألديكَ رُخصة قيادة السّيّارات؟".

وكانت أمّي وشقيقاتيّ يردِّدنَ "ألا يكفيكَ العمل في دكّان العائلة؟ ما الذي بإمكانكَ تحقيقه دون ذلك؟".

كنتُ أبحث عن عمل يُمكّنني من مواصلة عزف الگيتار، ومن اللقاء مع ليندا. كان المصنع شبيهاً بدكّان العائلة. ما كنتُ أبحث عنه هو أن أجول وأفعل بمفردي. في المقهى راقبتُ سوّاق الشاحنات، وتفحّصتُ وجوههم بدقّة. كانوا يعملون حتّى في ساعات الليل، ويُغامرون بحيواتهم. كانوا يصلون إلى المقهى سواء في الفجر أو في الأماسي وخلال الليل. تذكّرتُ ذلك الصباح الذي شربتُ فيه كوبَ الحليب المُطعَّم بالـ "غراپا" في ذلك المقهى. أدركتُ بأن عليّ أن أجهد كثيراً للعثور على العمل.

لا أُجيد قيادة الشاحنة، ولا أملك رُخصة قيادة. في أمسيّة كنتُ وحيداً، فخرجتُ برفقة لاريو حاملاً گيتاري، أخفض النادلُ صوتَ المذياع، فعزفتُ كل ما راق لي مواجهاً كأسي. كنتُ أسمع تعليقاتهم "إنّه بائع السجائر"، وتعرّفتُ على وجوه البعض منهم. وعثرتُ على مَنْ يُجيد الغناء، وطلبنا نبيذاً إضافيّاً. شابّ أشقر فارع الطول وذو وجه حسن، اسمه ميلو، تناول الگيتار من يدي، وعزف مقطوعات من موسيقى التانغو، إلاّ أن الحاضرين طلبوا منه الكفّ عن العزف "أنتَ، غنِّ فحسب"، قالوا له "اتركْ عزفَ الگيتار".

وفي اليوم التالي، وجدْتُني على متن شاحنة برفقة ميلو وميكانيكي عجوز. كنّا نحمل شوالات من الكبريت إلى (كاسالا). ابتدأنا الرحلة برفقة الضباب وبالأنوار المضاءة. "إذا عاد الصفاء، وتبدّد الضباب"، قال لي ميلو "فسأترك لكَ قيادة الشاحنة".. وبزغتِ الشمس في (تروفوريلّو)، فأمسكتُ بمقود الشاحنة، وشعرتُ كما لو أنّني أقود منزلاً كبيراً.

كان الشارع خطراً في مناطق الانخفاض "سترى الشوارع في محافظة (آليسّاندريا)، احذرْ، وتيقَّظْ أكثر عندما تتقاطع مع سوّاق العربات العسكرية"، قال لي الميكانيكي.

لحسن حظّي، لم تكن تتبعنا أيّة شاحنة "أنتَ تُخطئُ في تغيير السرعات"، كرَّرا عليّ. قُدْتُ الشاحنة لأكثر من مرّة خلال ذلك اليوم، وبالذات عندما كان الدرب سهلاً. قال لي ميلو "كان عليكَ أن تحمل الگيتار معكَ". "سأحملُهُ معي في المرّات المقبلة".

توقّفنا في (مونكالڤو)، وكانت الأرض مغطّاة بالثلج. فهمتُ سبب الحاجة إلى عوينات غامقة الزجاج خلال قيادة الشاحنات. تناولْنا الطعام في غرفة مُدفَّأة، واحتسينا كأساً من النبيذ، بينما تحدّثا عن سفراتهما السابقة معاً. كان ميلو قد وصل في إحدى المرّات حتّى إلى روما. "بإمكانكَ الحصول على المال"، قال "لكنّكَ لن توفِّر قرشاً واحداً". أخرجتُ علبة السجائر من جديد، وقدّمتُ إليهما. "مرّة، في إسبانيا"، قال الميكانيكي "يا لهم من بشر، سرقوا الوقودَ من الشاحنة، ليُضرموا النارَ في بعض البيوت!". عندها غمز ميلو بعينه، وقال "هل وصل الإيطاليون إلى هناك أيضاً؟".

قال الميكانيكي "عندما يجد الإسبان في المقهى لوحةً كُتب عليها "العراك ممنوع"، فإنّهم يخرجون إلى الساحة، ليتبادلوا اللكمات هناك".

استبدلنا الشاحنة، وكان علينا أن نعود إلى تورينو بحمولة إسمنت. كنتُ أرغب بالتجوال في المدينة، لكنّهما أخبراني بضرورة أن نتدفّأ قليلاً. كانا يعرفان مقصفاً شعبياً جيّداً، فأكلنا وشربنا، ثمّ لعبنا دورة ورق.

بزغتْ شمسٌ عليلةٌ، رحلْنا بشاحنة أُخرى غير التي جئْنا بها، وبعد وقت قصير من مغادرتنا، تعطّلتِ الشاحنة الجديدة، ووجبَ علينا التوقّف في الشارع المتجمّد، وأن نُحرِقَ أكفَّنا بحديد تلك الشاحنة الملعونة.

ثمّة ما يضطرم في داخلي "هذه الليلة لن ألتقي ليندا"، وأخيراً غرَّد محرّك الشاحنة، نظّفْنا أكفَّنا بالثلج، وجفّفْنا منها الماء الذي سال من الجليد، ورحلنا عبر الضباب بأنوار مُضاءَة. وصلنا إلى تورينو التي غلَّفَها الضباب منذ ساعات. كانت ليندا تنتظرني عند الباب. في الأيّام التالية، أقلعتُ عن الذهاب إلى المصنع، وتركتُ الرحلات.

٨

اعترفت ليندا بأن لوبراني يُناور حواليها، ويريد أن ينالها. كانت تُقرّ بذلك ضاحكة، وتمزح معه حول الموضوع في بعض الحالات. "إنّ ما يُثير الضحك فعلاً"، كانا يقولان "هو أنّنا نسكن على بُعد خطوات قليلة، ولم يتعرّف أحدنا على الآخر".

"يعود الفضل في هذا كلّه إلى پابلو"، قالت ليندا.

كان لوبراني دائم الأناقة، ولولا التدليك والأزياء الأنيقة والعطور التي يُسديها على جسده، كان سيبدو، بسني عمره الخمسين، وبرغبته الحيوانية الشرهة في الأكل والشرب، مثل حمّال. "الحمّام التركي"، كان يقول "نعم. الحمّام التركي يُخرِجُ من المسامات كلَّ ما يفيض عن حاجة جسدكَ. إنّه يُفيد لهذا الغرض فحسب".

في إحدى الليالي، سألتُ ليندا ما إذا كانت رأتْهُ وهو بلباس السباحة "هل يُعجبكِ؟"، قلتُ لها "لا بدّ أن يكون بشعر كثيف وغزير حتّى على كتفَيْه".

"مسكين"، قالت لي "أو ربمّا يكون أملس ووردياً كطفل صغير".

وكانت تقول لي دائماً بأنّه ليس أكثر من بائس رُغم المال كله الذي

بحوزته، "لقد أجبرتْه كارلي أن يشتري لها حقوق إدارة أحد المسارح، ومن ثمّ، هجرتْه. انظرْ إليه. فعندما يرى واحدة منّا، نحن اللاتي تعرّف علينا في صبانا، يلحق بنا مثل الكلب. إنّه إنسان طيّب، يعمل دائماً، ويُطالبه الجميع بالأموال".

"ذلك واضح".

"إنّه داهية وذكي. أتعلم أنّه يملك مسارح في كل مكان، وكان دون حتّى قرش واحد عندما ابتدأ مشواره. وظيفته تختلف عمّا نعمل، هو يُجري اتّصالات هاتفية، ومن ثمّ، يرحل، ويوفّر العمل للآخرين".

"يعني، أنّه يعتاش على جهد الآخرين".

"أنتَ أحمق، فهناك حاجة ماسّة إلى أُناس مثله".

كنتُ أُطيق وجود لوبراني بسبب الخروج مع ليندا. كان هناك مقهى على بُعد خطوات من مسرح (ڤاراييتي)، حيث يرتاده البعض في منتصف الليل لاحتساء جرعة الشراب الأخيرة. كنتُ أنتظر ليندا هناك في المساءات التي تتأخّر فيها في الخروج من مصنع الخياطة. كان النُّدّل يرتادون المقهى خارج ساعات عملهم، كما لو أنّهم روّاد اعتياديون، وإلى جانبهم ثمّة الممثّلات والرياضيِّيْن وشباب عابرين. ذلك كلّه جعل المقهى شبيهاً ببرنامج منوّعات خارج الخشبة. وفي أحيان أُخرى، كان ذلك المسرح الصغير يستقبل امرأة أو رجلاً، أو عائلة من لاعبي الأكروباتيك. كان هناك دائماً مَنْ يُدخّن ويأكل، وأطفال يتراكضون. وكنتَ ترى أيضاً اقتراب أحد البائسين من واحدة من فتيات المكان، وما هي إلاّ لحظات، إذْ تسارع الفتاة بمناداة النادل عبر الصالة طالبة منه أن يحمل الشراب، وتبدأ بالمزاح مع

ذلك البائس، الذي يغمره فرح كبير، ويضحك ملء شدقَيْه، دون أن يُدرك أنّه يُغامر في تلك اللحظة بكل ما يملك، وتُغيّر الفتاة من وضعية ساقَيْها بتكرار، ولن يمرّ وقت طويل حتّى يغادرا المقهى معاً متشابكَيْنْ. هذا هو مقهى (الماسكيرينو)، أبوابه مُغلقة خلال ساعات النهار.

لدى دخولنا برفقة لوبراني، لاحقتْنا نظرات الحاضرين ونحن نتّجه إلى الطاولة المُعدّة سَلَفَاً في زاوية، تُظلّلها مجموعة من المزهريات.

"أولستَ مالك هذا المكان أيضاً؟"، سألت ليندا لوبراني في المرّة الأولى التي ذهبنا إلى هناك.

"لو كان ملكي، لأدرتُهُ بشكل أفضل"، قال "سأُزيح منه هذه القذازات كلها، أُبقيه مُغلقاً لمدّة شهر، ثمّ أفتحه بنُدُلٍ يرتدون بدلات بيضاء، أوركيسترا جاز، وبأنوار منتشرة".

"لكنْ، ورُغم ما تقول، فإنّ له، كما هو الآن، طابعه وجماله الخاصّ"، قالت ليندا.

كانت هناك امرأة تتراقص كالمجنونة بمفردها أمام منصّة الفرقة الموسيقيّة التي توقّفت عن العزف. جفّف العازفون العَرَقَ المُتصبِّب من جباههم، وترقّب الروّاد النادرون في تلك الساعة عودة الفرقة إلى العزف. بدأت مجموعة من الشباب بالطَّرْق على الطاولات إيقاعاً رقصت المرأة على أنغامه، وكانت تُطلق بين الحين والآخر صرخة شبيهة بصرخات الممثّلين على الخشبة.

همستُ في أُذن ليندا "دعيه يرقص مع إحداهنّ"، ضحكتْ، وقالت

بأنها لن ترقص لا معي، ولا مع لوبراني. وهكذا بقينا جالسَيْن إلى الطاولة، نستمع إلى لوبراني. قال بأنّه يُصاب باضطراب في معدته، ويُشعر الاشمئزاز عندما يرى امرأة تفعل بمفردها ما ينبغي فعله مع شخص آخر. لا بأس في المسرح، فنحن إذّاك إزاء عرض مسرحي، لكنْ، أن تفقد امرأة رُشدها في مرقص، فإن ذلك يعني أنّها مجنونة، وكفى.

"ومع ذلك، فأنتَ تُعجَبُ بالنساء الثملات".

"ربّما كنتِ على حقّ، لكنْ، شريطة أن تكون تلك المرأة الثملة بصحبة رجل، والوضع أفضل عندما يوجد مَنْ يعزف. أمّا أن تكون بمفردكَ، فتلك مُتعة ضائعة. بمقدور پابلو، وهو لمّا يزلْ شاباً، أن يُضيّع الفرص، أمّا نحن، فليس ذلك مسموحاً لنا".

"أنتَ قليل الأدب"، نهرتْه ليندا.

ظلّ صامتاً لبرهة مَحنيَ الرأس، ثمّ عاود واثقاً من نفسه "نحن متشابهان، عزيزتي، فالمرأة تبدو دائماً أكبر من عمرها الحقيقي. نحن الاثنان نعرف كيف تسير الأمور، وإلى أين تسير، وما الذي تساوي. نحن شبيهان بالأرامل".

كنتُ أُحدِّق فيه، وأُفكّر في كُنه النساء، بعدد قليل من النساء، أو ربّما بليندا وحدها. فإذا ما كان أيّ رجل لديهنّ شبيهاً بالآخرين، فمن الأفضل أن يختَرْنَ واحداً من الرجال، ويَمْنَحْنَهُ أنفسهنّ، ويتبعنَهُ كما يتبع كلبٌ سيِّدَه.

لكن الواقع مختلفٌ تماماً، فالنساء يرغبنَ في الاختيار، ويفعلنَ ذلك بوضع الرجال معاً على المنصّة، وممارسة اللعبة مع الجميع، باحثات في

كل رجل عن جرئية، تنسجم مع حساباتهنّ، وهذا يُضرّ بالجميع، وينتهي الأمر بهنّ بالبقاء دونما صديق.

"ليندا"، قلتُ لها "لنلعب هذا المساء هذه اللعبة. أين سنكون في العام المقبل؟ هل سنكون سعداء؟ مع مَنْ سنقضي الليلة؟ وبأية طريقة؟ هل توافقين؟". *مكتبة أحمد*

"نعم، نعم، موافقة"، قالت ليندا "مَنْ منّا يبدأ اللعبة؟".

"أو، إذا ترغبان تذكُّر العام الماضي. ليلة العشرين من الشهر. كيف أمضينا تلك الليلة، وبرفقة مَنْ كنّا. ربّما كان هذا أسهل بكثير".

"ومَنْ بمقدوره تذكّر ذلك؟"، تمتم لوبراني.

"هاكَ!،" هتفتْ ليندا "لقد أمضيتَ تلك الليلة، ولا تتذكّر كيف ومع مَنْ أمضيتَها! وإذاً، فقد أضعت مُتعة!".

"ومَنْ بمقدوره التأكيد ما إذا كانت ليلة ممتعة بالفعل؟" قلتُ لليندا.

"ربّما كان بانتظار شخص ما، أو ربّما ركب قطاراً تصادم مع قطار آخر في السّكّة، أو ربّما أجبره الطقس السيِّئ على المكوث في البيت".

ابتسم لوبراني، ونظر إلينا بعينَيْه الذئبيَّتَيْن "ليلة العشرين"، قال بجدّيّة، ومدّ يده باحثاً في جيبه عن مفكّرة صغيرة، أخرجها. قالت ليندا "ليس هذا مقبولاً". تصفّح لوبراني المفكّرة بتؤدة "عشرون، عشرون"، وقال "آه، يا للحيف، فقد كان في العام الماضي".

"أرني ذلك"، قالت ليندا.

لكن لوبراني سحب يده، وأنقذ المفكّرة من براثن ليندا. "دعني أرَ"، صاحت ليندا، وانقلبت الكؤوس.

"سأجعلكَ تدفع الثمن"، قالت ليندا.

"إنّها أمور خاصّة بعملي".

"إذاً، أخبرنا عن العام الجاري"، قالت ليندا.

كان لوبراني يتصفّح المفكّرة وهو يُتمتم بأسماء وأشياء بقَدْر من الجدّيّة والغموض، "المحاسب"، تمتم "المعلّم .. المايسترو .. السهرة .. المكالمة .. فلورنسا .. المايسترو .. الزهور .. السهرة..".

"أرني ما كتبتَ مساء أمس".

إلاّ أنّ لوبراني رفض الطلب، وأعاد المفكّرة إلى جيبه.

"أخبرينا أنتِ، ما الذي فعلتِ ليلة العشرين. لنستمعْ إلى ليندا".

تغنّجتْ ليندا قليلاً، ورفضت مُبرّرة ذلك، بكونها تفتقر إلى المفكّرة "لم يرسخْ في ذهني أيّ شيء من هذا العام، لقد أضعتُ كل شيء. لا أتذكّر شيئاً".

"ليس مهمّاً أن يكون التاريخ هو العشرين من الشهر". قلتُ عندئذٍ.

"يكفي الشهر، يكفي شهر كانون الأوّل".

"كنتُ أشتغل"، قالت ليندا.

"ليلاً ونهاراً؟"، سأل لوبراني.

"ومَنْ يدري ما الذي فعلتُ؟ نحن نتذكّر الأمور التي نعتادها، وما خلا ذلك يغيب عن البال، أو يدخل طي النسيان. لم يعدْ لكلّ ما قلتُ، أو اعتقدتُ بأنني أقول، أيّ وجود. أتذكّر صباح أحد الأيّام. كان الضباب يُغلِّف كلّ شيء وبدا لي وكأنّ العالم قد اقتُلع من جذوره. لم يكن يُسمَعُ حتّى وقع الخطوات.. أتذكّر هذا".

"لكنْ، منْ كنتُ ترافقين ليلاً؟".

"دعْكَ من ذلك"، قال لوبراني "نحن نروي الحكايات فحسب، ولكلّ منّا حكاياته".

لم يسألاني عن ذكرياتي، لا أعلم ما إذا سرّني ذلك أم لا. كانت ليندا مَحنيّة الظهر على الطاولة، وقالت "لنلعب القسم الآخر، ما الذي ستفعل في مثل هذا اليوم من العام المقبل؟".

كفّت المرأة الممسوسة عن الرقص منذ بُرهة. واحتلّ حلبة الرقص عدد من الشباب. ربّما كانت الساعة تشير إلى الثالثة فجراً، وكانت الصالة فارغة، وقد غرق نصف أعضاء الفرقة الموسيقية في النوم.

"أنا أعرف"، قالت ليندا "سنبحث ونتساءل عمّا فعلناه في الليلة ذاتها من العام الفائت".

"فلتشربي، اشربي"، قال لها لوبراني.

"أتريدني أن أتذكّر هذا النبيذ؟" قالت هي بصوت يُقلِّد البكاء.

ولمُجرَّد بقائنا بمفردنا في الشارع - في فجر اليوم التالي - سألتُها "هل حقّاً لا تتذكرين ما الذي فعلتِ في العام الماضي؟".

"أما يزال بالكَ مشغولاً بتلك اللعبة؟"، ردّتْ ليندا.

أحسستُ، وأنا عائدٌ إلى البيت، بأنني أفضّل العيش وحيداً على أن تنساني ليندا. انتابتْني متعة خبيثة. ماذا لو أقلعتُ في الحال عن لقائها؟ ربّما سيؤلمها ذلك إلى درجة أنّها لن تنساني على الإطلاق.

"أنا أتذكّر كل لحظة رأيتُكِ فيها"، قلتُ لها.

"ربّما".

بدا لي وكأنني هجرتُها بالفعل. كنتُ أرتجف من البرد "في هذه الليلة، أدركتُ حقّاً مَنْ تكونين"، قلتُ لها. أمسكَتْ بيدي، وتمتمت بشيء ما.

"وإذاً، ففي العام الماضي، لم تكوني برفقة أحد"، قلتُ لها.

شدَّتْ على يدي بقوّة وهي تُحدِّق بي "ماذا دهاكَ؟".

"لا شيء"، قلتُ لها "لِمَ تفعلين هذا؟ في العام الماضي، كان معكِ آميليو. وقد أخبرتِني أنتِ بنفسكِ بأنّكما ذهبتُما إلى الجبل في تلك الليلة، ورقصتُما معاً...".

"أنتم الرجال عاجزون عن التغاضي عن أيّة كلمة تُقال أمامكم"، قالت "حتّى أنتَ!".

تحدَّثْنا عن أعوامها الماضية، وأخبرتْني عن أشياء كثيرة. استاءتْ، وحزنتْ كثيراً. كان يُفترَض أن نذهبَ إلى السينما، لكنّنا أقلعْنا عن الفكرة. اشترينا الكستناءَ المشوية، وتجوّلنا على ضفاف نهر (الپو)، حلّ المساء، وأضاءت الأنوارُ شوارعَ المدينة. وددتُ لو أن ذلك يدوم إلى الأبد، لأنّني

أدركتُ الآن احتمال أن يهجرَ أحدُنا الآخرَ، وألّا نلتقي أبداً، وهو ما كان يُصيبني بالشَّلَل. كنتُ أشعر بأن جذوري تأصّلت في دمائها، وبأن جوانحنا اتّحدتْ ببعضها. كانت نبرة صوتها دافئة مثل عناقها. روتْ لي بأنها ذهبتْ في صباها إلى التلال مع شابّ تعرّفتْ عليه. استلقيا على العشب. وصفتْ تلك الرحلة بالحماقة، وقالت بأنّ العالم مليء بالحماقات. ثمّ سألتْني ما إذا تغيّرتُ أنا أيضاً بعد أن مارست الحبّ مع الفتاة الأولى. تحدَّثْنا عن آميليو، ونفت أنّها مارست الحبّ معه. "يا للهول!"، قالت. "أنا أحبّه حتّى هذه اللحظة"، قلتُ لها "أنا أشعر بالعجز عن زيارته الآن".

"لا أُحبّ حياتي الحاليّة، ودائماً أجد وجه البوم لوبراني في مواجهتي. لماذا لا نبقى بمفردنا. أنتِ وأنا، يا ليندا؟".

كنّا نقضي الليل مع لوبراني، لكنّي كنتُ أُحب مقهى (الماسكيرينو) عصراً. كان المكان مُريحاً، وليندا تحضر لتناول العشاء برفقتي. كنتُ أقضي النهار بطوله في المصنع، كي أتعلّم حرفة، ولأنال رضا صاحب المصنع، إلاّ أن أهلي كانوا يصرخون بوجهي "امكثْ في الدكّان". وقد فعلتُ ذلك مرّة، وحملت معي گيتاري، ولم أكفّ عن العزف حتّى عند دخول الزبائن، لذا كان على نساء عائلتي الإسراع لعمل ما كان عليّ القيام به، وبذا أقلعنَ عن الإلحاح عليّ للمجيء إلى الدكّان، وقضيتُ أيّامي خارجه كما يحلو لي. كنتُ مقتنعاً بأنّني سأعثر يوماً ما على العمل الذي يتناسب معي، على الطُّرُق أو في مدينة أخرى، شريطة أن توافق ليندا، وأن تتوافق معي حول ذلك العمل.

حقّقتُ مورداً صغيراً من خلال المتاجرة بالموسيقى. كنتُ أحتفظ في البيت ببعض نوتات الأغاني، واتّفقتُ مع عدد من مغنّيي مقهى

(الماسكيرينو) الذين كانت تعوزوهم تلك النوتات على الدوام، فأعدتُ كتابتها. وكان هناك رجل عجوز، اسمه كارلاندريا يقيم أوده من هذا النوع من العمل، فَنَسَخَ لي عدداً منها. كان كارلاندريّا في شبابه يعزف الكلارينيت ضمن فرقة موسيقية، ويتقاضى ما يُقيم به أوده، إلاّ أن إصابته بالربو أقعدتْه عن العزف والعمل. اندهش كارلاندريا من رفضي العيش من خلال العزف. "أعزف لنفسي دائماً"، قلتُ له. كان الرجل يعرف لوبراني، ويعدّه "سيّداً حقيقياً".

كانت ليندا تُراقب كل شيء دون أن تستوعبَ ما يجري "لا أرغب في الخضوع إلى إمرةِ لوبراني، أو أن أدخل في دائرته"، شرحتُ لها "الگيتار ليس عملاً أو مهنة. سيكون كما لو أنّهم يدفعون لي على أناقتي أيضاً. إنّ عملي الحقيقي هو في (الأوتوستراد)".

كانت ليندا تصل إلى المقهى في الساعة التي تُغلِّف فيها الظلالُ المكانَ المؤثّث بأرائكَ حمراء قديمة. لم تكن الثريّا الكبيرة المعلَّقة في مركز السقف تُضاء إلاّ عند انتصاف الليل، وفيما ليندا تتناول البيض والحليب وأنا أسامرها، كنّا نكتفي بما يتوافر من ضياء وظلال. كانت تروي لي عن تفاصيل العمل، وعمّا باعتْه خلال النهار، وعن الذين التقتْهم. وكان لوبراني يتصّل بها هاتفياً بشكل شبه يومي، لترتيب موعد اللقاء الليلي في مرقص (بارادايس)، أو في المسرح. شخصياً كنتُ أُفضّل اللقاء في المسرح، لأنّني سأكون على مقربة منها. مرّاتٍ كنتُ أقول لها "فليذهب إلى الجحيم"، وأتمكّن من قضاء السهرة معها بمفردنا، تاركَيْن لوبراني مع أيّ كلبة أخرى. ولم يكن يشير إلى غيابنا، ولا يذكر عنه شيئاً، حين كنّا نلتقيه في المرّة التالية.

كان كارلاآندريا يُشبه صُرصاراً، ومُجرَّد رؤيته كانت تُفقِدُني الرغبة في أن أعمل موسيقيّاً. "حين تقع المصيبة الأولى، تنتهي الحال بهذا الشكل"، قلتُ لليندا، أجابتْ "وما الذي تعنيه بهذا الشكل؟"، "شائخين وبائسين"، أجبتُ، "بالإمكان أن يؤول المرء إلى النهاية ذاتها بطرائق أخرى أيضاً"، قالت هي.

ومن المصائب المثيرة للضحك، كان هناك الكثير في ذلك المكان، ومن بينها حكاية امرأة اسمها مينيّا البوّابة. وكانت مينيّا هذه في زمنٍ ما مغنّية في مرقص (ميريديانا). رأيتُها هناك في ما مضى، وكانت تُشبه، إلى حدٍّ ما، أختي كارلوتّينا في إفتقارها المطلق لأيّة مؤهّلات للغناء، وهي مهنة فرضتْها عليها أُمّها.. لم تكن لدى مينيّا أي من خصائص الجمال إلاّ عينَيْها وفروة أرنب، تضعه على كتفَيْها. ورُغم ذلك، فقد كانت مينيّا نجمة، تقودها أمّها إلى بوّابة المرقص، لتعود معها إلى البيت بعد الانتهاء من وصلتها. رأيتُ العجوز مرّة وهي تتحاور مع مجموعة من الناس في (الماسكيرينو)، كانت ليندا برفقتي. كانت تروي عن مينيّا، وتقرأ إحدى رسائلها "أمّي العزيزة، توهّمتُ بأنّه رجل ثريّ. لكنْ، من العسير تصديق ما رأتهما عيناي . اعتقدتُه ثرياً ثرياً، وكنتُ أُحبّه كثيراً، آهٍ، لما جنتْهما يداي، أمّي العزيزة ...". كانت ليندا تضحك وهي ترى المشهد، "عجوز حمقاء". رويتُ لها بأنّي عرفتُ مينيّا تلك. هزّت ليندا رأسها وهي تُواصل التحديق بالمرأة.

وأخبرتُها عن لقاءاتي في شارع (إنجلترا): "يا لبؤسكم أنتم الرجال!"، قالت "تشترون امرأة من الشارع كما تشترون الكستناء المشويّة. كيف يمكن أن تُمتِّعكم امرأة في هذه الحالة؟".

"أنا لا أشتري شيئاً"، أجبتُها. "لكنّكم، أنتم الرجال تُحبّون ارتياد ذلك الشارع. لا تشعرون بالحاجة إلى ذلك طالما لديكم صديقة، إلاّ أنكم قادرون على تبادل القُبل مع تلك النساء أيضاً". بدت ليندا مازحة "كنتَ تذهب أنتَ أيضاً في بعض المرّات. أعرف ذلك. كيف يقتربنَ منكَ؟"، وتغنّجتْ "أعطني سيجارة؟".

وخلال عودتي ليلاً من منزل ليندا، كنتُ أرى بأن الوضع ما عاد كما في السنين الخوالي. حين كنتُ أمرّ من منتصف الشارع، وأفكّر "هذه أيضاً حياة". كنتُ أتألّم وأُقاسي من أجلهنّ. كنّ يذرعنَ الشارع المغطّى بالثلج، وكانت بقعة الضياء الأحمر الصادر عن السيجارة تُخفي ملامح وجوههنّ.

"إنّ امرأة تمارس تلك الحياة، ليست إلاّ حمقاء".

"لا أحد يدري، ربمّا كانت الحاجة ما يدفعهنّ إلى ذلك".

"ناولني عُقب سيجارة"، قالت ليندا مقلّدة تلك النساء "إنّهنّ حمقاوات".

تذكّرتُ المرأة التي صادفناها في الطريق، أنا وميلو، في أثناء عودتنا من (بيانيتسا) إلى تورينو. وعندما ركبتْ الشاحنة، وكشفتْ عن فخذها.

"قُدْ أنتَ"، قال لي ميلو. قُدْتُ الشاحنة حتّى البيت، فيما انحشر الاثنان في المقصورة الخلفية، وصارا أحدهما يمتصّ دم الآخر. "سترميني خارجاً!"، قالت له. لم تكن ترتدي زياً مزركشاً مثل الأخريات، ووجهها كان خالياً من الأصباغ، بدت مثل ربّة بيت اعتيادية ما بين الثلاثين والأربعين من العمر، بوجه نحيل للغاية وعينَيْن جائعَتَيْن. "صديقكَ ليس مثلكَ"، قالت

له. أنا كنتُ أقود الشاحنة، وذهني مسترسلٌ مع ذاتي، وأفكّر "بالتأكيد أنتِ أيضاً كنتِ "ليندا" شخصاً آخر".

في ليلة رأس السنة، أخبرتني ليندا بأنها ستسافر عمّا قريب. أخبرتْني بذلك في تلك الليلة مبتسمة. كنّا، نتعشّى في (الماسكيرينو) ونفدنا، بالصدفة، بجلدنا من لوبراني. كنّا سنحتفل بحلول منتصف الليل في غرفة ليندا. كان هذا اتّفاقنا، وكانت في داخلي رغبة كبيرة في الرقص. قالت لي "رحلة. سأقوم برحلة".

لم تكن تعرف تفاصيل الرحلة بشكل مؤكّد، وعلى أيّة حال، لم تكن أطول من ستّة أيّام من الغياب. "أعمال" قالت لي مبتسمة، "احتفظْ بهدوئكَ، لا وجود لأيّة مشكلة، وسترى بأنّني سأعود".

في تلك الليلة، نسينا حتّى الرحلة. في اليوم التالي، وجدنا كارليتّو في مقهى (الماسكيرينو). وصل من جنوة.

٩

لم يتعرّف عليّ كارليتّو في الحال. كان منشغلاً بالحوار مع النادل. اندهشتُ حين رأيته، إذْ لم يكن أحدب إلى الدرجة التي تصوّرتُها، لكنّ صوته كان هو ذاته، كان قصير القامة، يعتمر قُبّعة على رأسه.

كان يتكلّم بصوتٍ عالٍ، ويقول بأنّه حلم بعدد كبير من القطط، وفيما كان النادل غارقاً في الضحك لما يسمع، كان هو يقول بأنه كان يسير مثل القطّط.

دخلتْ ليندا، لكنّها لم ترَ كارليتّو. "هل تعرفين مَنْ يقف عند كاونتر البار؟"، سألتُها.

"أوه، إنّه كارليتّو"، وبقيتْ جالسة تنظر إليّ بفرح، ثمّ أشاحتْ بصرها عنه، لتعاود النظر فيّ.

"منذ نصف ساعة وهو يتكلّم عن القطط"، أخبرتُها "لقد حلُم بأن تورينو امتلأت بالقطط، ولم يعد يرى فيها أُنسياً آخر، وحتّى تتمكّن من الخروج من المدينة، فإن عليكَ أن تلعب دور القطّ، تتخفّى وتهرب عابراً من فوق السقوف".

"هل تحلم أنتَ أيضاً بأحلام مثل هذا؟".

"ليلة الأوّل من أمس، حلُمت بلِيلِي".

"برافو!".

"لم تكن لِيلِي بالتحديد. كانت فتاة تُشبه أختي كارلوتّينا. كنّا نسير في الشارع. هي تسير أمامي، وتخيّلتُ أنّها إذا ما استدارتْ، فستراني وتُهرع هاربة. كنّا نمرّ أمام شوارع ضيّقة، وأنا أخشى أن يخرج منها أحدٌ ما. ثمّ ركضتُ، وركضتْ لِيلِي أمامي. شعرتُ بأنّها تسعى للدوران حول الشوارع للإمساك بي من الخلف...".

في تلك اللحظة، رآنا كارليتّو. ترك النادل، وركض نحونا. قالت له ليندا "يا للجمال!". احتفى أحدُهما بالآخر، وتبادل التحيّة معي أيضاً.

"أنا هنا منذ يومَيْن"، قال كارليتّو "لقد فعلها بي ذلك الوغد. أبالإمكان العمل بهذا الشكل!".

"وهل جاءتْ معكَ دورينا أيضاً؟" سألتْه ليندا.

"عادتْ إلى روما"، قال "لم يعدْ بمقدورها العيش هناك. كل مَنْ حواليها من الأقارب يُشبهون القطط السائبة..."، ضرب على جبهته بكفّه، ومن ثمّ، طَرَقَ به على الطاولة.

"هذا هو السبب الذي يجعلني أحلم بالقطط"، هتف "تورينو أيضاً مثل روما".

سألتْني ليندا "وماذا فعلتَ مع لِيلِي؟".

عدتُ إلى رواية حلمي من جديد "وصلنا ساحل البحر. كنّا نركض.

كانت تعدو بالدرّاجة الهوائية على رمل الساحل. حملتُ من الأرض حجارةً، ورميتُها صوبَ رأسها، فأصبتُها، وقفزتْ إلى البحر. سقطتْ لِيلي ميّتة".

قال كارليتّو "عندما تحلم بماء كثير، فذلك حلم مشؤوم".

"ثمّة مَنْ يُحبّ، وثمّة مَنْ يقتل"، قالت ليندا.

لم يُسعدني أبداً أن أروي ذلك الحلم لشخص ثالث. تشعر بنفسكَ كَمَنْ نسيَ خاتمة الحكاية، أو لكأنّ الگيتار لم يعُدْ يُلهمكَ بشيء، يتولّد لديكَ الإحساس بأنكَ تقف عارياً. كان عليّ أن أروي الحلم لليندا فحسب، بل أن أهمسه في أُذُنها. إلاّ أن ليندا كانت تمزح وتُقلّد إيماءات وجه لِيلي. سألتْني "وما هو الزّيّ الذي كانت ترتديه لِيلي في الحلم؟".

"لا أعلم".

هنا قهقه كارليتّو "نعم، نعم". قالت ليندا "هل مارستُما الحبّ؟".

"يكفي هذا!"، قال كارليتّو. "أتعلمان بأنني سأرمي نفسي في نهر (الپو) الليلة؟".

"كيف أمضيتَ ليلة رأس السنة؟"، سألتْه ليندا.

"باحثاً عن لوبراني، لأسلخ جلده. فبعد أن أعددتُ مجموعة كبيرة من الناس، غاب عنّي. إذا ما عدتُ إلى جنوة، فسيسلخون جلدي. هل تعرفين المكيدة التي حاكها لي؟ طردني من المسرح، ليُهديه إلى كارلي".

"حماقات"، قالت ليندا "الجمهور يُحبّكَ أنتَ، ويعلم الجميع ذلك".

"لكن لوبراني يجهل ذلك".

ثمّ هدأت سريرته، وصار يُدندن بألحانه. أشعلتْ ليندا سيجارتها من سيجارتي، وقالت له "اروِ لنا"، وهكذا مثّل كارليتّو، غنّى ورقص. كان يفعل ذلك كله همساً. أتى بالحماقات جميعها، وكان يوحي بأنه لا يُجيد شيئاً، طَرَقَ بأصابعه، واستخدم لكلّ لحظة نبرة صوت جديدة. كانت ليندا تتضاحك مثل ديك. تجمهر العديد من الناس، ليشاهدوا العرض. لم يسبق لي أنْ شاهدتُ من قبلُ ممثّلاً يُشبهه.

كان كارليتّو يستعين بحدبته، كما لو أنّها حفرة المُلقِّن في المسرح. كان يؤدّي أصوات وأنغام الفرقة الموسيقية، ويُقلِّد أصوات النساء، ولم يتوقّف عن التدخين.

بعد قليل، صار يضحك هو الآخر ممّا يفعل "لن يفيدَ ذلك في أيّ شيء"، قال لليندا، "فقد انفرطتِ الفرقة".

"ما قدّمتَهُ أجمل من المسرح"، قلتُ له "لمْ أرَ في حياتي عرضاً مثل هذا".

"ألن تعرضوا المسرحية في تورينو؟"، سألتْه ليندا.

حينها ابتدأ كارليتّو بوابل من الشتائم وباللعنات على القدّيسين "إذا لم أعثر على لوبراني الليلة، صدِّقوني، سأنتحر في مياه (نهر البو).

كنّا على موعد مع لوبراني، لكنّي أدركتُ بأنّ ليندا لا ترغب في إعلامه بذلك. قال كارليتّو "لقد أوصلَ إليّ خبراً بأنّه سيأتي إلى هنا هذا المساء".

"أترغب في تناول العشاء معنا؟" سألتْه ليندا.

وهكذا تناولنا العشاء معاً. كان كارليتّو يُحدِّق في الاتّجاهات جميعها، وقال "في ما مضى كان هذا المكان بهيّاً"، نادى النادل "احملْ لنا شمعة".

ثمّ قال لي "أنا لا أعرفكم! مَنْ تكون؟ آه، أنتَ ذلك الذي يعزف الگيتار؟ ألم يحْتَلْ عليكَ لوبراني هذا بعد؟".

قلتُ له "أنا أعمل ميكانيكيّاً"، "أعزفُ بالمِفَكْ الإنجليزي فحسب".

كانت ليندا تضحك، وتُحدِّق فينا "لو أنكَ عزفتَ گيتاركَ، بدل إضاعة الوقت في المصنع، لصنعتَ لنفسكَ اسماً وشهرة".

قال كارليتّو "ليس صديقنا أبلهاً. آهِ، لو كان بمقدوري ممارسة المهنة التي يمارسها هو الآن!".

"عن أيّة شهرة تتحدّثين!"، قلتُ لليندا "يُعجبكَ أن تعزف لأصدقائكَ، ثمّ تطلب منهم أن يدفعوا المال مقابل ذلك!، أين هو الجميل في هذا العزف؟".

"حسناً تفعل"، قال كارليتّو عندئذٍ "حسناً تفعل".

امتلأ المقهى بالروّاد، ولم يبقَ إلّا وقت قصير على بداية برنامج مسرح المنوّعات. كان هناك رواح ومجيء متواصل للناس، حيّا أحدُهم كارليتّو، فنهض، وذهب إلى كاونتر البار.

قالت ليندا "لنخرج من هنا".

لم أكنْ راغباً في الخروج من (الماسكيرينو).

"لنذهب، وليتحاورا في الأعمال فيما بينهما"، أسرّتْ إلى النادل أمراً ما، وخرجنا.

صعدنا إلى مرقص (بارادايس) مشياً على الأقدام، "لوبراني سيأتي إنْ كان راغباً في ذلك"، قالت لي "أمّا نحن، فسنرقص".

ولم يمضِ منتصف السهرة حتّى وجدناهما، لوبراني وكارليتّو، ماثلَيْن أمامنا وهما في سلام ووئام، وكانت سعادة لوبراني طافية على قسمات وجهه. قال لي "كفاكما رقصاً، أنتما الاثنان"، "لنمارس جنوننا اليومي"، أمر بإحضار بعض الأطباق الباردة والنبيذ الأحمر، "هل تناولتُما العشاء؟"، سألَنا، وأضاف "تركتُماني أُقاسي تعذيب كارليتّو وحدي!".

توعّد كارليتّو ليندا بقبضة مضمومة. بَدَتْ حدبته ناتئةً، لأنّه خلع المعطف عن كتفَيْه، وكان لوبراني يطرق على تلك الحدبة بين الحين والآخر. أكلْنا، وغنّيْنا. أدّى كارليتّو عرضه ثانيةً. "پابلو، كان لا بدّ من گيتاركَ الآن!"، كان الجميع يُردّدون. وعلى حين غِرَّة، ودونما ترقّب، وجدْتُ لِيلِي جالسة معنا إلى المائدة. كنتُ أعرف مسبقاً كيف ستسير الأمور، لذا شربتُ كالأبله. أخبرتْني ليندا بأنّها سترحل في اليوم التالي، ولاحظتُ بأنّها تتسلّك مع كارليتّو كما تفعل معي. بقيتُ صامتاً، وتركتهم يمرحون كما يشاءون. كنتُ أشعر برغبة كبيرة بالبقاء بمفردي. نعم، كنتُ أشعر بالحاجة إلى ذلك.

لم أعدْ أعرف ما أقول أو أفعل. كنتُ نصف ثملٍ، وراقصتُ لِيلِي. راقصتُ ليندا. كان الوقت قد تأخّر، وصار النهار في بداية إشراقته. عندما توقّفت السّيّارة في ساحة (كاستيلّو) هممتُ بالتوجّه إلى ما تحت أقواس الساحة، وحين تيقّنوا بنيّتي، هتفوا جميعاً لإيقافي "پابلو".

في منزل لوبراني، استعدتُ سَكْرتي التي كنتُ فقدتُها. احتسينا شراباً، لا أعلم ما نوعه، وكان كارليتّو يرقص ويُغنّي ويتقافز. افترشنا الأرض، وأطفأنا الأنوار، لنبقى في العتمة. كان الضباب يلوح عبر النافذة، وكنّا نرى الثلج المتراكم فوق سطوح المنازل والعمارات. كان جميعهم يعلمون بأن ليندا على وشك السفر، فاختلقوا احتفالاً بهذه المناسبة.

سألتُ ليندا "ألن تعودي إلى البيت، لتنامي قليلاً؟".

"في هذه الساعة؟". جُلْنا في أرجاء المنزل بحثاً عن القهوة والبرتقال والشراب. ساد ضياءٌ رماديّ، لم يكن مُجدياً معه إنارة الأضواء في المنزل، لم نفعلْ ذلك، لأن وجوهنا كانت أشبه بوجوه الموتى، بيضاء كما الثلج. وأخيراً هدأ كارليتّو، وتوقّف، وجلس على إحدى الأرائك، وقال "سأرقد هنا".

"هل تنوي أن تتركَ لوبراني وحده مع الفتاتَيْن؟".

"لِيلِي تلك!، ليست سيّئة كما قد يبدو!".

طلع النهار، وكنت أشعر بنعاس ثقيل. أرادتْ لِيلِي الخروج. كان الكلاب بانتظارها، أمّا ليندا، فقد كانت في الحمّام ولوبراني يُعدّ القهوة.. طلبتُ من لِيلِي أن تُعجِّلَ بالخروج.

وعندما بقيتُ وحدي في تلك الغرفة، شعرتُ بأن ليندا ابتدأتْ رحلتها، وأنّ بإمكاني العودة إلى بيتي. سألتُها عبر باب الحمّام ما إذا كانت تريد الخروج معي، غضبتْ، وصرختْ "كفى"، شعرتُ بحرقة في حَنْجَرَتي، ونطقتُ بما دار في ذهني في تلك اللحظة. إحساس وحيد كان يُخامرني في تلك اللحظة: أنا وحيد، وليندا توشك على الرحيل.

خرجنا جميعاً في منتصف النهار. وعندما غادرْنا المقهى، قالت لي ليندا "تصرّفْ باتّزان"، وصافحتْني، "إلى اللقاء"، وتركتْني هناك برفقة لوبراني وكارليتّو.

وهكذا ابتدأتُ تلك الأيّام وحيداً. عرفتُ فقط بأنّ ليندا سافرتْ إلى ميلانو. أمضيتُ ثلاثة أيّام ما بين البيت والمصنع، لم يكن مُجدياً أن أحمل گيتاري معي، لأنّ ذهني كان منشغلاً بأمور أخرى وأنا أعزف. وحين كنتُ أتواجد في الدكّان، لم يكن ناظري ينفصل عن الباب، كنتُ أتخيّلها ستدخل في أيّة لحظة.

بحثتُ عن ميلو في المقهى، لأسافر معه، إلاّ أنّني لم أعثر عليه. وفي إحدى الأماسي ذهبتُ إلى المطعم مع مارتينو بالصدفة، فوجدت هناك لاريو وجيلدا، وكانا ينويان الذهاب إلى المرقص، وكان هناك بعض الأشخاص الذين لم يسبقْ لي التعرّف إليهم. تركتُ كل شيء، واستمعتُ إلى أحاديثهم. ذكرتْ جيلدا عن شابّ وشابّة ذهبا للجلوس على مصطبة في (فالتينيو)، وأطلقا رصاصَتَيْن في وقت واحد "ماتت الفتاة، فيما نجا هو من الموت"، فكّرتُ كم هو غريبٌ هذا العالم! ومرّة شربتُ نخبهم "في صحّتكم".

اليوم الرابع صادف الأحد، يوم مباريات الكرة "لا بأس، أن تحضر مباراة كرة قَدَم، شيء أفضل من لا شيء". أخبروني فيما بعد بأن المباراة كانت سيّئة المستوى. كان عليّ أن أحمل ورقة نوتات موسيقية إلى كارلاندريا ما بعد العشاء. فأدخلتْ فكرة الذهاب إلى (الماسكيرينو) البهجة في نفسي. ذهبتُ إلى هناك مطمئنّ البال. لم أعثرْ على أحد، فالجميع ما يزالون داخل المسرح. بعد بُرهة وصل كارليتّو.

"آه"، قال وهو يُدخِّن بضجر وغضب في آن.

"ما خطبكَ؟"، قلتُ له.

"لقد هرب النذلُ مُجدّداً".

نفث الدخان "لقد ذهب إلى ميلانو".

مكثتُ معه طيلة الأمسيّة. لا أعلم كم من المرّات سألتُه، ما إذا كان متأكّداً بأن لوبراني ذهب إلى ميلانو، ومتى. "أعتقد أنّه سافر في يوم لقائنا الأخير. أخبروني بذلك في بيته، كان لمَنْ ردّت عليّ في الهاتف صوت يُشبه تغريد عندليب". كان يلحد ويشتم، بسبب التأجيل الجديد للعرض "لا أحد يعلم شيئاً. يا لها من مهنة حقيرة. إنّها حكاية القطط".

سألتُه إنْ كان بعض من أفراد عائلته يُقيمون في تورينو.

"لقد فكّكتُ عائلتي، لأنّني صدّقتُ بما وعدني به".

"أنا لا أملك قرشاً واحداً"، قلتُ له.

"أستطيع أن أتدبّر أموري لبضعة أيّام".

"ومتى سيعود؟".

"أخبروني بأنّه سيعود بعد يومَيْن".

في اليوم التالي، التقينا منذ الصباح، أراد أن يعرف شيئاً ما عن لِيلِي. قال بأن لدى لوبراني القدرة على اكتشاف الفتيات واختيارهنّ، لكنه يعاني من داء النسيان. كان أيضاً يُجيد دفع تكلفة العشاء والتسامر مع الآخرين،

بالضبط كما لِيلِي، فهي صاحبة معشر. في ما مضى كان لوبراني أكثر جسارة وعنفاً، ولم تكن تمضي ليلة دون أن يكون قد قطّع حمّالة أثداء إحدى الفتيات.

"ومَن التي كانت تُعاشره عندما تعرَّفتَ عليه؟".

"كان يُعاشر كارلي، التي التهمت أمواله، لكنّها علّمتْه الأصول، وطوّرتْه. كانت كارلي، في تلك الأيّام، تُشبه ما عليه لِيلِي الآن، وكان لوبراني، القرويّ الأصول، يُحبّ القطط النظيفة، وكان محتالاً وفطناً بشكل كافٍ، بحيث أدرك في وقت لاحق بأن علاقاته مع النساء في المسرح لن تدوم طويلاً".

"حتّى تواصل بقاءَكَ في المسرح، لا بُدّ لكَ أن تتشبّثَ بالمسرح بأظافركَ وبأسنانكَ"، قال لي كارليتّو "فالأنشوطات المعقودة التي تُنصب لكَ متعدّدة، وإذا ما كانت الفتاة قطّة، فإن عليها أن تخدش بمخالبها. أبإمكانكَ أن تتصوَّر كيف تُفترَسُ الفتيات اللاتي يُشبهنَ لِيلِي هذه؟"

جُلنا طوال النهار في المدينة معاً، وراودتْني الرغبة في قضاء الليل بطوله برفقته، فأمامنا ليلتان علينا أن نمضيهما معاً. كان يُمطرني بالحديث عن لوبراني، إلاّ أنّ حالتي كانت تسوء لمُجرَّد البقاء بمفردي. ولم أكنْ لأنسى مُطلقاً ما يدور في خلدي عندما أكون بمفردي.

ومع اقتراب المساء، سألني كارليتّو "هل ثمّة ما يشغل بالكَ؟".

"لِمَ؟ هل يبدو عليّ بأنّني قلقٌ؟".

"أتعلم ما الذي سنفعل؟"، قال لي "اذهبْ، وأحضرْ گيتاركَ، ولنبحث عن مكان دافئ. الحياة واحدة، ولنشربها معاً".

"لا أشعر بالرغبة، لا في العزف ولا في الشرب"، قلتُ له.

"لكنْ، أنا، لديّ رغبة كبيرة في ذلك"، ردّ عليّ.

كان كارلآندريا يُحدِّق فينا وهو جالس في موقعه المعتاد، عندما رأى القنّينة تُوضَع على الطاولة، نفخ أنفه. ملأ كارليتّو كأسَيْنا، وطلب منّي سيجارة. أشعلتُ له السيجارة، وفي تلك اللحظة، تراءى لي منظر آميليو مستلقياً في فراشه.

"ثمّة مَنْ سيضحك هذه المرّة؟" قلتُ لكارليتّو بحدّة. لم أتمكّن من السيطرة على اندفاعاتي. فَغَرَ كارليتّو فاهُ، وأخرج دخان السيجارة بأناة. "أشعر بدوار في هذا المكان"، فكّرتُ "ليس بإمكاني الاحتمال أكثر من هذا"..

عندها قلتُ بهدوء أكبر "صبّ لذلك الشيخ شراباً. لم تمرّ إلاّ أيّام على آخر سكرةٍ لي. ما عاد بمقدوري المقاومة".

مكتبة أهد

قال كارليتّو "هل ترغب في الذهاب (فارابيتي)؟".

أسندتُ رأسي إلى ذراعي، كما لو كنتُ أشعر بالإنهاك. سمعتُ كارليتّو يتحدّث مع العجوز الذي اقترب من مائدتنا المرمرية. أغمضتُ عينَيّ.

عاد إلى خاطري ذلك الصباح الذي زرتُ فيه آميليو خلال وجودها معه، وهي تلفّ الإيشارب السماوي اللون حول عنقها. أذكر أنني هربتُ من المكان. صدمتْ خاصرتي خاصرتها في مطبخ المنزل. لم يكن لذلك كله أيّ تأويل في حينه، لأن الأحداث كانت ستقع في القادم من الأيّام. كان يوماً اعتيادياً مثل هذا اليوم. الآن فقط أُدرك السبب.

أمعنتُ التفكير منغلقاً على نفسي وأنا أستمع إلى كارليتّو يُلفِّق كذباته على العجوز، وسمعتُهما يقولان شيئاً عنّي، رفعتُ رأسي موحياً إليهما بأنّني أفقتُ من نومي.

بقيتُ طوال الليل بمفردي. كانت فكرة قضاء ليلة أخرى بمفردي تُفتِّت جرأتي، وتسلخها منّي. بين الفينة والأخرى، كنتُ أدمدم بشيء ما في الظلمة، أُعانق الوسادة، وأفوه بكلمات، أقول ما يدور في خاطري في تلك اللحظة، وما دار فيما سبق لمرّات عديدة.

في اليوم التالي، تجوّلتُ في المدينة دونما هدف، كان المساء يُعاند بالحلول. هطل الثلج بكثافة المطر. فكّرتُ: "مَنْ يدري ما إذا كان المطر يهطل في ميلانو أيضاً؟". كان عليّ الذهاب إلى (الماسكيرينو)، وكنتُ أترقّب بسرور بالغ اللقاء بكارليتّو أو أيّ شخص آخر هناك. كانت تُسعدني فكرة قضاء الليلة مع كارليتّو، ومع ذلك، أرجأتُ في لحظة الذهاب. بدا لي وكأنّني فقدتُ شيئاً ما، وبأن وحدتي باتت أقلّ وطأة من المساءات الأخرى.

قال كارليتّو "لقد عثرتُ على گيتار. في هذه المرّة، سنُقيم الاحتفال بأنفسنا". أخبرني بأنّ هناك ممثّلين يُزمعون على السفر إلى روما. وبأنّهم "سيحضرون إلى (الماسكيرينو) في منتصف الليل".

غمرني ذلك بإحساس إيجابي، وقلتُ له "لم أكن على ما يُرام ليلة أمس. ناولني هذا الگيتار"، إلاّ أنّه أخبرني بأن الأصدقاء القادمين في المساء سيُحضرونه معهم "، قلتُ له "وإذاً، فلنحتسِ الآن كأساً".

"حسناً تفعل بالإحجام عن استهلاك موهبتكَ في المسارح."، قال لي

ونحن نحتسي شرابنا "أنتَ أكثر موهبة من كثيرين. انظرْ إليّ مثلاً، فلكي أواجه مصاعب الحياة اضطُررتُ حتّى إلى الغناء".

إذّاك سألتُه عن سبب إحجامه عن العمل مع الآخرين. "أنتَ تعرف الحال"، قال "لقد احتالوا عليّ في المرّة السابقة. ربمّا تجهل ما عدد المكاتب والدوائر الرسمية التي ينبغي لكَ أن تراجع للحصول على رُخصة عمل، وإنّ أفضل ما في لوبراني أنّه يحصل على كل شيء في غمضة عين".

سألتُه بهدوء "ألا تستطيع ممارسة عمل آخر؟".

"المهنة لا تُبدَّلُ"، قال "قد تُغيِّرُ امرأتكَ، لكنْ، ليس من اليسير تبديل المهنة"، حدّقَ في الكأس، وأفرغ ما بداخله في جوفه.

"إنها مهنة نتنة"، عاود "أنت تُعجبني، لأنّك لا تمُارسها".

"لو كانت لديّ الموهبة في التمثيل، لمارستُها".

"لا، ليس ما تقول هو الحقيقة. أنا أعرفكَ الآن جيّداً"، قال لي "كنتُ مثلكَ في وقت مضى. أعرف أنّكَ تُفضّل العيش بمفردكَ، وباستقلاليّة".

لم يكنْ قد خطر ببالي بأنّ كارليتّو أكثر شيخوخة منّي، فقد بدا لي، برأسه الكبير وعينَيْه جليَّتَيْ الزرقة، كما لو أنّه صبيٌّ يافع. ومع ذلك، فقد كانت لديه امرأة في مكان ما، وقد علت حواشي فمه بعض انكماشات العمر، وكان دائم القهقهة.

"مساء أمس"، قلتُ له "شعرتُ بالرغبة في تغيير مهنتي. كنتُ ثابت العزم والتصميم".

حدَّقَ فيّ، وأطلق دخان السيجارة من فمه "أُدركُ ما تقول"، قال لي "كان وضعكَ في ما مضى أفضل ممّا هو عليه الآن".

وصل أصدقاؤه ونحن لمّا نزَل هناك. وصلوا عندما أُنيرت الثريّا الكبيرة في وسط سقف المقهى، وبدأت الفرقة الموسيقية بالعزف. أُناس طيّبون - لوتشانو، فابريتسيو وجوليانيلا - خفّفَ حضور هؤلاء الرومانيِّيْن من ثِقلِ وحدتي. بدوا لي مختلفين تماماً، وشعرتُ بدفء اللقاء معهم. انزويتُ أراقبهم وهم يتناولون عشاءهم. أعطونا الصالة الصغيرة، وسرعان ما اتّفقنا على گيتار واحد.

طلع الفجر وأنا أواصل العزف.

١٠

كنتُ أشعر بلذّة كبيرة وأنا أشاهد طلوع الفجر بينما أعزف الگيتار. شيء ما في داخلي كان يتوقّف كلّما كففتُ عن العزف. لم يعد الرجوع إلى الوراء ممكناً.

كنتُ أترقّب من ليندا أن تسألني لمُجرَّد بقائنا بمفردنا "ماذا بكَ؟".

لقد كَذَبنا على بعضنا كثيراً، وسكتْنا عن أشياء أُخرى كثيرة. في هذه المرّة أيضاً أجبتُها بأنّ "لا شيء هناك" يشغلني.

قالت "أنتَ مجنون". جلستْ على حافّة السرير، وخلعتْ قبّعتها. "قبِّلْني"، قالت لي. قبّلتُها على خدّها، وأمسكنا بيدَيْ بعضنا. بدا لي وكأنّني أقبِّل نبتةً جافّة، فتحتْ عينَيْها، ونظرت إليّ. كنتُ واثقاً بأنّها ستوافق على ممارسة الحبّ عن رغبة هذه المرّة أيضاً. كانت هي ليندا ذاتها، بإيشاربها السماوي اللون. نظرتْ إليّ خائبة الأمل وسعيدة في آن.

"أنا مرهقةٌ"، قالت لي "أريد الاستلقاء في الفراش"، دخلتْ فراشها. نهضتُ. وتجوّلتُ في الغرفة. "أرغب في سيجارة"، قالت. ودون أن أفوه بشيء، أشعلتُ سيجارَتَيْن، وناولتُها واحدة منهما.

"أتعرف؟"، قالت "لهذا الوضع أيضاً جماله الخاصّ. أن يكون بإمكاننا

البقاء كأصدقاء على الدوام، حتّى عندما يحدث بأن أحدَنا مُرهق، ولا رغبة لديه في التقبيل. أن يكون بإمكاننا الحديث أو البقاء صامتَيْن دونما كلام، وأن يُعين أحدُنا الآخرَ، هكذا".

كنتُ أُحدِّق فيها، لكنّي لم أُجبْ على ما تقول.

"ماذا بكَ؟ أتنتابكَ الرغبة في الانقضاض عليّ، مثلاً؟"، قالت "أتعرف، ربمّا سأتزوّج؟ أوَلا تسألني عن اسم الرجل الذي سأتزوّج؟".

لا أعلم لماذا أحجمتُ عن الصراخ بوجهها، وودتُ أن أكون خارج ذلك المكان في تلك اللحظة. بينما كانت ليندا تتكلّم فكّرتُ في اللحظة التي سبقتْ دخولي إلى مقهى (الماسكيرينو) أمس، وبمقدار سعادتي هناك، ولو للحظات.

"قلبي يخفق"، قالت ليندا "لأنّني أشعر بمعاناتكَ. تحسّسْ قلبي، وتلمّسْ دقّاته"، وأخذتْ يدي، ووضعتْها فوق صدرها. لمستُ الدفء الذي أعرفه بينما كانت أصابعي تضغط على جلدها. ثمّ ازددتُ ضغطاً، فصرختْ. ضحكتْ "لا تفوهُ بشيء، لكنّكَ تُعاملني بقسوة"، همستْ في أُذني: "أنا لستُ گيتاركَ".

عندما هبطتُ درجات السُّلّم كان الليل قد حلّ. فكّرتُ أن بإمكاني أن أخلد إلى النوم. قطعتُ الطريق بالترام مسنداً رأسي إلى زجاج النافذة. كنتُ أُغلق عينَيّ، وأُهدّئ من روعي، وذهني يرتكز على الصباحات التي كنتُ أعود خلالها إلى المنزل مع أولى بشائر الصبح.

في اليوم التالي، التقيتُ ميلو، واتّفقنا على السفر إلى جنوة. كانت

الشاحنة تسحب وراءها قاطرة أخرى، وكانت الرحلة محفوفة بالمخاطر. أعرب الميكانيكي عن سعادته بالبقاء في تورينو، والتنازل لي عن نصف أجرته. كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي أستطيع أن أُقيم بها أودي. كنتُ سعيداً.

كان لميلو فتاة في جنوة، وقد زارها. بقيتُ وحيداً أجول في الشوارع حتّى حلول الليل. كانت الريح تهبّ باردة تُشقِّق الشَّفَتَيْن. الآن، نعم، أشمّ عبق البحر، وهو يُشبه عبق جبال تورينو عند شروق الشمس بعد نزول الثلج. كنتُ ألتهم ذلك العبق، كما لو أنّني كلب، وأبحث عن الشُرفة التي وقفتُ فيها برفقة ليندا في المرّة السابقة، وعن المطعم الذي تناولْنا فيه الغداء آنذاك. كانت ليندا تختزن البحر تحت بشرتها كما الدم، لكنّي رأيتُ البحر في ذلك اليوم من شُرفة أخرى.

خلال رحلة العودة، شغلتْني فكرة الرجوع إلى تورينو كثيراً. حاولتُ الخلود إلى النوم واضعاً رأسي على المسند الوسطي. بدا لي وكأنّني أحيا في لُجّة خطر مُحدق، شيءٌ ما قد تقرّر وانتهى. "لقد حدث كل شيء"، فكّرتُ "وها أنذا هنا". قال لي ميلو "عندما تضغط على البنزين خلال تغيير السرعة، حاول أن تفعل ذلك بهدوء، وإلاّ فإنّكَ ستُعطِّلُ المحرّك، ونمكث في منتصف الطريق"، وبدأ بالكلام عن فتاته في جنوة.

أمضيتُ عدّة أيّام على هذا المنوال ما بين المقصف والشاحنة. كنتُ أشرب، أسير وأنام، وأعود إلى البيت للتزوّد بالسجائر فحسب. سألتْني أمّي "ألا تستبدل ثيابكَ؟"، "أنا ذاهب إلى (بييلا)"، قلتُ لها "وهناك لا يعرفني أيّ كان". كنتُ قد ارتديتُ بلوزة فوق بدلة العمل. علمتُ بأنّ آميليو قد انتقل من بيته السابق منذ فترة طويلة. كانا، هو وأمّه، قد استأجرا

بيتاً في الطابق الأرضي. "أيحدث ذلك الآن بالتحديد، بعد أن انتهى كل شيء"، فكّرتُ. لكنّي سُعدتُ بمعرفة عنوان سَكَنه. فكّرتُ بليندا التي تعرف مكاني، وكانت تمرّ بالمقهى في المساءات كلها.

في إحدى الأماسي، فكّرتُ بلقاء كارليتّو. مررتُ من أمام المقهى الذي يجلس فيه لوبراني وليندا في العادة، ومررتُ من أمام واجهة محلّ للخياطة. في المرّة الأخيرة التي مررتُ فيها تحت أقواس الساحة، كانت ليندا ما تزال معي. رفعتُ رأسي، ونظرتُ إلى برج (ليتّوريا). تذكّرتُ الصباحات التي كنتُ أغادر فيها غرفة ليندا، وأخرج من البوّابة، وأرى البرج عبر الساحة. ربمّا ستفكّر هي الأخرى بالشيء ذاته حين تمرّ من هذا المكان.

لم أعثرْ في (الماسكيرنو) على أحدٍ ممّنْ أعرفهم. لم أجد إلا العجوز كارلاآندريا والفتيات. لم يُعطني النادل أيّة معلومة. عندها توجّهتُ إلى المسرح. كنتُ أسير بلا هدف، وبدأ اليأس يتآكلني. نظرتُ دونما رغبة إلى صور الفتيات المعلّقة في لوحة الإعلانات - كم مرّة شاهدتُ تلك الصور وأنا مارٌّ من أمام اللوحة – وها هي صورة كارليتّو ببدلته السوداء، أنيقاً منحنياً إلى الأمام. كان مبتسماً "لقد تمكّن أخيراً، وحقّق ما أراد"، فكّرتُ "هذا أفضل من لا شيء"، لكنّي لمستُ بأنه فَقَدَ شيئاً ما، وآلمني ذلك الإحساس، فهو أيضاً يعمل تحت إمرة ذلك الوغد.

مكثتُ أمام باب المسرح قليلاً دون أن آتي بأيّ شيء. فكّرتُ بأنني سأسير في الطُّرُقات، وأُحادث نفسي. كان دمي يغلي وكأن فيه قطّة تتقافز وتخدشني مخالبها. استفسرتُ من بائعة التذاكر عن الوقت الذي ينتهي فيه العرض. "هذه أيضاً تعمل تحت إمرته"، فكّرتُ "ألا تكفيه أجساد الراقصات؟". أخبرتْني بائعة التذاكر أنّ بإمكاني انتظارهم أمام المسرح، لأنهم سيخرجون من باب الدخول.

دخلتُ إلى (الماسكيرينو)، وجلست إلى واجهة زجاجية غامقة اللون. الانتظار أيضاً بمثابة عملٍ ما. ولأُهدِّئ ما في داخلي، طلبتُ كأساً من النبيذ. مرّ أناس قليلون أمام بوّابة المسرح. وفجأة رأيتُ في الضياء كارليتّو برفقة آخرين. توقّفوا ليتحادثوا، ثمّ ظهرتْ ليندا ولوبراني. عبر الجميعُ الشارعَ إلى الطرف الآخر.

أُضاءوا أنوار الواجهة، ورأتني ليندا قبل الجميع، وهمستْ في أذن كارليتّو شيئاً ما، وأومأتْ بيدها صوبي دون أن تتحرّكَ من مكانها.

كنتُ مُزمعاً على الانصراف عندما قطع كارليتّو عليّ الطريق، "السيّدات في انتظاركَ"، قال لي. كان يرتدي سترته السوداء، وشعره أشعث، وفي فوضى كبيرة.

"مَنْ ذا الذي أرى!"، قلتُ له "هل وقّعتَ اتّفاقية سلام مع المالك؟".

"أنتَ تعرف سلوكَه"، أجابني "ألا تأتي معنا؟".

أجلستُه، وقدّمتُ له النبيذ، "متى نحتفل معاً؟ لديّ گيتار، لم يعزف منذ شهور".

"آه، كارليتّو، يا كارليتّو. يكفي القليل لتهدئة ثوراتكَ. كيف هذا؟ ألم تعدْ تحلم بالقطط؟".

لحظتَها وصلتْ ليندا، وسألتْني لماذا أُمسك بكارليتّو.

"أنا لا أُمسك بأحد".

"هل بإمكاني الجلوس إلى طاولتكما؟".

عزفت الفرقة الموسيقية، فنهضتْ، وقالت لي "ترقص؟".

كانت تحاول في أثناء الرقصة استثارتي في الحديث، "ما بكَ؟" قالتْ "أنا انتظرتُكَ مرّات كثيرة في الأيّام الماضية. أنتَ لم تُحبّني أبداً. هذا هو كلّ ما في الأمر".

قلتُ لها كلّ شيء، كلّ ما خطر في ذهني، وهي استمعتْ إليّ. "پابلو"، قالت "أتريد أن نخرج بمفردنا؟".

ما أكثر الأشياء التي قالتْها ونحن متعانقان هناك في الطابق العلوي.

"لقد عاملتَني كما لو كنتُ عبدةً لكَ"، قالتْ "انتظرتُكَ طويلاً. أنا، كنتُ أرغب في الحديث معكَ".

"كنتُ أجول في المدينة ليلاً ونهاراً، وأسعى إلى نسيانكِ".

"لكنْ، أرأيتِ، بأنه كان مسعى غير ذي جدوى"، قالت "أنتَ هنا الآن".

"سأغيبُ مرّة أخرى".

"شرّيرٌ أنتَ، وقاسٍ"، قالت "ليس عدلاً أن تقول ذلك".

"اصمتي"، كنتُ أقول لها "اصمتي".

"تجتاحكَ الشهوات تجاهي، لكنّكَ لستَ صديقي".

"ألا تشعرين بالراحة عندما نكون بمفردنا هنا؟" قلتُ لها "أُريدكِ أنتِ وحدكِ، ولا رغبة لي برؤية الآخرين".

"لنرَ ما إذا كنتُ ترغب في ذلك حقّاً"، همستْ في أُذني وهي

تضحك. ثمّ طلبتُ منها للمرّة الأخيرة ما إذا كانت ترغب في العيش معي. "سأُسامحكِ"، قلتُ لها "أقبل بكِ كما أنتِ، لنبدأ من هذه الليلة".

أجابتْني في الظلمة بأنها ترغب في دخول هذه التجربة.

في الصباح التالي، نزلنا معاً إلى المقهى. وبينما كنتُ أحتسي كوب القهوة مع الحليب حدَّقتْ فيّ، وسألتني "پابلو، هل ستعود هذا المساء؟".

"لن أفارقكِ طوال النهار".

"هذا مستحيلٌ، يا پابلو، عليّ أن أصعد للعمل. فما الذي ستفعله أنتَ طوال النهار؟".

في المساء، ذهبنا إلى (بارادايس)، وعادت الأمور إلى سابق عهدها، كما في البداية. "في بعض الأيّام"، قالتْ لي "أشعر باستحالة طريقة تفكيركَ. أنتَ لا تستوعب بأنّنا مختلفان عن بعضنا، وبأنّ كلّ ما أفعله يعنيني أنا بمفردي. أليس لديكَ أصدقاء؟".

"تركتُهم جميعاً".

"فعلتَ معهم، كما فعلتَ معي. لكن ذلك لا يُجدي، فالأمور مختلفة باختلاف الأشخاص، ولكلّ شيء جماله، وهو قائمٌ بحدّ ذاته".

أحسستُ، خلال حديثها، بالوحدة. انتبهتُ إلى ذلك، وساورني شعور بالسعادة. أن أعرف بأن بإمكاني النهوض من الفراش الذي استلقيتُ فيه بجوارها، وأن أهبطَ سلّم العمارة؛ وأجول قاطعاً تورينو، وأن أنام بمفردي.

كنتُ أعرف جيّداً بأن ذلك كله سيُولِّد لديّ صدمة شبيهة بارتشاف شراب حادّ، لكن ذلك الأمر ما عاد مهمّاً. قلتُ لها بهدوء "أنتِ على حقّ، فأنتِ جُبلتِ على هذا المنوال"، أمسكتْ ليندا بيدي.

أمضينا الليلة معاً، كنتُ على اتّفاق مع ميلو للسفر برفقته. وكانت فكرة أن ليندا ستترقّب عودتي إلى تورينو، أحلى بكثير من النوم معها. هكذا كانت حياة آميليو إذاً، وأنا سعيدٌ الآن بينما أعبر الساحة التي يُغلِّفها الظلام.

التقينا أنا وكارليتّو في بعض الأمسيّات. كنّا نتناول العشاء في (الماسكيرينو) كالمعتاد، ودون أيّما اتّفاق كنّا نُبكِّر بالخروج، كي لا نُعيد سهرات الفترات السابقة. لم يكن كارليتّو عائقاً أبداً. كان يبتسم على مرأى وصولنا، وينهض ليقدّم الكرسي إلى ليندا. كان يحضر إلى مرقص (بارادايس) باحثاً عن لِيلي.

وفي أمسيّة، قال لنا "غداً سيعود برج ليتّوريا(*)".

كنتُ أجهل بأن لوبراني كان مسافراً. رأيتُ وجه ليندا يتلوّن بالحُمرة، وتتجعّد بشرتها ما تحت العينَيْن.

"ها هو وجهها يحمرّ"، فكّرتُ، ولم أرها أبداً حين يحمرّ وجهها.

فهمتُ في الحال بأن لوبراني سافر خارج المدينة في الأيّام التي عادت فيها ليندا معي.

قالت له ليندا "وما الذي تعنيه بذلك؟".

---

*) إشارة إلى لوبراني الذي كان يسكن قرب برج (ليتّوريا).

"أعني"، قال كارليتّو "بأن مسرّات شخص ما توشك على الانتهاء".

عندها رأيتُ لِيلِي تُمسك ذراعه، وتقول "كفَّ عن هذا". لكنّه صار أكثر قسوة. كان حانقاً على ليندا بالذات "سلوكِ مع الآخرين يُغيظني"، قال "وما يُثير حنقي هو أنكِ تعثرين حتّى الآن على مَنْ يثق بكلامكِ. أنتِ تعرفين جيّداً ما أنتِ عليه، لكنّكِ تصمتين. أنتنّ جميعاً مصنوعات من الطينة ذاتها. حتّى هذه، حتّى أنتِ، تاريخكنّ لم يُشيّد على خشبة المسرح".

وبينما كانت لِيلِي تشعر بأسى كبير، لم تنبس ليندا ببنت شفة. كانت تُحدِّق فيه خلال حديثه، تنظر بهدوء وهي تبتسم. ثمّ أخذت كأسه فيما كانت تُحدِّق في عينَيْه، رشفت منه قطرة، وأعادتْه إليه، انحنى لها كارليتّو، وانفجرا في ضحكة صادحة.

توقّفنا عند البوّابة. "وإذاً، سيعود غداً؟"، سألتُها .

نظرتْ إليّ بعجالة، وقالت "مَنْ يدري؟!".

"سنلتقي مساء غد؟".

"بالتأكيد".

كنتُ سعيداً بعودتي إلى المنزل. في اليوم التالي، عزفتُ طوال النهار. درستُ، وتدرّبتُ برغبة كبيرة، وكنتُ في غاية الارتياح داخل غرفتي. شممتُ من المدفأة رائحة الحساء. وفي منتصف النهار، مرّ ميكانيكي ميلو، واشترى سيغارات (توسكاني)، وحدّثني في السياسة.

"إنّ أحاديث آميليو" فكّرتُ "تفرضها المهنة التي يزاولها البشر".

كان الميكانيكي حانقاً على مَنْ يلتهمون أموال الشعب، ويسعون إلى وأد أيّة معارضة "لكن النار سرت في الهشيم، والتهمت كل شيء"، قال "لقد بدؤوا يشعرون بذلك في إسبانيا. ولا أدري ما إذا كان واضحاً لديكَ ما أرمي إليه بكلامي"، قلتُ له "الفاشيّون وحدهم هم مَنْ يلتهمون؟". "المطبخ فاشيّ، يا صديقي"، قال "لا حاجة إلى ارتداء القميص الأسود"(*).

*) القمصان السود، رمز الحزب الفاشي بزعامة الديكتاتور بينيتو موسّوليني

١١

الآن أعرف مَنْ هي ليندا بالفعل. كفاني أن أفكّر بلِيلِي حتّى أستوعب شخصية ليندا. لِيلِي التي كانت تُرافق الجميع، وتتوافق معهم، ويرتكز تفكيرها على أحذية الرقص فحسب، وما أسهل امتلاكها، إذا ما رغبتَ فيها. كانت مثل دمية تتلاعبها أيادي الجميع دون أن تروقَ لأحدهم، أو أنْ تتسلّل إلى قلب أيّ منهم.

ودونما أيّ امتنان تجاهي، عادت ليندا مع لوبراني، تركتْ لي رسالة في (الماسكيرينو) تقول فيها بأن عليها أن تعمل. ذهبتُ في المساء إلى بوّابة بيتها، بحثتُ عنها دون أن أتمكّن من العثور عليها. في اليوم التالي، بحثت عنها في آتلييه الخياطة. تضاحكت الفتيات. انزوتْ معي في صالة جانبية.

"لديّ ما يكفيني من المتاعب".، قالت، وغادرتِ الصالة. ثمّ عادتْ مُجدّداً "ألا تستوعب بأن هذا مكان عمل؟"، قالت لي وتركتْني أُمسك يدها. مكثتُ لحظة.

"نلتقي هذا المساء، إنْ استطعتِ".

في ذلك المساء، سافرتُ مع ميلو إلى (مونكالييري). حملتُ معي الگيتار، وانغلقنا في مقصفٍ شعبي. "الليلة لا نُريد الفتيات"، قلتُ لميلو "ولا أريد الشراب". في منتصف الليل طَرَقَ أُناس على زجاج النافذة.

كانوا يرغبون في الاستماع إلى عزف الگيتار. "احرس الباب"، قلتُ لميلو. "لستَ أحدباً أو مُقعَداً"، سألني "لماذا؟". "فقط احرس الباب". كنتُ ثملاً. عندها طلب منّي ميلو الانتظار، نظر خارجاً. ذهب وعاد بعد نصف ساعة، فيما أنا كنتُ أحادث نفسي.

"أنا مثل آميليو بالضبط"، كنتُ أُردّد "تركتْني، واحتالتْ عليّ، بالضبط كما فعلتْ مع آميليو".

قال ميلو "هناك فتاة شقراء تسأل عنكَ". رافقني إلى غابة، تغطّت أرضها بالأوراق الجافّة. كانت الشقراء تتنظر مُسندة ظهرها إلى شجرة. كدتُ أتزحلق فوق الأوراق المتساقطة، فقالت لي "حافظْ على توازنكَ". لم يكن الطقس بارداً جداً، فاستندتُ إلى جذع الشجرة . هتف ميلو بالفتاة "عامليه بلطف كبير".

فعلت الشقراء كل شيء بنفسها، وربطتْ حزام معطفي عندما دفعني ميلو على متن الحافلة. كنتُ صامتاً. "غداً سنرحل"، قال لي "وعليكَ قيادة الشاحنة". استمرّت سَكْرتي تلك شهراً كاملاً. مثل آميليو، كنتُ أُفكّر "لقد احتالتْ عليّ، كما احتالت على آميليو". كنتُ أظنّ بأنني سأشرب وأثمل حتّى يتغيّر دمي، وشعرتُ بالحاجة إلى البكاء عندما فكّرتُ بأن سَكْرتي الحالية ستقودني إلى سَكْرة أخرى لاحقة.

نصحني ميلو بالتعقّل، لكنّ أيّامي كانت تطول، ويُرهقني السُّكْر المتواصل. "نحن الآن في شهر مارس"، قال لي "وهو شهر يزيد من الرغبة في العمل. ما الذي يدور في رأسكَ؟". لم أُجبْ على تساؤلاته. كنتُ أصمتُ، وأتبعة زامّاً شَفَتَيّ.

في ذلك الشهر، سافرنا إلى (بييلا) و(نوفارا)، وعدنا إلى (كاسالي). لا أذكر ما الذي فعلتُ في تلك الأيّام، أتذكّر فقط عودتي إلى المنزل في الصباح، أو الرُّقاد في المقهى، وبأنّني كنتُ أجول على متن الشاحنة. مرّة قفزتُ من الشاحنة وهي ما تزال تتحرّك، وسقطتُ على إسفلت الشارع بعد ارتطامي بإحدى إطاراتها، وبدا لي وكأنّني قد متُّ. كانت الضربة مثل لكمة ما بين العينَيْن، وللحظة اعتقدتُ بالفعل بأنّني ميّت.

كان ميلو يُحدِّق بي. حدَّقتُ فيه بنظرة بلهاء، وقلتُ له سعيداً "لستُ ثملاً. أنا بخير".

أذكر أنّني كنتُ في تلك الفترة ألتهم الطعام كذئب جائع. كنتُ آكل في البيت، على متن الشاحنة. في كاسالي ونوفارا. كان بمقدوري كَظْم الألم بتلك الطريقة فحسب، لكنّ دمي كان يزداد غلياناً بكثرة ما كنتُ ألتهم من الطعام. كان ميلو يُلحّ عليّ بأن أؤدّي امتحان رُخصة السياقة، لأُصبح سائق شاحنة. كنتُ أتقاضى القليل ممّا يسدّ حاجتي. هربتُ من العمل في المصنع. كنتُ عاجزاً عن الصمود في عمل واحد. كنتُ أقامر بالورق ليلياً في مقهى سُوّاق الشاحنات، وإذا لم تنتهِ الليلة بعزف الگيتار، فقد كانت تنتهي بالقمار. قامرتُ بحدّة، خسرتُ بعض الأموال. لكنْ، حتّى تكون مقامراً حقيقيّاً، لا بدّ لكَ أن تكون شغوفاً بالقمار. كنتُ أتصرّف بهدوء، لكنّ ذهني كان منشغلاً بشيء مغاير. انتقدني ميلو قائلاً "إنّ لديكَ خصلة سيّئة، يا صديقي، فأنتَ لا تُنهي أبداً ما تُباشر به".

إلاّ أنّ بعض الأمور تحدث دون أن يُخطِّط لها أحدٌ. لم يكنْ كارليتّو قد رحل عن تورينو. في أمسيّة من مارس، سمعتُ مَنْ يناديني في الشارع. لم يكن يرتدي معطفه. "بِعْتُ المعطف"، قال لي "أنا على الحديدة من جديد. وأنتَ، لماذا تجاهلتْني؟".

واصلنا الطريق معاً، وبلغنا (الماسكيرينو)، وعندما أدرك بأنّني أرغب في مواصلة السير دون تغيير مساري، قال لي بطريقته المعهودة "اطمئنّ، ما عاد أيٌّ منهما يأتي إلى هنا، منذ زمن طويل.

دخلْنا "هل كنتَ ترقد في المستشفى؟".

"ليتَ ذلك حدث بالفعل"، قال "لكن المستشفيات لا تقبل أناساً يلتهمون الطعام فجسب".

فكّرتُ في داخلي "تُرى مَنْ منّا، نحن الاثنَيْن، أسوأ حالاً من الآخر؟"، ناولتُه سيجارة، وكانت قسمات وجهه تثير هواجسي.

"هل فعلاً لم تلتقِ أحداً منهما أبداً؟"، سألَني.

"أبداً".

طلبتُ من النادل أن يُعدّ له بيضاً مقلياً بالزبدة، ودفعتُ ثمن الصحن. "وأنتَ، ألا تأكل؟"، سألَني "في الماضي، كنتَ تأكل!".

شعرتُ في تلك الليلة بسعادة وفرح غامرَيْن. كان كارليتّو قد أنار لي الطريق. تناولتُ العشاء برفقته، وطلبتُ له الشراب. "أنا سعيد، لأنّ لوبراني احتال عليكَ أيضاً"، قلتُ له.

"أتعلم بأن دورينا بانتظاري في روما"، قال لي "هناك، في روما لا يموتُ أحدٌ بسبب الجوع".

"أأنتَ متأكّدٌ من أنّها بانتظارك؟".

"ليس بمقدور أحد الجزم بالمطلق"، قالها وهو يضحك "مَنْ يدري؟".

التقيتُ كارليتّو مرّات أخرى بعد تلك السهرة. كان ينام في إحدى غرف المسرح الصغيرة برفقة الحارس الليلي. "لوبراني هو مَنْ وفّر لي السَّكَنَ"، قال لي "فيما بخلتْ لِيلِي عليّ بذلك".

"هل التقيتَها بعد ذلك؟".

"لقد بعتُ معطفي".

كنتُ أفرغ ما في داخلي من حنقٍ، وأُرفِّهُ عن نفسي بتحمّل مصاريفه. كنّا نذهب لتناول العشاء، وأدفع فاتورة الحساب. بدا لي وكأن لي فتاة، أتحمّل أعباءها.

"بالقروش الأولى التي ستتقاضاها"، كنتُ أقول له "اقفزْ على متن القطار، واذهبْ إلى روما. رحيلكَ يؤسفني، لكنْ، لا بأس".

"إذا ما عُدتُ من روما، سأردّ لكَ كل ما دفعتَ عنّي"،

"أحمق، مَن الذي تحدَّث عن الدفع؟".

يوماً ما بحث عنّي في دكّان العائلة. حدجتْه أختي كارلوتّينا كما لو أنها رأت في حضوره فألاً سيّئاً، وألقتْ عليه نظرات قاسية. بادرها بالقول "مَنْ يدري ما الذي سيحدث لو غنّينا، أنتِ وأنا معاً؟". طلب الگيتار، وجرّبه "لنقمْ بجولة، نُغنّي أنتِ وأنا، وپابلو يعزف الگيتار. نتجوّل في الساحات، تمدّين أنت قبّعتكِ لجَمْع القروش". أزعج كارلوتّينا لبُرهة، فدمدمتْ، وأوشكتْ على أن تصرخ بوجهه "أيّها الأحدب القبيح..."، عندها أخذتُ الگيتار بيدي، وسحبتُه من يده، وخرجنا من الدكّان.

عثر كارليتّو في تلك الفترة على صالة سينما بعيدة نوعاً ما، وغنّى

فيها "أفهم شيئاً ما من الغناء"، قال لي "إنّه يشبه المسرح بشكلٍ من الأشكال"، كانت الحدبة تُفيده أكثر من الصوت. كان يُؤدّي مُغنّاة، تروي حكاية يهوديّ، يحبل في ظهره، بدلاً من الحمل بالبطن، كما النساء، وكانت حدبة الحمل هذه تنمو وتكبر في ظهره بشكلٍ تدريجيّ أمام أعين الجمهور، فتدخل فتاتان تغرسان في الحدبة ناراً بثلاثة ألوان، كألوان العَلَم الإيطالي، وتهزجان بأغنيّة "أُخرج من إيطاليا!"، وترفسانه فيما يغرق الجمهورُ بالضحك.

غنّى في تلك الصالة لبضعة أماسٍ، وتقاضى عشرين ليرة، وبعد ذلك، طردوه بالفعل. ولكي أزرعَ فيه الشجاعة، قلتُ له "هيّا بنا، لنُغنِّ معاً في باحات البيوت، وفي أسوأ الاحتمالات، فإنّ النساء سيَصُبنَّ الماء فوق رؤوسنا".

"إذا تعلّق الأمر بي، فأنا قادرٌ على ذلك"، قال "آمل ألاّ تتصوّر العكس".

حملنا الگيتار، وغنّينا ألحاناً خفيفة في باحات البيوت، وحذرنا أن نكون بعيدين عن مرمى أواني مياه السّيّدات. فعلتُ ذلك للتجربة فحسب. كان العمل مع ميلو على الشاحنة يوفّر لي مورداً معقولاً، لكنّي كنتُ أرغب في مساعدة كارليتّو. وكان الانحدار إلى هذا الدرك يُساعدني على تفريغ ما في داخلي من غضب. انتابتْني مشاعر مَنْ لم يستسلم إلى الضغط الواقع عليه، ولم يتنازلْ أو يساوم.

تجوّلْنا طيلة الصباح بعد أن تركنا باحات العمارات، وغنّينا في الشارع. لم يحدثْ أيّ شيء، إلاّ أنّني شعرتُ بتهدّج في صوت كارليتّو . رافقتُه وكنتُ أُحاذر عدم إثارة غضبة بوّابي العمارات، لم أتمكّن من جمع ما كانت خادمات المنازل يرمينَ إلينا من قروش قليلة. شعرتُ وكأنني صرتُ كَمَنْ

يجمع أعقاب السجائر من الشارع، واندهشتُ لهطول قِطَع النقود علينا. قلتُ لكارليتّو "هذه نقودكَ، وعليكَ أن تجمعَها من الأرض". لكنّ كلّ ما جمع من الأرض لم يتجاوز الليرَتَيْن.

في تلك الأيّام، تركت ميلو، ورافقت كارليتّو، رفقتُهُ خفَّفتْ عن كاهلي وطأة اليوم ومشاغله. لم أتحدَّث عن ليندا أبداً، كفاني أن يُدرك كارليتّو ذلك. لم أُطقْ في تلك الأيّام التحديق في وجه أيّة امرأة، وكنتُ أشعر بدوار في رأسي، وبإرهاق كبير في داخلي. في الصباحات المنعشة، وفي الأماسي جالسين على العشب - مَنْ يدري كيف هو البحر الآن؟ - كنتُ أُفكّر بليندا، وبمقدرتها على العودة إليّ في اللحظة التي ترغب بذلك، إلاّ أن ذلك التفكير كان يُثير أيضاً الشفقة عليها في داخلي. لَكَمْ من المرّات تركتُها، ومن ثمّ، عُدتُ إليها! ربمّا كانت هي مَنْ يعاني أكثر من الآخرين إلاّ أنّها واصلت إظهار المرح لإدراكها العميق بتلك المعاناة.

ولربمّا أدرك آميليو أيضاً ما أشعر به أنا الآن، ولذا فقد بدا كلّ شيءٍ وكأنّه كان مُقدَّراً ومُحدَّداً منذ اليوم الذي جاءتْ تسأل عنّي دكّان العائلة، ونادتْني باسمي، پابلو. أشعر الآن بخدش في داخلي، لأنّني تحوّلتُ إلى ألعوبة في يدها.

"أنتَ، يا كارليتّو"، قلتُ له "هل حدث معكَ أنّ واجهت أمراً حدَّده لكَ آخرون حتّى قبل المباشره بذلك الفعل؟".

تحاورنا حول ذلك لوقت طويل نسبياً. قال لي بأن هذا الوضع يخصّ الجميع. فهناك دائماً مَنْ يقطع عليكَ الطريق، ويحول دون أن تتواصل في الحديث مع مَنْ ترغب في محادثته.

مكتبة أهد

"لكن الأجمل من هذا كلّه، هو أن تُفصِحَ عمّا في داخلكَ، وما تفكّر فيه".

"ذلك بديهي"، قال "لكنْ، لدى الكثيرين مصلحة في توجيه الأوامر إلى الناس والإصرار على قيادة مسارهم".

"ليس هذا ما وددتُ قوله. أعني ما كنتَ أنتَ راغباً بالقيام به، كالكأس التي تحتسي ما فيها، السيجارة التي تُدخّنها، والفتاة التي تُقابلها".

"هناك أُناس لهم مصالح حتّى فيما تشرب وتُدخّن".

"وماذا عن الفتيات؟".

"السّيّد المالك هو الذي يُقرّ ذلك. إذا كنتَ عاطلاً عن العمل وعاجزاً عن توفير المال، فعلى الفتيات السلام!".

لم أعدْ قادراً على الإفصاح بما يعتلج في داخلي. انتظر كارليتّو مترقّباً رداً منّي، وعيناه تزوغان كعينَيْ هِرّ. ما دار في خلدي في تلك اللحظة كان مُغايراً لكل ما تحدَّثْنا عنه.

"انظرْ إلى ما جاروا به على إيطاليا!"، قال لي "هل تعتقد أنّ بإمكانكَ أن تكون سيّد حركة، ولو صغيرة، من خنصركَ؟. أبمقدوركَ العمل دون تلك الرُّخصة؟ وهل سيُتيحون لكَ لُقمة الخبز دون أن تحني هامتكَ؟".

"شخصياً أقود الشاحنة الآن دون الحاجة إلى أيّ شيء".

"كل ما بمقدوركَ أن تفعل هو أن تحملَ گيتاركَ، وتعزف، حتّى الغناء لن يسمحوا لكَ به، وإذا ما فعلتَ، فستجد نفسكَ مُرغماً على دفع غرامة قانونيّة".

هذا ما كان يدور في خلدي، أن أعزف الگيتار فحسب، فهو الفعل الذي بمقدوري القيام به متى ما راق لي، أن أسافر إلى نوفارا لو شِئتُ. كل ما كنتُ راغباً في فعله كان نابعاً من رغبة طفولية. أن أفعل كل شيء بمفردي، أمّا الأمور الأكثر جسامة، فهي ستحدث وحدها دونما قدرة منكَ على تغيير مسارها، كأنْ تدهسكَ شاحنة، أو أن تُصاب بالتهاب حادّ في القصبات. وربمّا يقف وراء كل شيء شخص ما يراقب ويتسلّى دائماً ما ستؤول إليه.

"ومَنْ يكون هذا؟ ربّ الكون مثلاً؟". قال كارليتّو.

"إذا ما كان ربّ الكون موجوداً، فهو موجودٌ في كل مكان"، أضاف "حتّى تحت أعقاب السجائر، أو خلف (برج ليتّوريا)".

صادفتْنا أماسٍ حملت عبق الحقول. يا إلهي، كم كنتُ مستعداً لدفع أيّ ثمن للذهاب إلى (بارادايس)، كما كنّا نفعل في السابق! هذه هي أماسي ممارسة الحبّ. مرّات كنتُ أُحدِّق في الواجهات الزجاجيّة التي تُعرَض فيها الأزياء النسائية. كان ميلو يُلحّ عليّ بإحضار الگيتار دائماً. ومرّة أجبرني على العزف عند رأس جسر في مدينة (بياتشينسا). استندنا إلى جدار الجسر بينما كانت هناك مجموعة من الفتيات يعبرنَ الجسر. عندها بدأت الفتيات بالرقص، كنتُ أرى سهل المدينة من فوق الجسر، وبدا لي كما لو أنّني أقف على الشرفة ذاتها التي وقفتُ فيها مع ليندا في جنوة. شعرتُ بالعَوَق، وانتابتْني الرغبة برَمْي تلك الفتيات في النهر، لكن كأس النبيذ وضحكات ميلو البهيجة أبعدا عنّي تلك الفكرة. شعرتُ بأن السيل بلغ الزّبا لديّ، وأدركتُ بأنْ لا شيء من كلّ ما يُحيط بحياتي، تورينو، العمل، الشوارع وحارة البيوت، يمنحني السلام الذي آمل فيه. لم

تكن تؤرّقني حتّى فكرة أن يباتَ كارليتّو دون ما يسدّ رمقه، ولم يكن جوعه يؤرّقني. كنتُ أفكّر بقدر كبير من التنانة. كنتُ واثقاً بأنّه سيتركني هو الآخر متى ما أُتيحتْ له الفرصة، ونال ما يسدّ رمقه.

"لا خطر في أن يحدث ذلك الآن"، قال "لا أعتقد أنّكَ ترغب في رحيلي دون أن أشتري بدلة جديدة. لن أذهبَ إلى روما بهذه البدلة الرثّة".

كان كارليتّو يُحدِّثني عن روما بالطريقة ذاتها التي يُحدِّثني فيها ميلو عن الفتيات، ويقول بأن روما مدينة شاسعة، يأكل فيها الجميع، وهناك مَنْ يُوزِّع أطباق الطعام "ثمّة الكثير من الثراء"، كان يقول "وبإمكانكَ أن تتلمّس ذلك في هواء المدينة، التي لا تُغلَقُ فيها الأبواب. هناك، في روما بإمكانكَ تناوُل الطعام، العيش حتّى في الشارع".

"أليستْ روما ملأى بأبراج (ليتّوريا)؟".

قهقهة كارليتّو على عادته، وهمس "هناك مَنْ يُفكّر بتصفية الحساب معها"، وأضاف "وهناك أيضاً أُناس معتدلون، وأنا أعرف بعضاً منهم".

كان كارليتّو يروي بأن المدينة روما بُنيتْ على طراز المُدُن الجبليّة، وثمّة الكثير من أشجار الصنوبر في حدائق القصور "بإمكانكَ البقاء خارج منزلكَ ليلاً ونهاراً"، كان يقول "والآن، وقد أطلّ الصيف هناك، ستُشبه روما بأسرها مطعماً شعبياً في الهواء الطلق في طقس دائم الصفاء. تجول هنا وهناك، وتسافر خارج أسوار المدينة القديمة، فترى الناس قد تجمّعوا في رحلات صغيرة، يستمتعون بأجواء المدينة. گيتاركَ الذي تُجيد عزفه قد يحمل لكَ الحظّ السعيد هناك، في روما".

وانتهتْ بي الحال أن أفصحتُ لميلو يوماً عن رغبتي "أنا ذاهب إلى روما".

"روما ليست بياتشينسا"، عليكَ أن تبقى بعيداً عن بيتكَ لستّة أيّام على الأقلّ".

"أُريد الذهاب إلى روما للبقاء فيها".

"تكلفة القطار أدنى".

"نحن اثنان".

عندها حَدَجَني ميلو بنظرته، ووافق "حسناً".

١٢

حين وصلنا إلى روما بالشاحنة التي عثر عليها لنا ميلو، شعرتُ بالسعادة، لأنّني قطعتُ مسافة الطريق تلك كلها، ولأنّ في العالم مُدُناً أخرى، جبال وبقاع لم ترها عيناي من قبل. وصلنا ليلاً. كان كارليتّو ينام مُسنداً جسده إلى سائق الشاحنة. توقّفنا قبل الوصول في بلدة ما بين التلال لتناول العشاء في حانة، عُلِّق في سقفها زوج من قرون الآيائل. كان الفلاحون يتصايحون، كما لو أنّهم سادةٌ. كففتُ عن التفكير بأهلي وبيتي. شعرتُ بالحبور، لأني كنتُ واثقاً بأنّ آميليو لم يصلْ إلى هذا المكان. "في هذه المرّة"، قلتُ لكارليتّو "قرّرنا كل شيء بأنفسنا".

"مَنْ يدري؟!"، قال "مرَّ كلُّ شيء بسلام حتّى الآن".

كان الطقس مُنعِشَاً ومائلاً إلى برودة خفيفة. دلفْنا شارعاً واسعاً على ضفّة النهر. لم أكن أشعر بالرغبة في أن نذهب إلى البيت، ونوقظَ النساء من نومهنّ. "لنتجوّل في روما قليلاً"، قلتُ لكارليتّو "سيطلعُ النهار بعد أقلّ من ثلاث ساعات". كنّا محمَّلين بالگيتار وبأمتعتنا، فقال كارليتّو "وماذا لو مرَّت مفرزة للشرطة؟!".

كانت دورينا تسكن في ساحة بالقرب من أحد جسور روما العريقة. "إنه جسر (بونتي ميلفيو)". كنتُ أجول وأُحدِّق حواليّ. بيوت بعشر طوابق

وتزيد، والتلال المُضاءة بالأنوار في الاتّجاهات جميعها "أشعر وكأنّنا في تورينو"، قلتُ لكارليتّو.

أفقتُ صباح اليوم التالي، ووجدتُ نفسي ممدّداً في منزل الآخرين. كنتُ نائماً على أريكة واطئة في منزل جارة لدورينا. فقد أحدثت دورينا وبناتها والجدّة ضوضاءً عالياً لدى استقبالهنّ لنا، ففتح الجيران أبواب المنازل. وبما أنّه لم يكن مكان للنوم في منزل شقّة دورينا، فقد انبرت عجوز بدينة لدعوتي من أعلى السُّلّم وهي ترتدي قميص النوم، وبعد حوار بينها ودورينا، كان أكثر شبهاً بالخصام منه إلى الحوار، فهمتُ بأن تلك الطريقة في التحاور كانت أمراً اعتيادياً في روما. أدخلتْني العجوز إلى شقّتها، لم تكن لديها فتيات، وكانت تُحبّ الگيتار والشباب. دخلتُ الفراش، وكنتُ سعيداً بأنّني تركتُ الآخرين يمارسون احتفالاتهم.

أفقتُ في الصباح على ضوضاء الشارع. كان البيت ساكناً، والنهار طلع منذ وقت لا بأس به. انتبهتُ في الحال إلى اختلاف الهواء، كان الطقس صافياً وجافّاً، كما لو أنّ أحد نهارات كانون الثاني صار مثل تمّوز. "ما هذه الرائحة؟" سألتُ العجوز التي كانت تجول في أرجاء الشقّة. "إنها القهوة"، أجابت "أترغب في كوب منها؟". لم تكن الرائحة صادرة من دلّة القهوة فحسب، وأدركتُ ذلك عندما غادرتُ الشقّة، فقد تجمّع عدد من عمّال التبليط أمام التمثالَيْن القائمَيْن على رأس الجسر، وكان القار يغلي في الفرن. "روما عبارة عن حاضرة بالتأكيد"، فكّرتُ.

رتّبنا الأمور بحيث أنام أنا في شقّة العجوز مارينا، وكنتُ ألتقي كارليتّو خلال النهار، وأتناول الغداء معهم. كانت دورينا أكثر بدانة ممّا ظهرت عليها في الصورة التي شاهدتُها في تورينو عند كارليتّو، إلاّ أنّها ما تزال شابّة. كانت تجول في أرجاء البيت مرتدية صدرية، وتصرخ ببناتها. طفلتان

أنجبتْهما من اشتراكي يقبع في السجن. ما أثار استغرابي هو أنّ دورينا، التي تُجيد الغناء، وسبق لها الغناء، لم تتطرّق إلى الفن في أيٍّ من أحاديثها معي. عاملتْنا، كارليتّو وأنا كعاطلَيْن عن العمل، يُضيّعان وقتهما في ما لا يُجدي نفعاً. لكنّها لم تستفسرْ منّي أبداً عمّا سأفعله، لأُقيم أودي. عرضتُ عليها بعض المال، لكنّها رفضتْه بإباء. أخبرتُ كارليتّو بأنهم في انتظاره في المسرح، فذهب، وضمّوه إلى الفرقة. تصرّفتْ دورينا بالفعل، كما لو أنّها أمٌّ لكارليتّو، وبدا لي هو كما الصبي الصغير المنصاع. كان يُقهقه كعادته عندما أُفصح له عن هذا. قلتُ له إنّ بإمكاني استيعاب الأمور جميعها، لكنْ، لم يكن بالإمكان لي أن أتصوّر نفسي كَمَنْ يسطو على امرأة رجل قابع في السجن. قال لي بأن المرأة تُسرَق على الدوام من قِبَل شخص ما، وعليكَ أن تُعجِّل بأمركَ، وإلاّ فسيأتي اليوم الذي تُسرَق منكَ فتاتكَ. "لكنّه يقبع في السجن"، قلتُ له "واضحٌ ما تقول" وأجاب "مَنْ يدخل السجن يعرف جيّداً بأن امرأته ستذهب إلى يد شخص آخر، لا يُمكن أن تعيش في روما دون أن تمارس الحبّ".

خرجنا مع دورينا لتناول العشاء في مقصف شعبي. كانت مَزهوّة برفقة كارليتّو (ها)، وكانت تُحبّ أن ترافقه إلى مسرح (فاريتا) - المنوّعات -، والذي كان بمثابة خشبة صغيرة، يتجمهر الناس حواليها، ويتصايحون كما لو أنّهم في ساحة عامّة. لم أحبّ نبيذ روما الأصفر اللون، لكنّ حلقي تعوّد على مذاقه بعد أن احتسيتُ منه الكثير. "إنّه قَدَري"، قالت دورينا "أنّا ذهبتُ، ستنتهي حياتي في مطعم شعبي".

"وأنتَ، لا بيتَ لديك؟"، قالت بأسلوب ينحو إلى رفع الكِلفة ما بيننا، لكنْ، بعد مُضي وقت طويل.

"لقد غادرتُ بيتي للتوّ. أمضيتُ جُلّ عمري ما بين تنّورات النساء".

"وما هي مشاعركَ الآن؟"، قالت "ينبغي أن تظلّ خارج البيت، لتتمكّن من تأسيس بيت خاصّ بكَ".

كنتُ أنظر إليها، وأبتسم. ما كان يُعجبني من روما هو مَلَكَةُ الكسل وإضاعة الوقت، وكنتُ أشمّ ذلك مع الهواء الذي أستنشق. لم يكن وضعي هنا كما كانت في تورينو بعد احتساء النبيذ. ففي روما، لم أكن أحتسي النبيذ مدفوعاً بالغضب، أو بفعل غليان الدم في عروقي. شعرتُ بأن ذلك النبيذ والناس يتغلغلون في داخلي، ويُعيدون تشكيلي وبنائي. كنتُ مُدركاً بأن عليّ أن أبحث عن عمل، لأُقيم أودي، وبأن أمامي طريقاً طويلة ووعرة. انزعجتُ من فكرة ترك العمل على متن الشاحنات.

وحين كانت تساورني مشاعر الغضب والضجر، كما في تورينو، كنتُ أضمّ قبضتي بحدّة، وأُحدِّق إلى السماء، وأجول وأتحرّك في المدينة، كما لو أنّني من سكّان روما منذ الأزل. كان ذلك كافياً لإزالة الغضب من داخلي، شعرتُ بنفسي، هذه المرّة، بأنّني صرتُ إنساناً آخر.

قضيتُ حاجتي بما توفّر لدي من مال، ومّما أعطاه لي أهلي. كانت مارينا تتقاضى منّي مائة ليرة في الشهر مقابل الإقامة لديها، وتوفّر لي قهوة الصباح، وتغسل ثيابي. مرّة أهديتُها كيساً من البرتقال، وفي مرّة أخرى عزفتُ لها الگيتار. كانت بدينة، وتعاني من بدانتها خلال الحركة. في الصباحات، كانت تجلس على كرسي وقد ارتدت ثوباً أو تنّورة، تُحدِّق فيّ، وتحدِّثني عن عمري الشّابّ. أخبرتْني بأن فتاة جميلة للغاية نامت في الفراش الذي أنام فيه، وبرأيها كانت تلك الفتاة أجمل بكثير من دورينا،

مشّطت شعرها أمام تلك المرآة التي أحلق أمامها لحيتي، ونظّفتْ أسنانها . سمراء، وكان اسمها روزايو.

"وكم من المال تطلب؟"، سألتُها وأنا أحدِّق إليها عبر المرآة.

ضحكت مارينا دون أن تتحرّك عن مجلسها، وقالت "أنا مُعجبة بكم أنتم أهل تورينو"، ثرثرتُ كثيراً "تعرفون من أين تُؤكَل الكتف، وترغبون الوصول في الحال إلى جوهر الموضوع". لكن روزايو، قالت لي "كانت شيئاً آخر، بعد عامَيْن من بقائها هنا، حصلتْ على نصيبها، وعثرت على سيّد أنيق، يملك نصف روما".

وحتّى تشرح لي كيف أن روما بمثابة دنّ خمر كبير، كانت مارينا تُستثار وهي جالسة على كرسيّها، وتنوح "آه، لو لم أكن عجوزاً"، قالت "نحن الرومان نُحبّ التنزّه والطعام لذيذ المذاق. ونحن بالضبط كما نبدو عليه. عندما وُلدتُ كانت عائلتي تعيش في (كامبيتيلّو)، وحتّى تصل إلى هنا أيّام الآحاد كان عليكَ أن تكتب وصيّتكَ، وتتركها لأهل بيتكَ. هل تعتقد بأن الرومانيّيْن هم مَنْ بنوا هذه القصور والعمارات كلها؟ شاهدتُ الكثير في حياتي، وصدِّقني، أنتم مَنْ فعل ذلك، أنتم الأغراب عن روما. نحن امتلكنا الحجارة فحسب، مَنْ منّا كان يعرف ما الذي يعنيه المال؟".

"الحجارة لا تعني شيئاً بالنسبة لي"، أجبتُها.

"حاولْ ألاّ تكون مثل كارليتّو"، قالت "عندما رأيتُكَ تحمل الگيتار، شعرتُ بالألم. فبالرغم من أنّني أستمتع بسماع عزفكَ، فإنّني أرغب في أن تُحقِّق ما يأتي بالنفع إليكَ. انظرْ إلى وضع كارليتّو، ووضع متعهّد المسرح القادم من تورينو".

كنتُ في تلك الأيّام، أخرج من البيت، وأجول في المدينة، أنظر إلى القصور، وأتأمل الشوارع التي كانت قديمة، إلى درجة لم يسبق لي أن رأيتُ مثلها. لم يكن إلاّ بمقدور الرومانيِّيْن بناء هذا كله، ولم أتصوّر بأن أُناساً مثلي أدلوا بدلوهم في إنجاز ما تراه عيناي. حتّى النسيم القادم من البحر والهواء الذي تشهق كانا مختلفَيْن. تلال وزرع لا وجود له في ضواحي مُدُننا. ما كانت تقوله العجوز مارينا لم يكن إلا هذراً قيل على عواهنه. وإذا ما كنتُ أشعر بالراحة وأنا أجول في دروب روما، فلأنها كانت مغايرة عمّا تعوّدتُ عليه في تورينو. رأيتُ القمر في إحدى الأماسي يسبح في نهر (التيبر)، وبدت لي الغابات المحيطة بروما مثل غابات تورينو في أعالي نهر (الپو). المُدُن التي تُظلّلها التلال تتشابه فيما بينها. كنتُ أُحبّ تلك البقعة من المدينة أكثر من قصور روما جميعها. وكان الشارع العابر للجسر ممتلئاً بالشاحنات المتّجهة إلى خارج روما، للوصول إلى الأوتوستراد، والمطاعم الشعبية امتلأت بعمّال الطُرُق والبناء الذين عَلَتْ منهم رائحة الكلس. كان هؤلاء يضربون بفؤوسهم طوال النهار، ويعملون دون توقّف.

"حتّى أهل روما يشتغلون"، قال كارليتّو "يعيش المقاول في (قصر فينيسيا)(*)، ولا أحد يعرف مَنْ يُراكم الأموال لديه. يُشيّدون الأبراج والجسور، لكنْ، دونما أيّ اهتمام بالمرافق الصحّية".

"لكن الناس يعيشون بفضل هذه الأشغال والمنشآت العامّة".

"في السجن أيضاً، يعيش الكثيرون، هناك يحصلون على وجبة الطعام بالمجّان".

---

*) إشارة إلى الديكتاتور موسّوليني الذي كان يُقيم في قصر "فينيسيا" الشهير، والذي أطلّ من شرفته الشهيرة لإعلان الدخول إلى الحرب.

بعد حين، أخبرتْني العجوز مارينا، بعد أن تلصّصتْ وفتّشتْ في حقيبتي، وأبدتْ علامات احتجاج وعدم رضا "لستَ عضواً في الحزب الفاشي"، قالت لي "لم تحمل معكَ القميص الأسود".

"وهل امتلاك ذلك القميص واجب؟".

"الجلباب هو مَنْ يخلق الراهب. ألم تسمع هذه الجملة من أُمّكَ؟ هل أتيتَ إلى روما لتوفّر بعض الأموال؟ أم لتُنفق ما لديكَ وتعود خالي الوفاض؟".

هزّتْ رأسها، وعاودتِ القول "احذرْ، فهناك كثيرون أكثر نباهة منكَ، لكنّهم انتهوا إلى ذلك المكان".

كان كارليتّو ودورينا يكرهان "الحزب الفاشي" حتّى الموت، ورُغم ذلك، كانت هي تُعامل كارليتّو بقسوة بالذات في ما يتعلّق بـ "الفاشّو". كانت تغضب عندما تتأخّر ابنتاها في الوصول إلى البيت من المدرسة، أو عندما تكسران إناءً زجاجياً، أو عندما يُضايقها مشهد شباب طلائع الكشّافة الفاشيّيْن، وتُضطر إلى العودة إلى البيت متوتّرة الأعصاب. فيما كانت الجدّة دائمة التباكي والأنين مطالبة ارتداء البرّة السوداء، إذاك، كان صراخ دورينا يتعالى، وتقول إذا ما كان الرجال عاجزين عن إدراك كيف تسير الأمور حواليهم، فماذا بإمكان النساء فعله؟ كانت تصبّ جام غضبها وحنقها على كارليتّو، وعلى زوجها السجين، وعلى ما اقترفتْه من أخطاء في حساباته، وعلى ما فشلتْ من جمعه من أموال. كانت تُعيب على كارليتّو بوصفه مخدوعاً، وبأنه لا يُجيد إلاّ الضحك والهراء.

"آه، لو لم أكن امرأة"، كانت تُردّد "لرأيتَ ما سأفعل...".

"وما الذي ستفعلين؟"، يُجيبها كارليتّو "إن وضعكِ أفضل بكثير من غيركِ من النساء".

في حالات مثل هذه كنتُ أتذكّر دائماً المرّات القليلة التي تحدّث فيها آميليو في السياسة. كان هناك دائماً مَنْ يرفع عقيرته بالصراخ قائلاً بأنّ الـ "دوتشي" - موسّوليني - لم يرتكب خطأً، وبأن أوضاع الإيطاليّين في ظلّ حكمه أفضل بكثير من أيّ وقت مضى، وبأنّ الجميع ليسوا إلاّ أساتذة في الثرثرة. "فلتخرس إذاً"، قال آميليو في تلك الأمسيّة، وكانت نظراته تكظم الكثيرَ من الغضب.

إلاّ أنّ دورينا لم تكن لتذكر شيئاً عن الحزب الفاشّي، عندما كنّا نخرج معاً للالتحاق بكارليتّو في المسرح. كانت تسألني عن تورينو، وعن المحلات التي تعرض الثياب. روتْ لي أنّها دخلت المسرح بسبب رغبة طفولية عابرة، وبأنها باعت في جنوة كل شيء، معاطف الفرو والمجوهرات، وباعت صوتها. كانت تضحك "لا أعلم لماذا أُعجَب بكم أنتم أهل تورينو؟!"، قالت بفرح "أنتم مجانين، ماكرون ومهوسون. ربمّا، ربمّا أُفكّر..."، إذّاك كنتُ أُمسك ذراعها، ويسرح ذهني مع تورينو "أنا الآن في روما"، كنتُ أقول لنفسي "أنا الآن في روما".

"هل تخطر تورينو على بالكَ؟"، سألتْني دورينا مرّة، ثمّ ابتأستْ، وشحبتْ معالمها وهي تروي لي عمّا مضى من سني عمرها.

"لديّ ابنة كبرت، وصارت تُثير فضول الشباب، أتعرف ذلك؟".

كان كارليتّو يصل، وفي العادة يقول "ها قد ضبطتُكُما متلبّسين"، وكان أصحاب المطعم وروّاده ينظرون إلى دورينا باحترام خاصّ. في البدء،

اعتقدتُ بأن ذلك نابع من كونها غنّت في المسرح، لكنّي سمعتُ في إحدى الأماسي اثنَيْن من الزبائن يتحدّثان عنها، قال أحدهما "انظرْ، يا لها من امرأة!"، أدركتُ في الحال بأنهما كانا يعدّان دورينا جميلة للغاية. لا أعلم كم كنتُ مستعدّاً لدفعه كي أُخبر كارليتّو بذلك. "هذه هي روما"، فكّرتُ بشيء من الدهشة "هذا النوع من النساء يعثرُ على المعجبين في روما". وقرّرتُ تركيز الانتباه فيما كنّا نجول معاً في الشوارع. كانت نظرات الكثير من الرجال تُتابع دورينا خلال مرورها "لا بأس، هذا أفضل من لا شيء"، فكّرتُ "قد يواسيها ذلك على الأقلّ".

كنّا نرتاد المقاصف دائماً، وكان كارليتّو على حقّ عندما قال بأن روما عبارة عن مطعم شعبي كبير، يحيا الناس في جنباته. عائلات بأكملها ترتاد المطاعم تحمل معها الدجاج المشوي والسلطة والفواكه، وتطلب النبيذ، وتتناول طعامها. عادت إلى ذهني صورة (الماسكيرينو)، وحيث كان كان يمرّ الفنانون جميعهم، لكن ذلك لم يكن إلاّ كوّة لكبار السّنّ والشائخين، كان مظلماً، وفي خدمة العواهر وروّاد المسرح فحسب. أمّا هنا، فالجميع يتسامرون، يضحكون، يغنّون، ويأكلون. كان المطعم عبارة عن مركز الحيّ. تذكّرتُ الليلة التي قضّياناها مع الرومانيِّيْن في (الماسكيرينو)، واليوم الذي تلاها وأشياء كثيرة أخرى. ثمّ فُتحت الأبواب بسبب حرارة الطقس في نهايات نيسان، وشممنا روائح الموائد الطازجة، وكانت السماء عامرة بالنجوم. لم يمضِ وقت طويل حتّى وجدتُ الگيتار بين ذراعَيّ. وكان هناك گيتار آخر إضافة إلى گيتاري. كان كارليتّو يمارس مزحاته، ويروي حكاياته. بعد قليل، سمعتُ مَنْ يُناديني باسمي.

١٣

لم يكن تقاضي المال عن العمل في روما أمراً عسيراً، وعلمتُ بأن المدينة كانت ملأى بـ "الپابلوات" مثلي. كان الجميع يُلحّون عليّ بمواصلة العزف، ووعدوني بالعثور على صاحب مطعم، يوافق لي على إمتاع زبائنه بالعزف حول الموائد. لم أكن مضطرّاً، في هذه المرّة، إلى تشغيل كارليتّو برفقتي. وخلال تجوالي في أحياء روما، كنتُ أبحث عن واجهات محلات الميكانيِّين وكراجات السّيّارات. في روما، كان بإمكاني الحصول على عمل من هذا النوع، لكنّي كنتُ بحاجة إلى رُخصة قيادة السّيّارة. طلب منّي البعض منهم إحضار شهادة حسن السلوك، وشهادات التعريف من قِبَل الأماكن الأخرى التي اشتغلتُ فيها، وعجز البعض منهم عن التصديق بأنّي قادم من تورينو. "وصلتُ على متن شاحنة"، كنتُ أردّ على المتشكّكين "أُجيد قيادتها"، ويا لحماقتي، لأنّني لم أُسجّل اسم وعنوان سائق الشاحنة تلك. على بُعد خطوَتَيْن من البيت، وفي شارع واسع، اسمه (كاسّيا)، كان هناك محلّ لتصليح الدرّاجات، بدا المكان مثل كوخ قديم، وكأنّنا لسنا في روما. أخبرني الصبي الذي يُسيِّر المحلّ "عليكَ أن تتكلّم مع الشقراء!". اعتقدتُ بأنّني سألتقي بشقراء، لكنّي وجدتُ نفسي أمام امرأة بسحنة شبيهة بوجوه الغجر، ترتدي تنّورة تُشبه السروال وبلوزة بمربّعات ملوّنة. نظرتُ إلى ربطة عنقي وحذائيّ - كانت ربطة العنق جيّدة، لكن الحذاء كان مثقوباً -. سألتْني "هل تعرف أحداً هنا؟"، "لم تُتحْ لي بعدُ فرصة التعرّف على الكثيرين". وهكذا ابتدأتُ العمل في ذلك الدكّان.

كان هناك عملٌ كثير في الدكّان، بفعل أعداد المارّة وعمّال البناء والعابرين على الجسر. كان الصبيّ پيپّو يُحبّ ركوب الدرّاجات، والعَدْو على متنها بسرعة، أمّا الشقراء، فقد كانت أرملة - مات أشقرها قبل وقت قصير - وكانت تعمل جهدها للاحتفاظ بزبائنها، تحدجهم مرّاتٍ بنظرات قاسية وشرّيرة، وبكلمات قليلة للغاية. كان واضحاً أنّها لا ترغب في منح الآخرين فرصة المجاملات والغزل. كانت من النوع الذي تطرد الزوج من البيت، وتُبكيه ليلاً. أخبرني پيپّو بأن الشقراء عادة ما تسير خلال نومها. كان وجهها نحيفاً وجافّاً وعيناها غائرَتَيْن. وجه أرملة، بتحصيل الحاصل. كانت تجلس في الجزء الخلفي المخفي من الدكّان، وتراقبنا عبر كوّة صغيرة، وتُجري في المساء حسابات المدخول على طاولة في تلك البقعة من المحلّ، وتدفع لي نسبتي المئويّة. الشقراء كانت تنام أيضاً في ذلك المكان المظلم الذي تفوح منه رائحة البترول. في الصباح، تنتظرني عند الباب، ودون أن تردّ على تحيّتي، كانت تغيب في زاويتها. ربّما كانت في الثلاثين من العمر.

قبل البدء بالعمل، قمتُ بتنظيف الكوخ بأكمله، وطلبتُ منها أن تُخصِّص أجراً لپيپّو الذي كان يعيش على ما يحصل عليه من البخشيش من الزبائن. كلّفتُهُ بمهمّة ترقيع ونفخ دولايب عجلات الدرّاجات. كنتُ أُكلّفه ببعض المشتريات، ومنحتُه حُرّيّة الخروج، وعوّدتُه على الالتزام بالمواعيد. طلبتُ من الشقراء إلغاء مهمّة تصليح سروج الدرّاجات، لأنْ لا أحد منّا يُجيد ذلك العمل. صادفْنا بين الفينة والأخرى مرور باعة النبيذ بعرباتهم مزركشة الألوان، لكن تصليح السروج كان جهداً طويلاً، ولا يدرّ مدخولاً مناسباً. أخبرتْني الشقراء بأن ذلك كان العمل الذي يقوم به ذووها، ولا رغبة لديها في مناقشة الأمر، فبدأتُ أردّ على الزبائن بعدم توفّر الوقت، وهي كانت تسمع ذلك، ولا تعترض.

الوحيدة التي لم تستوعب فكرة أنّني بدأتُ العمل شغّيلاً، كانت العجوز مارينا "أتعرف أنّ على مَنْ يعيش خارج البيت، أن يحملَ شيئاً ما إلى ذلك البيت"، كانت تردّد على مسامعي "أيُّ رجلٍ أنتَ؟ ما الذي جئتَ تفعله في روما؟ ومَنْ ذا الذي يعرفكَ في هذا العالم؟".

بعد ذلك، كانت تُفرِغُ همومها مع دورينا مؤكّدة بأنْ لا أحد سينال مستقبله عبر العمل بأجر يومي مؤقّت. "حبيبكِ كارليتّو لا يُساعده في أيّ شيء"..، كانت تقول لها "إنّه يتركه ليموت كفتى بائس. إن بين أنامل هذا الفتى ذهباً حقيقياً، وهو يجهل ذلك".

أسرّتْ إليها دورينا بأن شيئاً ما حدث في تورينو، عندها سكتت العجوز لبضعة أيّام. كانت دورينا تتضاحك كلّما رأتني، بَدَتْ المرأتان وكأنهما تحتفظان بسرٍّ مشترك، بعد ذلك، عرف كارليتّو بدوره بالأمر، وصار هو أيضاً يُكرّر قهقهته المعتادة. في إحدى الأماسي، أمسكتِ العجوز بذراعي، وقادتْني إلى النافذة، وسألتْني ما إذا صلّيتُ لعيد الفصح. لم أفهم ما تعنيه، لكنّها دسّتْ في كفّي صورة قدّيس "احتفظْ بها في جيبكَ"، قالتْ لي "ستنفعكَ".

"أنا لا أؤمن بهذا كله"، قلتُ لها.

"لا تقلْ ذلك، غيرُ جائز. إنّه مبارك، وسينفعكَ".

"لستُ مريضاً".

"كلُّنا مرضى، هيا تعقّلْ، ألم يُعمِّدْكَ أهلكَ؟!".

في اليوم التالي، رأيتُها سعيدة ومبتهجة، تُجيب على قهقهات كارليتّو، وتقول "إنّهم شباب يقاسون عذابات المرأة".

تركتُهم يقولون ما يعتقدونه صحيحاً. كنتُ أواصل عملي. كان الخروج مساءً، وبما أتقاضاه من أجر متعة جميلة. ثمّ حلّتِ الأماسي الحارّة للغاية، وأنبأتِ الورود والأشجار بمقدم الصيف. كنتُ أرى على اليمين وأنا أعبر الجسر مقصفاً يقوم فوق التلّة المغطّاة بأشجار الصنوبر. لم أفهم سبب خُلُوّ تلك الأشجار من الأوراق، وقد بدت كالمحترقة.

"المدينة تلتهم كل شيء"، قال كارليتّو.

"يا لحكاياتكَ كارليتّو!".

وحين سألتُه ما إذا كان البحر يُرَى من فوق التلال أو من على قبّة كنيسة القدّيس بطرس في الفاتيكان، أجابني متهكّماً بأنّه كي يتمكّن من الرّدّ على هذا السؤال، فإن عليه الصعود إلى هذَيْن الموقعَيْن. ودون أن أُعلِمَ العائلة، ركبتُ في أحد الصباحات الجميلة الترام، ووصلت إلى ساحل مدينة (أوستيا) . تذكّرتُ حُلُمي مع لِيلِي عندما تسابقتُ معها على ساحل البحر. لم أحلم بالنساء منذ وقت طويل. مشيتُ على الرمل المُبلَّل، شعرتُ بنفسي كالسائر على العشب. جلستُ على الرمل أُراقب زبد البحر. ثمّ سرتُ صوب مجموعة من أشجار الصنوبر داكنة اللون والبعيدة، وركلتُ خلال مسيري القاذورات والأوساخ التي تركها السُّيّاح، وتذكّرتُ الإيشارب سماويّ اللون الذي عثر عليه آميليو.

عدتُ إلى البيت مساءً، وما يزال عبق البحر عالقاً بشَفَتَيّ. الآن فقط أعرف لماذا يملأ الناسُ في روما الشوارعَ، وتعلو البسمةُ وجوهَهم، وليس ذلك ديدن الأغنياء فحسب، بل هو ما يفعله الجميع. كان يكفيهم الصعود إلى سطوح منازلهم، ليشاهدوا البحر على مرمى خطوات منهم.

حتّى الفقراء والمعدمون كانوا يتحسّسون البحر عبر نوافذهم وشُرفات منازلهم. عمّال بناء، فتيات، أطفال، شغّيلة، وناس بُسطاء مُتعبين، كانوا يخرجون إلى الشوارع، ويتخاطبون بأصوات عالية، ويضحكون. في إحدى الصباحات، مررتُ بالقرب من بعض الفاشيِّيْن، حتّى هم كانوا باسمين، كانوا عائدين من تظاهرة سياسية وهم يُنشدون، ويضحكون.

"لابدّ أنّهم عثروا على الكرمة"، قال كارليتّو، "هل صادفكَ أن ترى مَنْ يأكل ويشرب حزيناً".

"يبدون لي بشراً هم أيضاً".

"هذه ليست تورينو. مَنْ يأتي إلى روما يفعل ذلك، ليزيد من بدانته، تذوّقوا الفاكهة، وأمعنوا في التلذّذ بها. حاولْ أن تسحبَ الصحنَ من تحت أيديهم، وسترى ما الذي يحدث".

سألتُه "وكم يكون عدد هؤلاء؟".

"إيطاليا كلّها ملأى بهم. جميعهم فقراء، وإذا ما سألتَهم أجابكَ الجميع بأنّهم فاشيّون".

عندها ابتدأنا بالنقاش بالأسلوب ذاته الذي كان آميليو يتناقش به في السياسة. كان يبتدئُ النقاش، ثمّ يهزّ رأسه مُكرّراً "حماقات!"، ومن ثمّ، يرحل معتلياً سرج درّاجته البخارية، لأن هناك مَنْ ينتظره في (نوفارا). كنتُ أُدرك حينها بأنّه لا يثقُ فيّ، لأنّني لم أكن أقرأ أبداً أيّة جريدة، ولم أُبدِ رأياً على الإطلاق. فكّرتُ بذلك كله في روما، وتمنّيتُ لو أنّه بجانبي الآن.

كان كارليتّو يتكلّم مثل آميليو، حمّلني جزءاً من الذنب، لأنّني واحد

من الكثيرين الذين يقفون مكتوفي الأيدي مراقبين لما يحدث. ما الذي فعل الفاشيّون؟ حرّكتُم الأيادي، اجتاحوا روما، واستخدموا العنف. فحرّكتُم الأيادي، علينا نحن أيضاً امتلاك قوّة المقاومة.

"ما الذي تقوله؟"، "أتفكّر باجتياح روما أنتَ أيضاً؟".

تجوّلنا في تلك الليلة، ودُرنا فوق الجسور. كنّا نستند على أسوار الجسر، ونتناقش. روى لي بأن الكبار ما يزالون أحياء، وهم على استعداد للمغامرة والتضحية. منهم مَنْ يقبع في السجون، وآخرون خارج البلاد، ويحاول الجميع إبقاء قنوات الاتّصال فاعلة. "الفاشيّون لا يشعرون بالطمأنينة"، قال لي "السجون ممتلئة بالمعتقلين، وهناك مَنْ فُرضت عليه الإقامة الإجبارية، وتحت حراسة الشرطة. هل تعرف ما الذي يعنيه هذا؟". إنّه يعني بأن العبء الأكبر في العمل مع الناس يقع علينا نحن، نحن الجُدُد، أن نستمع إلى أحاديث أولئك الناس، ونستمع إلى شكاواهم، وأنْ نساعدهم، وثمّة وسائل للدعاية والصحافة.

"أنْ نُنظّم إضراباً مثلاً"، قال.

عندما ذهب كارليتّو إلى المسرح، ليُقدّم فقرته، فكّرتُ مع نفسي، وضحكتُ كثيراً. "ودورينا؟، ما الذي سيحدث إذا ما خرج زوجها من السجن؟". ذهبتُ بعد ذلك إلى المقصف، فيما كان ذهني منشغلاً بهذه الأفكار، فما يزال هناك ثمّة أمل للقابعين في السجون. كانت الليلة جميلة وصافية، والكلّ في رواحٍ ومجيء، وقد ازدحمت الشوارع بالسّيّارات والعربات، واحتشد الناس في المطاعم التي يعلو فيها صوت المذياع - إلاّ أن أولئك المساكين أُوصِدَت عليهم بوّابات السجون -، تُرى كم كان جميلاً

لو انقلبت الآية، أن تغيب تلك الوجوه الخافرة على أسوار السجون، وأن يتمكّن الجميع من الهرب، ومن تحطيم كلّ شيء؟!.

هدأ بالي، وأسفتُ لأنّي لم أحمل الگيتار معي. في تلك الأمسيّة، عاد صديقا كارليتّو الحميمَان لوتشانو وفابريتسيو من جديد. تحدَّثْنا عن مقهى (الماسكيرينو) وعن دورينا، وأراد كارليتّو الاحتفال بوصولهما. وبعد طول انتظار، وصل عازف الگيتار وقد غرس وردة كبيرة على صدر جاكيتّته. كان عزفه سيّئاً للغاية، طالبه الجميع بالكفّ عن العزف، وتحويل الگيتار إليّ، وعندما انتبه بأن عزفي أفضل بقليل من عزفه، رماني بالكرسي، وشتمني بغضب "قذر"، ثمّ صرخ بوجهي "وغد"، وعندما وصل رجال الشرطة، كان مُمدّداً على الأرض يتأوّه من الألم، وبما أنّه نال منّي الكثير، فقد وجب عليّ تزويد رجال الشرطة باسمي، وبمحلّ إقامتي. أسفتُ على ما جرى، فحتّى تلك اللحظة كان الجميع يجهلون عنّي أيّ شيء.

كانت دورينا منفعلة بشكل كبير، فاضطُررنا إلى مرافقتها إلى البيت بسيّارة أجرة، وبقينا، نحن الأربعة، نتجوّل في الشوارع، حَتَثْنَا الخطى صاعدين التّلّة.

"في تورينو، لن تلتقي بأناس من هذا الصنف"، قال لوتشانو.

"كيف لا؟! ففي المقصف، تلتقي بالأصناف جميعها".

"پابلو شابّ رائع"، قال كارليتّو، وقد توقّف عن المشي.

"پابلو قادر على قول الكلمة المناسبة في اللحظة المناسبة، يجب إقناعه بالانضمام إلينا".

مكتبة أهد

بدا لي وكأنّني أمضيتُ وقتاً طويلاً بعيداً عن تورينو. وأنا أستمع إلى أحاديثهم، فكّرتُ بتلك الليلة التي قضّيناها معاً في تورينو نحتسي الشراب، ونُغنّي. كان الثلج يتساقط، وفي صباح اليوم التالي، خرجتُ من المكان بمفردي. في هذا المرّة أيضاً يُعلّفنا الليل، لكنّه ليل روما.

سألتُهم "وجوليانيلا؟ أما زالت تُغنّي كالعادة؟".

كان الثلاثة يتحاورون بصددي، فلم يُجيبوا على سؤالي. أحسستُ بالغرابة، وضحكتُ لاكتشافي بأنّ كارليتّو يقود أُناساً. كان يقول "غداً ستكون النسخ جاهزة، أنتَ، يا فابريتسيو، عليك إيصال أعداد منها إلى حي (تراستيفيري). وأنتَ، يا پابلو، هل ستأتي معي، لنوزّعَ النسخ المتبقّية؟".

كانت تلك الجولة تعني إيصال المطبوعات إلى بعض المناطق "پابلو، أنتَ تعيش في تماسٍ دائم مع الكثيرين، مع عمّال البناء الذين يعملون على الجسر، أولئك هم مَنْ نحتاج إليهم. أبإمكانكَ تنظيم إضراب لعمّال البناء؟".

"إنّهم يعرفون عن أحوالهم أكثر بكثير ممّا أعرف أنا"، أجبتُه "يأتون إلى الدكّان، ويمارسون دعايتهم، يعرفون حتّى بصغائر الأمور التي سرقها منهم المقاولون".

"ينبغي جمع هذه المعلومات والمعطيات كلها"، قال لوتشانو "ينبغي إيصالها إلى أصدقائنا".

وافقتُ على مرافقته في تلك الدورة في اليوم التالي. خرجنا من المحلّ مُسرعَيْن. كانت الشقراءُ هناك داخل المحلّ.

"أين هي المطبوعات؟"، قهقهَ كارليتّو "إنّها معي". كنّا نسير ونُثرثر في حماقات. ثمّ ركبنا الترام، وهبطنا بالقرب من ساحة القدّيس بطرس "آه، لو لم أكن أحمل هذه الحدبة!"، تأوّه كارليتّو "فبسببها يتعرّف عليّ الجميع". في أثناء العودة، اصطدم بي عسكريّ، فاستدار إليّ، وابتدأنا شجاراً، كنتُ على وشك الرّدّ عليه، فاستدار إليّ كارليتّو، وقال "هيّا بنا، لنمضِ في سبيلنا. أتريد إعادة الكرّة؟". دلفْنا في زقاق، قادنا إلى الجسر، وكانت هناك عشرات الأماكن التي تُشبه الإسطبلات. "هذه المنطقة تُشبه جنوة"، قلتُ لكارليتّو، لكنّه بقي صامتاً، وولج إلى باب عمارة، وقال لي "انتظرني هنا".

كان المكان مُظلماً وعفناً. غاب كارليتّو لبُرهة، ثمّ وجدتُه شاخصاً أمامي. ظهر من الشارع المقابل بقهقهته المعتادة، وذهبْنا.

"والآن!"، قلتُ له "هل بإمكاننا تسليم المطبوعات؟".

"لقد تمّ كل شيء"، همس "لنعدْ إلى مركز المدينة".

"أهذا كلُّ ما في الأمر؟" تساءلتُ وأنا أُحدِّق حواليَّ.

"ولِمَ لمْ تُعطني نسخة، لأقرأها؟ أريد أن أعرف ما الذي يكتبه هؤلاء".

"لم يكن ذلك مُحبّذاً، علينا الاحتراز، فتلك المطبوعات لا تُقرَأ على متن الترام، كما تعتقد".

لم أفهم أين يكمن هذا الخطر المُريع كله. عندها شرح لي كارليتّو محتويات تلك المطبوعات.

وخلال عودتي إلى البيت، تخيّلتُ نفسي في موقع الشخص الذي

استلم تلك المطبوعات. ما الذي كنتُ سأقول، وأنا أقرأ بأن الجميع ينهبون الأموال، وبأنّه ينبغي التمسّك بالعصامية والنأي بالنفس عن خيانة الإيطاليِّيْن، وبأن العالم بأسره يمقتُ الفاشيِّيْن؟ كان هناك مَنْ يكتب هذا الكلام، ويُغامر بحياته معرّضاً إيّاها إلى الخطر. عابرو السبيل جميعهم كانوا يقولون ما يُشبه ذلك الكلام خلال مرورهم بمكان عملي، فهل كان ضرورياً كتابته في منشور، وتعريض النفس إلى مخاطر الاعتقال. لم أفهم أيّة مُتعة يجنيها كارليتّو من ذلك كله. وكان مَنْ يُعتقَل بسبب هذه الأوراق سعيداً. أكّد لي كارليتّو بأن الشرطة ورجال الأمن كانوا يلمسون السعادة في وجوه المعتقلين، لذا ينهالون عليهم بالضرب المُبرح. هل يستحقّ ذلك هذا العناء كله؟

ساورني، وأنا عائد إلى المحلّ، إحساسٌ بالسعادة، لأنّني اكتشفتُ كيف تسير الأمور. لم يكن بمقدور الشقراء أن تتصوّر بأنّني قمتُ بجولة لتوزيع المنشورات، ناهيكَ عن العجوز مارينا. لا أعلم ما هو الثمن الذي كنتُ مستعدّاً لدفعه، لأروي لآميليو عمّا جرى.

وجاء إلى الدكّان شخص اسمه سولينو، وكان صديقاً للأشقر الراحل، كان يعمل نصف النهار، ويقضي النصف الآخر في المقصف. "لا يدفعون لنا الأجور"، قال "لماذا نشتغل؟".

"مَنْ يدفع أجوركم؟".

"من مصلحة المقاول أن تطول أيّام العمل، فهو يتقاضى نسبة على عدد أيّام العمل".

كانت الأرملة تنظر من كوّتها الصغيرة. أشعلتْ سيجارة، وأنا أقف

أمام باب الدكّان، مرّتْ شاحنة تسحب وراءها أخرى "هذه أيضاً وسيلة للعيش"، قال سولينو "إنّهم يُراكمون الأموال".

"أنا اشتغلتُ على متن شاحنة"، قلتُ له عندئذٍ "أُحبُّ قيادتها في الطُّرُق الخارجية". وصلت الشقراء من عمق الدكّان، تُجرجر خطوها المتكاسل ذاته "أشعلْ لي سيجارتي"، قالت. كانت نادرة التدخين. وقفتْ هي الأخرى عند باب الدكّان ممسكة بسيجارتها، كما الصبيان، كانت ترتدي بدلة العمل، بدلة الأشقر.

"أتريد الالتحاق بسياقة الشاحنات؟"، سألتْ.

عندها توجّه سولينو إلى الشارع، ليبتعد عنّا. "احذري"، قال لها، "إذا تركتِ هو أيضاً، فستُصبحين أرملة حقيقيّة".

١٤

تعوّدتُ على تناول طعام الغداء في المقصف المواجه للدكّان، وكان في مَرمى بصري من هناك. الغداءُ تحت ظلّ الأشجار منعشٌ، وكنتُ أتقاطع في منتصف النهار مع عمّال البناء الذين يأتون وهم مُلطّخون ببقايا الجبس والإسمنت، يطلبون قارورة النبيذ، وأن استمع إلى أحاديثهم.

لم تطلبْ منّي الشقراء أبداً أن أمكث للغداء على مائدتها. كان واضحاً بأن بقاءها بمفردها يُتيح لها فرصة معاناة الوحدة. مرّات تخرج إلى باب الدكّان مرتديةً بلوزتها مربّعة الألوان التي تمنحها هيئة فتى، تُدخِّن سيجارتها. كانت سمراء إلى الدرجة التي تنأى فيها عن الخروج إلى الشمس. في بعض الأيّام، كنتُ أراجع أشيائي القديمة: أتخيّل في نفسي بأن تلك المرأة ليست الشقراء بحدّ ذاتها، وبأنّنا نعيش معاً حياة مشتركة. كنتُ كَمَنْ يقاسي الحمّى، ولا حاجة إلى جهد طويل لتغلي الدماء في عروقي. ومع ذلك، فقد كنتُ سعيداً عندما كنتُ أُغادر الدكّان مساءً.

كنتُ أتناول عشائي برفقة كارليتّو ودورينا، ونادراً ما كنتُ أُمسك بيديّ الگيتار في نهاية الأمسيّة. لم تندر الفرص التي عزفتُ فيها برفقة كارليتّو الذي غنّى بعضاً من الأغاني التي يُجيدها بلهجة روما. كان المكان يعجّ بالفتيات - على شاكلة لِيلِي - برفقة أصدقائهنّ. كنتُ أتحرّك ما بين الجميع مسروراً، وأعرف بالضبط ما أُريد، وأشرب برفقة الجميع.

ظهرتْ جوليانيلا - شقيقة لوتشانو - من جديد، وأمضينا الليل نُغنّي في الشوارع، وطرأتْ ببالنا فكرة أن نذهب للاستحمام في البحر، لكنْ، لا أحد منّا كان ارتدى زيّ السباحة، فأقلعْنا عن الفكرة، وتوجّهنا إلى منطقة (كاستيلّي روماني). يا لها من أرض تلك التي لن تجد فيها قطّ شجرة كروم واحدة، لكنّ أهلها لا يملكون شيئاً غير النبيذ! صعدنا إلى (روكّا دي پاپا) ونحن نضحك ونأكل.

بعثتُ رسالة إلى عائلتي، أُخبرهم فيها بأنّني رتّبتُ أوضاعي، وعندما وصلني جوابهم مرفوقاً بختم دائرة بريد تورينو، احتفظتُ بالرسالة في جيبي، وأعدتُ قراءتها مرّاتٍ ومرّات. كانت مُذيّلة بتوقيع "أُختك كارلوتّا". "وإذاً، لم يُشيحوا بأبصارهم عنّي كما العادة". شعرتُ بالغرابة في أن تكون تلك الرسالة وصلتْ من هناك.

جوليانيلا، هي الأخرى، كانت تتلذّذ بممازحتي، وتسألني على الدوام ما إذا كنتُ قد جئتُ إلى روما، لأتزوج من تلك الأرملة. كانت تحشر نفسها في أحاديث الجميع، وتقول إذا ما أصلح پابلو وضع الدكّان، ورتّب أموره، فسيترككم، ويُصبح فاشيّاً هو الآخر. "وما رابط الدكّان بهذا الاحتمال؟" سألتُها.

"إذاً، فأين فتاتكَ؟".

"تعالي إلى منزلي، وسأُريكِ إيّاها".

دروينا، التي كانت برفقتنا دائماً، كانت تُستفزّ لمُجرَّد الاستماع إلى أحاديث في السياسة "أنتم لا تعرفون ما الذي يعنيه اقتحامهم للمنزل"، كانت تقول "يقلبون كل شيء رأساً على عقب، يسحبون حتّى خيط سيفون

المرحاض. لا تعرفون معنى أن يرقد أحد رجالكم في السجن. أفضِّل أن أراه ميّتاً. لا سلام لأحد، فهو موت يدوم شهوراً، وربّما سنيناً".

"هذا مُفيد كلُّه"، قال كارليتّو "حتّى الظلم مفيد".

"لكنّه لا يفيد مَنْ يرقد حبيساً هناك".

"يكفي أن يعيَ المرء مبرّرات رُقاده هناك".

وسمعنا عن معتقلين جُدُداً، أوقفتْهم الشرطة السّرّيّة، لأنهم كانوا يرتادون المقهى معاً. لوتشانو، الذي أوصل الخبر إلينا، كان يعرف بعضاً منهم. طَلَبَة ومحامون ومهنيّون آخرون. "هؤلاء مثلاً"، قال كارليتّو "أُناسٌ يعون أسباب اعتقالهم. هل تعتقد بأن طبيباً ما أو محامياً يُدخَل في هذه المعمعة بقلب مرتجف؟ إنّهم يملكون الكثير، وما يفقدونه أيضاً كثير وكبير، وهم أُناس متعلّمون".

"يمكن أن يكونوا على وعي بذلك"، سألتُه "لكنْ، ما الذي اقترفوه؟".

"هم أيضاً يُعارضون النظام".

"لكنْ، هل يُجدي جلوسهم في المقهى وتجاذب أطراف الحديث في شيء؟ أرغب في سماع سبب مقنع".

"كانوا يوزِّعون المنشورات مثلنا".

بِمَ يفيد هذا كله؟ بِمَ ينفع أن توزِّع مطبوعاً يتحدّث عمّا يعرفه الناس جميعاً؟! إنّه فعل أحمق للغاية، ولا يستحقّ هذه المغامرة كلها. ما الذي كان يريده الطَّلَبَة وأولئك السادة؟ أن يحلّوا محلّ الفاشيِّيْن. فليفعلوا

ذلك. على أيّة حال، فكل ما فعلوه غير مُجْدٍ بالنسبة لنا نحن، أعني العامل أو الحمّال، هم، لوتشانو وجوليانيلا، والعائلات التي تعيش بعشرة أشخاص في كوّة ضيّقة. هناك دائماً مَنْ يستغل الوضع الجديد، ويقفز على متن العربة وهي سائرة، وفي ذلك كله سحقٌ للآخرين. "مارينا"، قلتُ له "العجوز الشائخة، تتذكّر الحال في الفترة التي كان هؤلاء السادة على دفّة الحكم".

أبدى لوتشانو عن اتّفاقه معي، إلاّ أنّه أردف بأن ما يجري الآن إنّما هو لتغيير الوضع القائم. "حسنٌ جداً"، قلتُ له "لكنْ، حدّدْ لي ما الذي ينبغي تغييره، إذْ لم يُعلمني بذلك أحدٌ حتّى الآن؟".

فجأة سمعتُ كارليتّو يصرخ قائلاً "أعرفكَ جيّداً، أنتَ تريد أن تتصرّف كما يحلو لكَ، وتهوى، وبارتجال. تخشى أن يحتالَ عليكَ الآخرون، وأن تخسر اللعبة. إنّه قدرُكَ، لكن الأمور تحدث حتّى إذا لم تكن مُعجباً بمسارها".

"أيها الحيوان البشع"، قلتُ له "ما تقوله يحدث للكثيرين".

في المرّة التالية، قلتُ لكارليتّو بوضوح أكبر "إذا كنتَ راغباً في إدراك ما يُريد الذين درسوا في الجامعات، فإن عليكَ أن تدرسَ بدوركَ. هل تفهم ما يقولونه أو ما إذا كانوا يقفون إلى جانبكَ؟".

قلتُ ذلك لأُنهي النقاش، فمنذ وقت طويل، كنتُ أُعيد النظر في مسألة الدراسة. كي تفهم الأشياء فعلاً عليكَ أن تدرسها، وألاّ تكتفي بالحماقات التي يملؤون بها رأسك في المدرسة. أن تتعلّم كيف تقرأ جريدة، وما هي مواصفات مهنة ما، ومَنْ يحكم ويدير العالم. ينبغي أن تدرس لتتمكّن من الاستغناء عن أولئك الدارسين، وألاّ تُتيح لهم فرصة الاحتيال

عليكَ بسهولة. مُذّاك أدركتُ بأن هذا هو الطريق، وبالتأكيد سيكون هناك نظامٌ وأسلوب لهذا الصنف من الدراسة التي أريدها، وأنّ هناك أيضاً مَنْ يعرف هذا كله، وجوهر المسألة هو العثور على مَنْ يعرف ذلك، لأوصلَ إليه بأنّني أدركتُ واستوعبتُ هذا كله.

كنّا نتسامر في الأماسي، ونتجاوز منتصف الليل، وحتّى نحول دون انتباه عيون العَسَس إلينا، كنّا نذهب صوب الطُّرُق الخارجيّة، ونُغيِّر المطاعم بين الفينة والأخرى، ونذهب إلى المزارع والبساتين. وأحياناً كانت ترافقنا دوربنا مع نساء أخريات. كان الگيتار يُفيدنا كعُذر للتنزّه، وفي أماسٍ، كنتُ مشحوناً بالرغبة في العزف كممسوس، وأواصل العزف بمفردي حتّى الصباح. لم أكن قادراً على التحكّم بردود فعلي عندما أجد نفسي تحت تلك الأشجار وتحت ضياء القمر والنسيم المنعش. فهواء روما خُلِقَ ليُنعِشَ مَنْ ينشقه، ويزيد من صحوه. إذّاك كنتُ أرغب أن أكون شاباً يُعتمَد عليه، أن أُغنّي بحيويّة الأفارقة، وأن أدرسَ. أنا أكثرهم شباباً، وما يزال لديّ ما يكفي من الوقت. مرّات أعدْتُ النظر فيما حدث لي في سنة واحدة فحسب، وبالتغيُّرات التي مررتُ بها، والحظّ الذي حالفني في هذه الرحلة. كل شيء يسير الآن على ما يُرام، كنتُ أردّد مع نفسي.

مرّة ذهبت لشراء قِطَع غيار من المعمل الواقع في شارع (آوريليا)، ومنذ تلك المرّة، تعوّدتُ على اعتلاء سرج الدرّاجة، والخروج عصراً ساعة أو ساعَتَيْن، وترك الدكّان للصبي والشقراء. سألتْني الشقراء مرّة ما إذا كنتُ أبتعد كثيراً.

"أتجوّل قليلاً"، أجبتُها.

"وأين تقضي أماسيكَ؟".

"برأيكِ، إلى أين أذهب؟".

"لا ترقص، لا تقامر، ولا تذهب إلى حيّ (تراستيفيري)".

"كنتُ أفعل ذلك كله في تورينو".

"أفي تورينو أيضاً حيّ اسمه (تراستيفيري)؟".

"شيءٌ ما يشبه ذلك، يُسمّونه (فورتينو)".

"وما الذي كنتَ تفعل هناك؟".

كانت تُحدِّق في الأرض وهي تُحادثني. لم تكن بلهاء، كانت تُوازِن نفسها في الوقوف على قَدَمَيْها، وتحدجني بنظرات.

"لم أكن أعمل مُصلّح درّاجات هوائية".

حدجتْني بنظرة، وشابكت يَدَيْها خلف ظهرها كالصبيان. لم تبتسم، ولم أبتسم أنا أيضاً، إلاّ أنّني أُدرك الآن ما يجري.

"هذه المناطق تقع دائماً على ضفّة النهر"، قلتُ لها "لماذا؟".

"أيْ، نعم، لماذا؟"، قالت هي.

وانتهى الحوار بهذا الشكل، لأنّني لم أرغب في استمراره. قالت لي بأنها تفكّر بالذهاب إلى السينما. فكّرتُ "مرتدية تلك البلوزة مُربّعة الألوان!"، وحين رمقتُها بنظرة، أدركتْ مغزاها، ورأيتُ عينَيْها تبتسمان. اللعنة! إنّها يقِظة بما يكفي، وبدتْ لي في ذلك اليوم مثل صبيّ صغير. وطوال النهار، حتّى المساء، رأيتُ رأسها بالشعر المجعّد وشَفَتَيْها، وراقبتُ مشيتها. في ذلك اليوم، هربتُ من الدكّان قبل موعد الإغلاق.

أعدتُ التفكير فيما حدث لعدّة أيّام. ثمّة شيءٌ هامّ. كانت تمكث في غرفتها، ولا ترى أحداً. لم تكن لتُفسِدَ عليّ أماسيّ في وسط المدينة. فكّرتُ بها، وضحكتُ. ولوقت طويل، غابت عن ذهني، لكنّ دمائي كانت تغلي في عروقي في بعض المرّات، فبينما كنتُ أتبادل الأحاديث مع الآخرين، كنتُ أستشعر بأنهّا في انتظاري، وهذا ما كان يزيد لديّ من عذوبة السهر مع الآخرين.

هكذا مرّت الأماسي دون أن أُنجز خطوة واحدة إلى الأمام، وعلى أيّة حال، لم تكن لتهرب منّي، إلاّ أنّه جميل أن يحدث كلّ شيء دونما إكراه أو ارتجال. في هذه المرّة، كنتُ أعي جيّداً ما أُريد، ولا حاجة هناك للإتيان بما هو خارج عن المألوف. في الصباح، كنتُ أُمازح مارينا، وأسألها ما إذا كانت ترى فيّ شاباً مؤدّباً، لأنّني أنام بمفردي دائماً، كانت هي تحدجني بنظرة من زاوية عينها، وتدمدم بشيء ما. قلتُ لها عندذاك بأنه لمُجرَّد ما وضعتُ في جيب بنطالي صورة القدّيس التي أعطتْني إيّاه، صرتُ أعشق النساء. ضيّقتْ حدقَتَيْها، وقالت لي "اضحكْ، اضحكْ، وواصلِ السخريةَ، وسترى بأنّ شيئاً ما سيحدث بالتأكيد".

في أمسيّة، سألتْني الشقراء "هل ترغب برفقتي غداً لمشاهدة مباراة الكرة؟".

كان بالإمكان أن يخطر ببالي أيّ شيء، إلاّ ذاك. يحضر الجميع المباريات بمَنْ فيهم لوتشانو. أخبرتُها بأنّني سأكون مع المجموعة.

"سآتي معكَ"، قالت لي "إشترِ لي تذكرة".

هكذا جاءتْ، وجلستْ بيننا. لم يكنْ ما ارتدتْه من ثيابٍ رديئاً، ولم يُثرْ

حضورها تعليقات من الآخرين تجاهي. جلستْ ما بين لوتشانو وكارليتّو، وشاهدت المباراة بروحيّة مُستثارة، كما لو أنّها راهنت على النتيجة التي ستخرج عنها. هتفتْ، وصاحتْ، ورفعت قبضتها إلى الهواء. لم تحتسِ البيرة. حاولت جوليانيلا إقناعها بالبقاء معنا لمشاهدة "منوّعات" كارليتّو. كانت تُجيب بهدوءٍ، وبصوت هامس، إلاّ أنّها أمسكت بذراعي خلال المباراة، وضغطتْ عليه كثيراً، وانتهى الأمر إلى أن أسندتُ جسدي إليها دون أن أقول شيئاً.

ذهبنا جميعاً إلى المقصف لاحتساء بعض الشراب. لم تُنهِ كأسها. كانوا يتبادلون الحديث معها دون رسميات أو تكلّف. لم أحمل الگيتار معي، ومع ذلك، فقد غنّى كارليتّو منوّعاته. طلبوا منها أن تمكث معنا، لنُكمل السهرة خارج المدينة، ونتناول العشاء معاً. طلبتُ منها أنا أيضاً البقاء.

مررنا بالبيت، وجلبتُ الگيتار، وذهبنا للعشاء خارج بوّابات روما. كان هناك موقع جميل تبلغه بعد أن تعبر قوساً واسعاً، يُشبه بوّابة ضخمة. جوليانيلا هي التي دلّتنا على المكان. مررنا ما بين الأسوار والحقول. كانت هناك أشجار قاتمة الخضرة والكثير من الحجارة.

لم أرَ من قبل حقلاً فارغاً كذلك، ساورتْني الرغبة أن أتحوّل إلى طائر سنونو، وأطير خافقاً بجناحَيّ.

جلسنا في الهواء الطلق على المصطبات المغروسة في الأرض تحت سقيفة، حِيكتْ من القصب. كنّا على بُعد مسافة قصيرة من روما، لكنّنا لم نكن نرى المدينة. حلّ المساء، إلاّ أنّ الأضواء بقيتْ مُطفأة.

تناولنا عشاءنا هناك، غنّينا وضحكنا كثيراً ونحن نحتسي النبيذ. لم

تكن الشقراء تتكلّم، بل تستمع إلى أحاديثنا، وترى جنوننا. أحبّتْ عزف الگيتار، وحثّني الآخرون على مواصلة العزف. كنتُ أشرب ببطء، فاشترطتُ عليهم السكوتَ، لأعزف، ففي تلك الليلة، كنتُ أُحبّ نغمات الگيتار النقيّة فحسب.

عندما حلّت ساعة العودة للذهاب إلى المسرح، لم ترغبْ في مرافقتنا على الرغم من الإلحاح الشديد عليها من قِبَل الآخرين. قالت بأنها استمتعتْ بما يكفي، وتودّ العودة إلى البيت. ناقشتُها في الحافلة، لكنّها أصرّتْ على العودة إلى البيت. طالبني الجميع "رافِقْها إلى البيت، يا پابلو"، لكنّي، وبعد أن صعدتْ نشوة النبيذ، كنتُ سادراً في التفكير بالحقول والخُضرة، وفضّلتُ أن أتركها تغادر بمفردها، فرفض الجميع، وقالت دورينا "عُدْ إلى المسرح فيما بعد".

هكذا عُدنا إلى البيت، وأنا أحمل گيتاري خلف ظهري، وإلى حين نزولنا من الحافلة مرّ كل شيءٍ بسلام دون أن ينبس أحدنا ببنت شفة. لكنْ، ولمُجرَّد مسيرنا جنباً إلى جنب، وجب عليّ أن أقول شيئاً ما.

"لم أعرفْ بأن اسمكِ جينا"، قلتُ لها.

حدجتْني بنظرة خاطفة "مثلما اسمكَ هو پابلو".

وصلنا إلى الدكّان، فتحتِ الباب ونحن صامتان، ثمّ قالتْ "أترغب في كوب من القهوة؟".

بينما كانت غلاية القهوة على النار، وضعتُ گيتاري على الأرض، وسمعتُها تُصفّر بنغمة ما.

"هناك القليل من النساء اللاتي يصفّرنَ بشفاههنّ"، قلتُ لها.

سكت الصفير، ثمّ سمعتُها تقول "ولكن الصفير ليس محرَّماً على ما أعتقد!".

"إن امرأة ترتدي بدلة العمل"، قلتُ لها "لا تأتي بخطأ عندما تصفّر بهذا الشكل".

لم تُجبْ، وأُدرك سبب الإحجام عن الرّدّ.

"البدلة تُلائمكِ كثيراً"، قلتُ لها "لكنْ، عندما أُفكّر فيكِ وأنتِ ترتدين البدلة ليل نهار!".

لم تُجبْني هذه المرّة أيضاً ولم أسمع ضوضاء الأواني. عندها توجّهتُ إلى مدخل الدكّان، وكنتُ حائراً فيما أفعل. لم يكن يمرّ أحدٌ من هناك في تلك الساعة، وكان الظلام يلفّ الأرجاء، ثمّ رأيتُ أضواء الدكّان تُضاء، وإذا بي أراها ببدلة العمل وهي تبتسم.

أمضينا الليل كلّه في الفراش، كانت من نوع النساء اللاتي يهوينَ المتعة المطلقة. بين الفينة والأخرى كنتُ أقول لها "سأرتدي ثيابي"، ناديتُها بتصغير اسمها "جينيتّا"، فيما هي كانت تضحك وتبكي معاً. لم تتوقّف عن الحركة، وعندما استلقتْ بجواري، سكتتْ عن الكلام، فيما بقيتُ أنا دونما حراك بعينَيْن مُشرعَتَيْن في الظلام.

"ياللنّساء!"، فكّرتُ "لقد أدركتُ بأنّني لستُ مَعنياً بها". وعاودتْني غضبة بعيدة، كما لو أنها كانت شخصاً آخر مختلفاً عنها، وكما لو أن التواجد هناك إلى جانبها لم يكن ليُثير اهتمامي. روتْ لي عن

أشياء كثيرة من الأيّام الخوالي، كثير من الكلمات والإيماءات والنظرات جعلتها تُدرك حاجتي إليها. "ليس ما تقول جينا صحيحاً"، فكّرتُ "إنّها امرأة، ولا ترغب في الاعتراف بأنّها هي التي سعتْ إليّ". رغبتُ في العودة إلى البيت، والبقاء بمفردي، فهل كان قَدَري مكتوباً أن أراها أمامي ليل نهار؟

حلّ الصباح، وأفقتُ من النوم. كانت هي قد تركتِ الفراش قبلي، وتُعدّ القهوة "ألا تشعر بالجوع؟"، كانت قد ارتدت البلوزة المعتادة، وجاءتْ صوب الفراش وهي ترمقني بنظراتها.

"سيّدتي ربّة العمل"، قلتُ لها "هل هناك ثمّة ما لم يسرْ في الاتّجاه الصحيح".

مدّتْ ذراعَيْها، ولفّتْ بهما عنقي، وضمّتْني إليها، وبقيتْ على هذه الحال كالبلهاء. قبّلتُها، وقلتُ لها "ما بكِ؟".

"أنتَ عاجز عن فتح قلبكَ لي وإزالة الحواجز"، قالت "أنا لا أشغل بالكَ".

في ذلك الصباح، أدركت مُجريات الأمور. إذا ما كنتَ تشعر بالحبّ تجاه إنسانٍ ما، فإنّكَ تعي ذلك من ابتسامته. وكنتُ أبتسم دون رغبة في ذلك. لم أخبرْها بشيء من هذا، لكنّني أخبرتُها بأن عليها الحذر "فلسنا متزوّجَيْن من بعضنا"، قلتُ لها "أنا كما تعرفين! أعني لنتصوّر نفسَيْنا دائماً بأننا نعيش في اليوم السابق".

خرجتُ لأُدخِّنَ سيجارة على ضفّة النهر. كان المشهد جميلاً ببيوته وشُرفاته، وكان ماء النهر أجمل من المعتاد خلال مروره تحت أقواس

الجسر، وفي ضياء الشمس. وكانت تصلني من موقع بناء الجسر أصوات صيحات العمّال وضوضاء معاولهم وآلاتهم. عندها اقتحمتْ مُخيّلتي الجبال الشتائية في عمق الشارع بتورينو.

عُدت إلى الدكّان، وقد انقضى النهار. كانت جينا تُصلِّح عجلة درّاجة برفقة پيپّو. كنتُ على وشك دعوتُها لنتغدّى معاً لقمة، عندما قال لي پيپّو بأن شخصاً ما داخل المحلّ بانتظاري، ويرغب في الحديث معي. "تقدّم"، قلتُ، وإذا بي أرى كارليتّو الذي لم يكن يضحك هذه المرّة.

"آه، هذا أنتَ"، قال وهو يهرول صوبي "لقد اعتقلوا لوتشانو هذا الصباح".

١٥

مكتبة أهد

"أفي هذه الليلة بالذات تنام خارج البيت؟"، قال لي "عندما سألتُ عنكَ، واكتشفتُ بأنّكَ لم تعدْ إلى البيت، أحسستُ في الحال بالموت يسري في أعضائي. أخبرْني أين قضّيتَ ليلتكَ؟".

كان خاطري سارحاً في أمرٍ آخر، وهو أيضاً كان يُفكّر بالشيء ذاته، إلاّ أنّه كان مُستثاراً خلال الحديث معي. عرفتُ فيما بعد كيف سارت الأمور، وعرفتُ ما هو أكثر من ذلك كله، فمنذ ذلك الصباح، لم يعدْ كارليتّو ما كان عليه في الماضي. لقد تغيّر إلى درجة أثارت الرعب فيّ.

حضرتْ جوليانيلا إلى بيت دورينا في الصباح. كارليتّو هو مَنْ فتح لها الباب، فإذا بها تُعانقه، وتجهش بالبكاء. كانوا أربعة أو خمسة أشخاص، وكان لوتشانو نائماً في فراشه. قلبوا البيت رأساً على عقب، وأمروه أن يرتدي ثيابه، وقادوه مخفوراً. مكثتْ جوليانيلا في بيت دورينا، لتتأكد ما إذا اعتُقلنا جميعاً أم لا.

"اتركْ هذا الأمرَ الآن"، قلتُ لكارليتّو.

"أوتُدركُ ما الذي حلّ بي عندما ضغطتُ على الجرس، وفتحتْ لي مارينا البابَ، وأخبرتْني بأنّكَ لم تنمْ في فراشكَ؟"، فكّرتُ "لقد اختطفوه من الشارع"، وكانت دورينا تصرخ وتولول "هاهم يعتقلونكم جميعاً، حتّى أنتَ"، لذا هُرعتُ للبحث عنكَ.

"مَنْ يدري ما الذي فعله لوتشانو؟"، قلتُ له بهدوء.

كانت يدا كارليتّو ترتجفان، فالأمر لم ينته بعد، لأن جوليانيلا قالتْ بأن العَسَس عثروا في البيت على بعض الأوراق، وإذا ما أفصح لوتشانو عن أيّ شيء، وأباح الأسرار، فستسير الأمور من سيِّئ إلى أسوأ.

"إنّه شابّ تعس الحظّ"، قال كارليتّو "سترى بأنهم سيُشبعونه ضرباً، ويعذّبونه حتّى يعترف بشيء ما".

فكّرتُ فيما قال كارليتّو بصمت. رغبتُ في أن أُصارحه "أرأيتَ؟"، لكن وضعه أثار شفقتي، فقلتُ له "لا بأس، أنتَ ما تزال حُرّاً طليقاً". السجنُ شيء جادّ، لكنّنا نعدّه خلال الكلام عنه أمراً في غاية الاعتيادية.

سألتُ كارليتّو ما إذا كان يحتفظ بعدد من تلك الأوراق، أجابني بالنفي. جال في أرجاء الغرفة، وتوقّف فجأة، وهتف "اللعنة!".

"ماذا هناك؟".

"هناك كُتُب زوج دورينا في البيت".

قال بأنه لا يرغب في العودة إلى البيت في تلك اللحظة "فهم لا يعتقلون الناس خلال الليل فحسب، ربّما كانوا بانتظاري لخطفي من الشارع، أو ربّما لاعتقالي في المسرح، وليس مُستبعَداً أن يعتقلوا النساء أيضاً".

تركتُه يُفرِغُ ما في جعبته من كلام. كنّا على ثقة جميعاً بأنّ كارليتّو سيهرب، ويتوارى عن الأنظار. كان يلجُ بنفسه في دائرة الخطر من خلال التواري عن الأنظار دونما مُبرّر. ينبغي معرفة ما حدث، والسبب الذي

اعتقلوا لوتشانو بفعله. ربمّا لأنّ لوتشانو كان على آصرة صداقة مع آخرين، طَلَبَةٌ ومحامو ذلك المقهى مثلاً.

أخبرتُ كارليتّو برأيي هذا وهو يواصل الدوران في أرجاء الغرفة. لم يُجبْ في الحال. كان ذابلاً ومُستثاراً. ثمّ توقّف، وقال "هل فهمتَ محتويات تلك الأوراق؟ إذا ما اعتقلوه، فإنّه يعني بأن أحداً ما قد اعترف وباح بالأسرار. هو الآخر سيتكلّم، إذا ما كان يجهل بأنّني لم أُعتقَلْ بعد".

إذّاك تذكّرتُ نفسي عندما كنتُ في تورينو، أزيد من ثمَالتي، وبقدر ما كنتُ أزيد مقادير الخمر كانت تراودني أفكار أكثر حدّة، وتغلي دمائي في العروق، كما لو أنّها على نار الموقد. وكما هو كارليتّو الآن، كنتُ أنا أيضاً آنذاك عاجزاً عن الكفّ من مخاطبة نفسي. كان ذلك ماثلاً أمام بصري.

"أنا لن أغادر هذا المكان"، قال كارليتّو "لا أحد يعلم بوجودي هنا".

"إذا ما أسعفني الوقت، فسأذهب إلى البيت"، قلتُ له عندها "مَنْ يدري ما الذي يدور في خلد دورينا الآن؟".

طلبتُ منه أن يمكث في الحديقة الخلفية للدكّان. كانت الأمور هادئة في الساحة المواجهة للبيت. صعدتُ السُّلّم، ببطء كبير، أو هكذا بدا لي. وددتُ الدخول من خلال الباب الآخر قبل أن تنتبه العجوز إليّ، لكنّي سمعتُ صوتاً يُنادي "پابلو"، وفُتح الباب، وإذا بها هي عجوزتي. توقّعتُ أن أجد جوليانيلا في حالة سيّئة. كانت عصبيّة المزاج قليلاً، لكنْ، ليس أكثر من ذلك. أمّا مَنْ كانت تُثير الانزعاج، فهي العجوز، دائمة الحضور. طلبتُ من دورينا أن ترزم الكُتُبَ في الحال، وأخبرتُها بأن كارليتّو استسلم للرعب، ولا حلّ إلاّ تركه على ما هو عليه الآن لبعضٍ من الوقت.

"يجب أن يرحلَ، يجب عليه أن يتركَ هذا المكان"، قالت النساء.

"وفابريتسيو؟ هل اعتقلوا فابريتسيو أيضاً؟".

"كلا، بالطبع، لم يفعلوا".

فلنفعل شيئاً ما. اتّفقنا على أنهم سيرحلون. يكفي أن يرحلوا من روما، وأن يذهبوا إلى بيت بعض الأقارب. ذهبتْ دورينا إلى الدكّان، لتتحدّث مع كارلينّو، وتتّفق معه. أمّا أنا، فقد اصطحبتُ جوليانيلا، وحملتُ معي رُزمة الكُتُب، وقلتُ "سأرميها في نهر التيبر".

حين دخلنا المقهى، بدا الإنهاك على جوليانيلا بسبب حركتها طوال اليوم. قالت بأنّها ليست متأكّدة من محتويات الأوراق التي صادرها العَسَس في منزلهم. كانت رسائل وأوراقاً مطبوعة بالآلة الكاتبة، لكنْ، ربمّا كانت هناك نُسخة واحدة فحسب. كنتُ أرى عينَيْها تزدادان احمراراً خلال الحديث. لم تكن غاضبة من أخيها، أو من أحدٍ منّا. قالت فقط بأنها متأكّدة بأنّهم سيُعرّضونه إلى الضرب. "عندما يعتقلون أحد السادة"، قالت "يتعاملون معه بأناة، أمّا نحن، فيتعاملون معنا كتعاملهم مع الشيوعيِّيْن".

"ربمّا لأنّنا كذلك"، قلتُ لها.

ابتسمتْ بعناء كبير، وسألتْني ما إذا كنتُ سأذهب إلى المسرح؟ كان ينبغي أن نشرح للمتعهّد أسباب غياب ثلاثة من أفراد الفرقة".

"هذه الكُتُب معي، سأذهب إلى البيت. إلى اللقاء فيما بعد".

فكّرتُ ما إذا كان عدلاً أن يتعرّض الشغّيلة وحدهم إلى الضرب

والتعذيب. لا بدّ أنّهم يهابوننا نحن، أكثر من السادة. حينذاك ابتدأتُ بإدراك بعض قواعد اللعبة.

كان كارليتّو ودورينا يتناقشان وهما جالسان على حافّة السرير. انتظرتْني جينا عند مدخل الدكّان، وتصرّفتْ بذكاء عندما أرسلت پيپّو لشراء قِطَع غيار.

"حدثتْ بعض المشاكل"، همستُ في أُذنها وأنا أمرّ بجوارها.

لم تُجبْ، وأحنتْ رأسها، واحمرّ وجهها.

وحتّى يُدرك كارليتّو بأنّ عليه الرحيل، كان ضرورياً أن يفهم ويرى بأمّ عينَيْه أن لا وجود لسرير آخر في الغرفة. أخبرتُه بأنّ تلك الأوراق لم تكن موجودة لدى لوتشانو لحظة الاعتقال، وأنّ عليه أن يهدأ، وبأن لوتشانو شابّ يمكن الاعتماد عليه.

ذهبت دورينا للاتّفاق مع فابريتسيو. ازدرد كارليتّو لقمَتَيْن من الطعام في مؤخّرة المحلّ، ورافقتْ جينا إلى المقصف المقابل.

في المساء، وصل فابريتسيو برفقة دورينا، بعد أن التقيا بالكثيرين، وبدا الوضع هادئاً. وكلّما كان أحدٌ ما يمسُّ الباب أو النافذة، كان كارليتّو يدخل في وضعية التأهّب للهرب. أوضحْنا له بأن لا فائدة من ذهابه إلى الريف، لأنّ الشرطة ستعتقله هناك أيضاً، إذا ما كانت لديها أوامر بذلك. أدركتُ بأنّه استوعب الوضع جيّداً، لكنْ، دون الانصياع العاجل. رحل في النهاية برفقة دورينا، وذهب فابريتسيو إلى مسرحه.

هكذا انقضت الأيّام دون أن يلتقي أحدُنا بالآخر. كانت عينا جينا

بانتظاري في الأماسي جميعها، بعد ذهاب پيپّو إلى بيته. في البدء، كانت تتكلّم بحدّة وجفاء، وفي لحظات أخرى تحدِّق فيّ بنظرة رجاءٍ ضائع، وإذْ كنتُ أقترب منها، وأقول لها شيئاً ما كانت تُمسك بيَدَيّ. أمضيتُ معها بضع ليالٍ.

حلّ حزيران، فازددتُ ضيقاً وأسى كلّما فكّرتُ بالقابعين في السجون. لماذا هم وليس نحن؟ ولا أعلم ما إذا كنتُ مقتنعاً بالكامل بأنهم يُضرَبونَ ويُعذَّبونَ في ساعات الليل. كنتُ أصطحب جينا، نتجوّل في الشوارع. نقضي الليل بأكمله ونجول في الشوارع، ولا نعود إلاّ مع بدايات الفجر. كنتُ عاجزاً عن أن أخلع من ذهني صورة القابعين في السجن، فبقدر ما كان الطقس مُنعِشاً والناس أكثر فرحاً، كان ذهني يرحل إلى أولئك، وأزداد أسىً. وكنتُ، خلال خروجي بالدرّاجة الهوائية عصراً، أبحث عن أكثر المناطق هدوءاً وعن أبعدها. لم أعدْ أُطيق وسط المدينة وضوضاءها الجاثمة بثقلٍ على صدري، وينتابني شعور بالقرف لمُجرَّد الولوج إلى الأزقّة الضّيّقة، وحين أشمّ رائحة البول في الزوايا. مررتُ بمنطقة (لونغارا) لأشاهدَ السجن من بعيد، وشممتُ هناك أيضاً الجيفة التي تزيد الشمس من نتانتها.

بحثتُ عن جوليانيلا في المطعم، ولم أعثرْ عليها. لم أعرفْ محلّ سُكناها، ولم أكن راغباً في معرفته. التقيتُ فابريتسيو الذي أخبرني أن من الأفضل الانتظار لبعضٍ من الوقت. وحبّذَ الابتعاد للحيلولة دون إثارة الشكوك.

هذا كله كان يخلع عنّي الرغبة في الابتسام، لم يبقَ لديّ غيرُ جينا ومارينا. تركتُ عادة الخروج بالدرّاجة الهوائية، ومكثتُ في الدكّان. لحسن

حظّي لم تكن العجوز تُزعجني، وانصرفتْ إلى الاعتناء بابنتي دورينا برفقة الجدّة. عرفتْ جينا أيضاً من أيّة طينة جُبلتُ، وتركتْ لي الحُرّيّة الكاملة في الذهاب والإياب، وصارت تعتني بالدكّان بنفسها دونما تغيير في النسبة المئوية التي أتقاضاها. أوضحتْ لي ذلك في اليوم التالي - كانت ترغب في إعالتي - قالت ذلك بكثير من الارتياب والتردّد، إلى درجة أثارت ضحكي "عزيزتي، أيّتها المرأة"، قلتُ لها "أترغبين في أن نحمل السرير إلى الدكّان؟ أنا پابلو، وأعمل هنا بأجرٍ يومي. فلننتهِ من هذا الأمر بأسره".

وكعادتي كنتُ أتناول الغداء في المقصف المقابل، ثمّ أُمسك الگيتار، وأجلس على مصطبة. لم يكن العمل في الدكّان وفيراً. بين الحين والآخر، كانت تصل درّاجة بخارية، عندها كان بإمكاني أن أشتغل في محرّكها. ولو كنتُ أملك قليلاً من المال، فقد كان ذلك هو الوقت الأنسب لتوسيع الدكّان. وكانت جينا تقبل ذلك، وتوافقني الرأي. كانت تسهر الليل بمجمله وهي تفكّر، وأنا كنتُ أتحدّث مع البعض، وأُجري حساباتي، لكنْ، دون أن أكون على يقين ممّا يحمله الغد. فقد حدثتْ انعطافة ما منذ الصباح الذي اعتُقل فيه لوتشانو، أستشعرها مُختلطة بالهواء. لم يكن الوضع ليدوم طويلاً، وأعرف أنّها ما تزال مُجرَّد فكرة. أحياناً كنتُ أشعر بإنهاك كبير، وقد عجزتْ حتّى جينا عن تهدئتي.

كانت تفعل المستحيل، لأشعر بالسعادة، أن أرافقها ولو لنصف ساعة على ذلك السرير، وأستمع إليها. روتْ لي عن حياتها في شبابها، عن الدكّان الذي امتلكوه وراء التلال. كان هناك عازف گيتار يحضر إلى المحلّ، ويعزف برفقتي. ثمّ قرّرتْ جينا أن تغسلَ ثيابي بيَدَيْها، أن تُعدّ لي السَلَطَة بالفلفل واللحم. أخبرتْني في إحدى الليالي وهي تبكي باهتياج أنْ ليس

بمقدورها الإنجاب لأنّها أُخضعت إلى عملية جراحية، تحول دون الحمل. قالت "لا تُدرْ بالاً لذلك"، وجذبتْني صوبها. مرّة قلتُ لها بأن لا أحد يعلم ما الذي سيحمله الغد لنا.

كان حزيران، وكنت أُفكّر بالذهاب إلى ضفّة نهر (التيبر) إلاّ أنّني لم أكُن أشعر بالهدوء والطمأنينة. وددتُ أن أبقى في البيت، لأكون على اطّلاع على المستجدّات في الحال.

لم يكن هناك من بُدٍّ من عودة دورينا، وقد وعدني فابريتسيو بإخباري بكلّ جديد. في بعض الأحيان، فكّرتُ بأن هذا هو الوضع الأسلم، لم أكن ألتقي أحداً، ونأيتُ بنفسي عن التفكير السلبي. سأمضي الصيف عاملاً في الدكّان. "صيف في تورينو، وآخر في روما". وكانت جينا تولول "ابقَ معي". لا بأس، لا سوء في الأمر، كنتُ أقول لنفسي، فما أزال طائراً وجناحاي يخفقان.

في أحد الأيّام، أخرجت رُزمة الكُتُب التي كنتُ قد أحجمتُ عن رميها في النهر. كانت قديمة ومُستهلَكَة ومغطّاة بالشحوم. تصفّحتُها لقضاء الوقت، وقلتُ لجينا "إذا استجوبكِ أحد عن هذه الكُتُب، أخبريه بأنّها كانت للأشقر الراحل"، كان بعض الكُتُب باللغة الفرنسية، وبعضها الآخر بالإنجليزية، وبلغات أخرى. في اليوم التالي، رميتُ المكتوبة منها باللغات الأجنبية في النهر، فغاصتْ في مياهه في الحال، واحتفظتُ لنفسي بالمكتوبة منها باللغة الإيطالية. كانت تروي أحداث الحرب العالمية الأولى، وتاريخ "الحزب الفاشي"، وحملة الزحف على روما. كانت تلك الحملة تضمّ بعض الاشتراكيّين أيضاً وآخرين، فلاحون وشغّيلة وعمّال صناعات. أجبرهم الفاشيّون بالقوّة والضرب على الزحف معهم على روما، بعد أن

اغتالوا أفضل المناضلين، وأحرقوا "بيوت الشعب". "انظر، يا للعجب!" كنتُ أفكّر "وأنتَ تقرأ الصحف، تجد فيها حديثاً عن عظمة الأمّة الإيطالية فحسب". السادة دائماً مَنْ كانوا يموِّلون الفاشيِّيْن وفِرَق الموت. كنتُ أُستثار غضباً أن أقرأ وأسمع كيف سمح الناس لحفنة من المُلاك بالاحتيال عليهم جميعاً. "وكارليتّو ما يزال مؤمناً بأنهم أصحاب رسالة"، كنتُ أفكّر "فيما يقبع لوتشانو في السجن".

كنتُ أقرأ في الليالي مقاطع من تلك الكُتُب، وكانت نبضات قلبي تتسارع عندما أسمع وقع خُطى تتوقّف عند الباب. بمرور الأيّام، استوعبت بأنّه كان من الحيف رمي كتاب مثل هذا في النهر. "لكنْ، هل قرأ كارليتّو هذه الكُتُب؟" فكّرتُ "هل يُعقَل بأن ذلك قد حدث؟". وكان هناك كتاب آخر بعنوان "روما أم موسكو؟"، قرأتُه بسبب سُكناي في روما. لم يكن كتاباً يُمكن أن أُعتقَل بسببه. كان يتحدّث عن روما، ويروي بأنّ الناس في روسيا يموتون في السجون، وبأنّ الروس يعيشون في غرف ضيّقة، يتكدّس فيها عشرة أشخاص، وأنّ النساء تدبُّ في الشوارع، وتُجهض ما في أرحامها. "هنا في روما التي زحفوا عليها، واحتلّوها، يحدث الشيء ذاته"، قلتُ لجينا التي كانت تحدِّق فيّ طوال الوقت بنظراتها، وتُدرك الخطر، وتتحرّق انتظاراً بأن أقترب منها، وأُقبّلها.

١٦

ثمّ أُفرِجَ عن لوتشانو من السجن. لم يتعرَّض إلى الضرب أو التعذيب، وعاد كارليتّو مُلفّعاً بالعار والخجل. عدنا إلى اللقاء في المقصف، وعادت رفقة الأيّام الخوالي إلى الاكتمال مُجدّداً. قال لوتشانو بأنّه لم يتعرّض إلى الضرب. قالها ببساطة دون أن يمنح نفسه أهميّة تُذكَر. أخبرتْني جوليانيلا فيما بعد بأنها شاهدت والدة أحد المعتقلين وهي تستلم من أمانات السجن قميصاً مُلطّخاً بالدم. وكان القميص لابنها.

"اعتقلُوني لإجراء مواجهة"، قال لوتشانو "إنّها حكاية قديمة تعود إلى أيّام عملي في تورينو، فقد تعرّفتُ إبّان تلك الفترة بفتاة جميلة، تعيش حياتها بشكل خاصّ. وقبل شهر، تذكّرتُها، وقرّرت أن أبعث إليها رسالة، ذيّلتُها بـ " قبلاتي، لوتشانو " وكفى. وقد اعتقلوها قبل وصول الرسالة إليها".

"ألم يعتقلوكَ بسبب أولئك الذين يرتادون المقهى؟"، سألتُه.

"أنا أيضاً اعتقدتُ ذلك في البدء، كلا. كانت تلك الفتاة شيوعيّة. عندما رأتْني ضحكتْ بوجه رجال الشرطة، وقالت لهم "هذا!، هذا مغنّ، يؤدي وصلة في مسرح (نيرفانا). لم تعلم مَنْ أكون، وبهذا أنقذتْني. أتعلم؟ إنّها نهايتكَ، إذا ما تم اتّهامكَ بكونكَ أحمرَ(*)".

*) "الحمر"، بمعنى الشيوعي.

"لكنّكَ لستَ أحمرَ، على ما أعتقد؟"، قالت دورينا.

تصرّف الجميع كما ذي قبل، وكان كارليتّو، كعادته، صامتاً. اقترح فابريتسيو بأن نُقلعَ عن اللقاء فيما بيننا لبعضٍ من الوقت.

"أنتَ هو الأفضل وضعاً فيما بيننا"، قالت لي جوليانيلا "تدخّنُ سيجارتكَ بهدوء، ومن ثمّ، تقول لننتهِ من هذا الأمر، ولنذهب إلى المرقص".

قضّينا الأمسيّة معاً على ضفاف (التيبر) راقصين معاً. أنا مَنْ راقص دورينا بسبب خمول كارليتّو، وكسله، وبدا وكأنّه هو الذي أُفرِجَ عنه من السجن. التصق بلوتشانو، وصار يحادثُه همساً. لم يكن الليلة يضحك كعادته. "أتذكرُ حلمكَ عن القطط"، قلتُ له.

"أيُّ حلم؟".

مثّل كارليتّو دور منشغل البال، فاعترتْني الرغبة أن أسأله عن الأيّام التي قضّاها في الريف، لكنّي أحجمتُ، وأخبرتُه بأنّني رميت الكُتُب في نهر التيبر.

"أيّ كُتُب؟".

"أوه، كفّ عن هذا التغابي، أيّها الأحمق"، قلتُ له "يمكن أن يحدث للجميع، وأن يذهبوا إلى الريف. هل قرأتَ تلك الكُتُب التي كانت في بيت دورينا؟".

نعم، كان قد قرأها. تشاجرنا حتّى الصباح. ترك دورينا تنام وحدها ومكث معي في الساحة الصغيرة أمام الجسر، تناقش وتساجل مثل هِرٍّ

غاضب. وبرأيه، فإن الأوضاع في روسيا تسير على المنوال ذاته الذي تسير عليه في إيطاليا، "لاحظْ أوضاع إسبانيا"، قال لي "ها هم الحمرُ يبذلون قُصارى جهدهم، لينهزموا في الحرب".

"عندما تقع الهزيمة، فإنّ ذلك يعني بأن الجميع اقترفوا ذنباً ما"، قمتُ واقفاً بقفزة "هل ذهبت إلى إسبانيا أبداً؟ هل انتصروا في روسيا؟ نعم أم لا؟".

كان يقول بأن الحياة في روسيا ليست إلاّ سجناً "ثمّة دائماً في السجن بعض الناس، هذا هو قانون المجتمعات". قلتُ له "لكنْ، أنْ يقود المجتمعُ مَنْ يكدح، فذلك شيء في غاية الروعة".

"ليس مَنْ يكدح هو مَنْ يقود أو يتولّى زمام الأمور هناك"، قال كارليتّو.

عندما صعدنا صوب البيت - هو ليرقد في فراشه، وأنا لأحلق ذقني - رأيتُ مارينا ساهرة تنتظر عودتي وهي جالسة على الشرفة بثياب النوم.

"ألا بدّ من گيتاركَ معكَ، لتتفسّح حتّى هذه الساعة"، قالت لي "كان من الأفضل أن تذهب إلى الكنيسة، وتحضر القُدّاس هناك".

ما أحببتُ من روما هو نسيمها المنعش. كان بإمكاني الاستيقاظ دائماً في تلك الساعة، بل كنتُ أرغب في ذلك. عثرتُ في المطبخ على بعض حبّات الكرز، تذكّرتُ، وأنا آكل الكرز على الشرفة، ذلك الشتاءَ الذي كنتُ أعود فيه إلى البيت عند الفجر، وأحتسي قهوتي في مقهى المحطّة، أو في أيّ مكانٍ آخر.

مهما ساءت الأمور، فكّرتُ، فإن ساعة الصباحات هذه توجد حتّى في

السجن. أمن الممكن أن تكون روما خاليةً حتّى من شيوعي واحد؟ فتاة لوتشانو تلك، تقبع الآن في السجن. نعم، تلك الفتاة، وددتُ لو ألتقيها، وأتحاور معها.

في الأيّام التالية، حين سألتُ أصدقائي ما إذا كانوا يعرفون شيوعيّاً، ضحكوا منّي. وكان كارليتّو يُستثار ويغضب. كان يقول إنّ اختلاق الأعذار سهلٌ للغاية، لكنّ المهمّة الأساسيّة هي إنهاء الفاشيِّين. "اسمعْ"، قلتُ له مرّة "إذا ما كان الفاشيّون يكرهون الحمرَ بهذا الشكل العميق، فلا بدّ أنْ يكون لتلك الكراهية سبب محدّد".

"إنها مسألة تنافُس فحسب".

تدخّل لوتشانو في الحوار "پابلو يريد أن يقول بأنّه طالما هناك رأسمال، فالفاشيّون باقون".

ابتدؤوا بزيارتي في الدكّان، وبالذات كارليتّو، إلاّ أنّني كنتُ أُفضّل الحديث مع لوتشانو، لأنّه كان يُدرك أحياناً بأنّني على حقّ. "وإذاً"، كنتُ أقول له "فلتترك أولئك الذين يرتادون المقهى، واذهبْ مع الحمر". "لا حاجة لي إلى ذلك"، أجابني "هم موجودون، ونحن كذلك، وفي النهاية، سينتصرون، ونكون نحن قد ساعدناهم في ذلك على طريقتنا".

"هذا، إذا كنّا ما نزال نحن على قيد الحياة"، كان كارليتّو يقول مُقهقهاً.

جينا، هي الأخرى، كانت تستمع إلى أحاديثنا دون أن تُدلي برأي. كانت معارفها حول الموضوع أدنى من معارفي، إلاّ أنّها كانت تُتابع الأحاديث.

"كم هو أحمق وعنيد كارليتّو هذا"، قلتُ لها خلال أمسيّة "لِمَ لا يستوعب بأنّه هو أيضاً يكدح من أجل سدِّ رمقه".

"لأنّه أحدب"، أجابتْني.

كنتُ حذراً ومحتاطاً صوب الزبائن الذين يرتادون الدكّان. أحاول إثارتهم والاستماع إلى أحاديثهم، وعندما يدخل أحدٌ منهم، يمكن الاعتماد عليه، كنتُ أحمل الجريدة بيدي، وأسأله "وإذاً؟، كيف تسير أمور الحرب في إسبانيا؟". كنتُ أقول ذلك، لكنّ سولينو هو الشخص الوحيد الذي أجابني على السؤال. كان يذهب إلى المقصف، ويجيء منه ماضغاً سيجارته، ويتوقّف، ليُبصق لعابه. "سيكون هناك عمل كثير لمُجرَّد انتهاء الحرب"، كان يقول "ستنهار بيوت كثيرة". أمّا الآخرون، وبالذات الأكثر شباباً، فقد كانوا يُنصتون لما أقول بالكاد. لم يقرأ أحدٌ منهم جريدة أو حتّى ألقى عليها نظرة. اللعنة، أأنا سائر صوب الكهولة أم رُبّما صارت البلاهة تُهيمن على عقلي؟ أنا أيضاً كنتُ في ما مضى أقرأ صفحات الرياضة فحسب.

ثمّ حلّتْ في روما أيّام بلغ الحرُّ فيها حدّ الاختناق. شعرتُ بالرغبة في رؤية البحر، مرّات حاولتُ اصطحاب جينا، والصعود على متن الترام. لكنّنا كنّا نختار أيّام الآحاد، إذْ كان الحرّ شديداً والساحل مُكتظّاً بالناس، ولدى وصولنا إلى هناك، كان علينا السير لمسافات طويلة للعثور على بقعة رمل فارغة. ومع ذلك، كان للبحر تحت وهج الشمس وقع جميل في النَّفْس، وفي بعض المرّات، بدا مشهد البحر والأفق وكأنهما يتوحّدان في سماء واحدة. الماء والنسيم، تفقد الرؤية وأنت تعوم في البحر بسبب عمقه واتّساعه. جينا كانت تظلّ جالسة على الرمل بانتظاري. أحببتُ مشهد الفتيات وهنّ ينزلنَ إلى البحر للسباحة.. مَنْ يدري ما إذا كانت إحداهنّ

تبتعد عن الساحل، وتخلع عن جسدها ما ترتديه من لباس السباحة. كنتُ أُفكّر بذلك، وأنا أنظر إليهنّ.

في المساء، كنّا نعود أدراجنا إلى المدينة، نقضي الأمسيّة مع الآخرين، نتناول العشاء ونرقص. عاد الجميع إلى المطعم ذاته، وكانت جينا ترافقني في تلك الأمسيّات. كنتُ أتذكّر الشتاء في تورينو، وأتذكّر مرقص (بارادايس) والشاحنات. لا شيء جديد حدث، لكأنّ أمرأة أخرى، غير جينا، تجول معي في أرجاء روما، نضحك معاً، نحتسي النبيذ، ونجول في الأزقّة جميعها. كنتُ واثقاً بأنّني سأراها من جديد، وبأن شيئاً ما سيحدث. ومن جديد، كان آميليو يعود إلى خاطري، فيزيد ذلك من معاناتي.

أحببتُ المصنعَ الكائنَ في منطقة آوريليا. كنتُ أبلغه بعد عبور مزارع جميلة. كانت أسعارُه مُناسبةً، ويتواجد حواليه عمّال مصنع (تريونفالي). كنتُ ألتقي عدداً منهم خلال ساعة الاستراحة وهم يلعبون بالكرات الخشبية. توقّفتْ مرّات للحديث مع بعضهم. هؤلاء، نعم، هؤلاء، كانوا يفهمون الأشياءَ بسرعة "نحن مستعدّون إذا ما حلّت الساعة"، كانوا يقولون. كانت أعمارهم في حوالي الأربعين، أقلّ أو أكثر من ذلك بقليل. تذكّروا أيّام الحرب والإضرابات. "كنّا فتياناً آنذاك"، قالوا "لم نستوعبْ ما حدث ونحن في ذلك العمر الفتي،. لكنْ، الآن لم يعد مسموحاً أن يسقطَ شغّيل أو أن يُكرّر الخطأ ذاته". كان هناك شغّيل اسمه جوزيبّه، شجّ الفاشيّون رأس والده. أدرك السبب في غلبة الفِرَق الفاشية على الوضع "كانوا يتّهموننا بأننا حمرٌ، إلاّ أنّنا لم نكن كذلك. أردنا حماية أنفسنا. كنّا مستعدّين لدفع الثمن حماية لأنفسنا، لكنْ، أينما تواجد الحمرُ، سارت الأمور بشكل مُغاير".

سألتُه ما إذا كان أحد من الحمر موجوداً في روما، أجابني "مَنْ يدري؟ لكنْ، بالحسابات الإيجابية والمتفائلة، نحن نترقّب".

مرّة قادني جوزِيبِّه إلى والده الذي كان يسكن في الطابق الخامس، من عمارة قديمة. لا أعلم لماذا أحسستُ، وأنا أصعد درجات السُّلّم، بأنّه سبق لي وأن مشيتُ في ذلك المسار. كان صُراخ الأطفال يعمُّ المكان، وتصاعدت رائحة العفن والطبخ، وامتزجت بالحَرِّ القاتل. قال جوزِيبِّه لوالده "معي صديق يرغب في لقائكَ، يا أبي". كان الرجل العجوز جالساً في المطبخ يلوك كسرة خبز. كان يمضغ ويُحدِّق في ضياء النهار مُحدَودب الظهر. لم يتحرّك في جلسته. قال لي جوزِيبِّه "أنجلس؟".

وجب عليّ أن أُبادر في الكلام، لأشرح للرجل سبب وجودي هناك. لم يفُهْ، لا العجوز ولا الابن بشيء. سحب جوزِيبِّه ثلاثة كؤوس، وأنصتا لما أقول. بدوري، لم أكن واضحاً في الشرح بما يكفي. قلتُ للعجوز بأنّني أعرف أفكاره، وأرغب في أن يُوضِّحها لي بنفسه، وبأنني حديث الإقامة في روما. كان يُنصتُ إليّ ويُحدِّق فيّ. كانت عيناه ثابتتَيْن، وبلون أزرق كما الماء.

"مَنْ تعرف في روما؟"، سألني.

"سأُخبركَ بذلك فيما بعد"، أجبتُه، وواصلتُ حديثي.

"أُحبُّ"، قلتُ له "أن أعرف ما الذي حدث في عام ١٩٢٠، ولماذا كانت الزعامات بهذا القدر من الاحتيال والمخاتلة. لماذا لم يكن حُمرُ ذلك الزمان حمراً حقيقيِّيْن، وهل غادر جميعهم إلى إسبانيا، وما هي توقّعاته فيما لو انتهى الوضع في إسبانيا على ما انتهى عليه في إيطاليا نفسها.

"ألم يُخبركَ جوزِيبِّه بأيّ شيء؟"، سألني.

"لقد تحدَّثْنا"، أجبتُه "لكنْ، في قليل من الأمور".

"ما الذي تريدني أن أخبرك به"، قال "ألا ترى الحياة التي يعيشونها. ألم تتحدّث في تورينو مع الآخرين حول ما يجري؟".

"عن أيّ تورينو تتحدّث؟ هناك كنتُ أُجيد الرقص فحسب، وحتّى الرقص كنتُ أُجيده بالكاد".

"لكنْ، ماذا عن الشُّغل! ألم تكن تعمل في مصنع؟".

شرحتُ له عن دكّان بيع التبوغ، وعن الوقت الضائع هدراً. كان ينظر إليّ بعينَيْه الرماديَّتَيْن المنغلقَتَيْن. قلتُ له فيما بعد "أتودّ الائتمان إليّ، أعني ائتمان أحدنا إلى الآخر؟".

"ومَن الذي لا يأتمن إليكَ، يا ولدي الحبيب؟"، قال "أُريد فقط أن أعرف بشكل كامل ما يجول في خاطركَ من أفكار. هل تعرف أحداً في روما؟".

عندئذٍ رويتُ له أين أسكن، وبمَنْ ألتقي.

"ألا تتحدّث معهم عن سنتي ١٩٢٠ و١٩٢١؟".

"ليسوا أُناساً قادرين على استيعاب ذلك بما يكفي، لكنّي قرأتُ شيئاً ما"، وأخبرتُه بأنّني اطّلعتُ على تلك الكُتُب. سألني عن مالكها، وحدّثني عن الفِرَق الفاشيّة. قال بأنّهم كانوا في البدء عازمين ومصمّمين على أهدافهم بشكل صارم، أي أنّهم كانوا عازمين على الإمساك بزمام الأمور "لكنّ الحرب التي يمارسونها الآن مغايرة. أعضاء تلك الفِرَق جميعهم الآن في سبات، لم يعد الصدام بالقبضات أمراً مُجدياً، فلدينا الآن الشرطة وضبّاطها، وإذا ما استدعى الأمر، فإن هؤلاء هم مَنْ يمارسون الضرب".

وعندما سألني ما إذا كنتُ أشعر بالاستعداد في داخلي، حِرْتُ جواباً.

كانت لديه عادة المقاطعة. وأكثر من الاستماع أو انتظار الجواب كنتَ تراه يتكلّم. في لحظات كنتُ على وشك أن أقول شيئاً، لكنه يسبقني ويبتدئُ حديثاً آخر.

في النهاية، طمأنني، وطلب منّي الاعتناء بالدكّان، وبتكرار اللقاءات مع جوزِيپّه. كان الليل قد خيّم على الغرفة.

انتابتْني آلاف المشاعر، وأنا أخرج إلى الشارع، إلاّ الإحساس بالفرح. انتبهتُ بأنّني تحدّثتُ مع الرجل بطريقة حمقاء، وتصرّفتُ مثل صبي أخرق، وبأن ذلك الرجل العجوز وابنه جوزِيپّه يدوران في فلك، يختلف عن الفلك الذي يدور فيه كارليتّو. لم أتمكّن من تحديد ما كنتُ أسعى وأطمح إليه. ربمّا توقّع الاثنان بأنّني لستُ إلاّ جاسوساً، إلاّ أن ما كنتُ واثقاً منه هو أن الأب والابن وَجَدَا فيّ ثرثاراً، ليس إلاّ.

"لماذا هنا؟ ولماذا هناك؟ أنرغب في الائتمان إلى بعضنا؟ لِمَ كانت الزعامة محتالة إلى هذه الدرجة؟".

هذه الأمور كلها كانت تُقطّع أنفاسي عند استعادتها في ذهني، ولمُجرَّد التفكير بها. جُلتُ في أرجاء روما، وذهني منشغل بما حدث، وأحاول إدراك واستيعاب الوضع. ورُغم هذا كلّه أعتقد بأنّني كنتُ صريحاً للغاية، وكانت صراحتي وثقتي بهم أكثر ممّا كانا هما عليه. فكّرتُ أنّ بإمكاني اللقاء مع جوزِيپّه، فمن الآن فصاعداً ستكون الآصرة معه شيئاً آخر. أعدتُ التفكير في الأمر، وعُدت أدراجي إلى البيت.

لم أعُدْ إلى منطقة (آوريليا) في الحال بعد ذلك اللقاء، بل انتظرتُ فرصة مناسبة وحقيقيّة. كنتُ أشتغل في الصباح، وأقرأ في الليل، وأواصل سجالي مع لوتشانو وكارليتّو، إلاّ أنّني كنتُ أجد لدى لوتشانو بعضاً ممّا

ينبغي عليّ تعلُّمه، فهو على اطّلاع بكامل تفصيلات الحرب الجارية في إسبانيا، وكانت مشاعر الاقتراب من أولئك الحمر، تزداد عمقاً، كلّما روى لي أحداثاً من هناك.

علّقتُ بضع إطارات للدرّاجات حول عنقي، ودُستُ على مِدوس درّاجتي، وتوجّهتُ إلى حيث يعمل جوزيپّه، مررتُ تحت بيت والده العجوز، ورفعتُ رأسي مفكّراً بأن روما ملأى بهذه المنازل المتهالكة، ويكفي أن يقف أحمر واحد عند باب كل بيت، إذّاك سيكون عددهم كبيراً، أضف إلى ذلك القابعين في السجون. تُرى كم هي أعدادهم؟.

اصطحبني جوزيپّه إلى المقصف، لنحتسي قليلاً من النبيذ، تحدَّثنا عن إسبانيا، وعن أمور أخرى. سألتُه عن رأيه بدورة توزيع المناشير التي قمتُ بها برفقة كارليتّو. سألني "مَنْ هم؟"، قلتُ له بأنّهم أُناس عاديّون، وأفضيتُ له عن قناعتي بعجزهم في الوصول إلى جوهر الأشياء ومصدرها. عندئذٍ شرح لي جوزيپه بأن لكلّ ما يُنجَز فائدة ما، بما في ذلك ما يفعله السادة "لا تنظر إلى راحات الأكفّ"، قال لي "ليس مهمّاً ما يرغبون فيه، بل ما يُنجزون". أوضحتُ له بأنّني أعجز عن القناعة باتّفاق معدمين مثلنا مع السادة.

"لهذا السبب بالذات، نمارس نحن دعايتنا"، قال لي.

في هذه المرّة، ناولني بعض الأوراق المحظورة، كُتيّباً صغيراً يُشبه كُتُب القُدّاسات الدِّينية. وفي اليوم التالي، سألني لوتشانو خلال النقاش معه "مَن الذي يُعلِّمكَ الأمور التي بتَّ تعرفها الآن؟، منذ متى ابتدأتَ الاهتمام بالجرائد وبقراءتها؟"، كنتُ قد قرأتُ تلك المطبوعات خلال الليل، وبدا

واضحاً بأن قراءاتي أثمرتْ. حينها أدركتُ بأن المطبوعات لم تكن تفيد للوعيد فحسب، بل للإقناع أيضاً. لم يكن ذلك ليخطرَ ببالي، ولم أحلمْ به أبداً من ذي قبل.

حاولتُ مع جينا أيضاً ما بعد تناولنا طعام العشاء. كانت تجول في الغرفة ببدلتها المعهودة، تُحدِّق فيّ، وتستمع إلى ما أقول وهي تُجفِّف الصحون والأواني. قرأتُ لها مقطعاً من ذلك الكُتيّب الصغير، تركتْني أُكمِل القراءة، جاءت واستلقت باسترخاء إلى جواري.

"هذه الأمور"، قالت لي "سيُنجزونها أم أنهم يتشدّقون بها فحسب؟".

"هناك أماكن طُبِّق فيها ما هو مكتوب هنا، والآن جاء دورنا نحن".

كانت تُدخِّن وتُحدِّق بحلقات الدخان "كم هي عسيرة وخطيرة هذه الأمور، يا پابلو! إنّها تثير مخاوفي. ماذا لو اعتقلوكَ؟".

"المسي الحديدَ إقصاءً للشّرّ"، قلتُ لها ضاحكاً وممازحاً.

"كي يهنأ الجميع"، قالت "تُبادرون أنتم بالمعاناة والحياة العسيرة، فلتتوقّف عند هذا الحدّ"، قالت بحدّة، وعانقتْني "لا تذهبْ إلى هناك مرّة أخرى".

في المرّات جميعها التي كنتُ أقرأ لها مقاطع من الكُتُب، أو أُحدّثها عن هذه الأمور، كانت قادرة على قيادي إلى الفراش. أدركتُ ذلك منذ وقت غير قصير. هي أيضاً أدركتْ ذلك، وكانت تلعب أوراقها. هذه المرّة تركتُ الأمور تجري بيُسر، ومكثتُ معها.

مكتبة أهمد

حسناً فعلتُ، فقد سمعتُ في منتصف الليل طَرْقاً خفيفاً على الباب.
كان جوزِيِّه الذي جاء ليواصل معي الحديث الذي ابتدأناه.

١٧

الصيف في روما لا ينقضي أبداً. كانت الليالي تطول كثيراً. ذهبتُ بصحبة جوزِيبِّه إلى بلدة (سان أوريستي) خارج روما، حيث يُقام احتفال. هناك تحت أشجار الزيتون، التقوا وتحدّثوا. كانوا أربعة أشخاص، فيما أنا كَمَنْتُ في منعطف الدرب، أُراقب حركة مفوّض الشرطة، وما إذا سيتحرّك صوب الساحة أم لا. وفي يوم آخر، بعثني جوزِيبِّه إلى شارع (سالاريا) التاريخي، لأُسلّم رُزمة أوراق إلى جنديّ في حانة. خرج هذا الجندي من خلفية الحانة دون سترته، وبدا وكأنّه يسكن في تلك الخلفية. جلس إلى طاولتي بقسمات مبتهجة وسعيدة، وسألني ما إذا كانت لديّ أشغال أُخرى أُنجزها، ثمّ صار يسألني بهمس حول ما إذا كنتُ أُحبّ ما أفعل، أو ما إذا كنتُ ألتقي بأحدٍ ما، أو أعرف هذا أو ذاك. تركتُه يواصل حديثه وأسئلته. لم أُولّد لديه الإحساس بأنّني أدركتُ ما يرمي إليه، لم أُجبْ بشيء، وافترقنا بودّ.

أذكر حينها، بأنّني لم ألتقِ كارليتّو منذ أيّام، وكانت جينا تعرّضتْ إلى وهج الشمس، وعانتْ منه كثيراً، وحدّد حركتها. كان لوتشانو وجوليانيلا يزورانها مساءً. وفي صباح أحد الأيّام، رأيتُ كارليتّو يندفع إلى داخل المحلّ، ويُخبرني بأنه التقى شخصاً، وسألني ما إذا كنتُ راغباً في مرافقته إلى وسط المدينة.

فكّرتُ بأنه صار الآن قادراً على الوقوف على خشبة مسرح المنوّعات. في الطريق، استذكرنا أيّامنا في تورينو. كان متوتّراً، وارتفعت حدبته إلى درجة أنّني تخيّلتُه، كما لو كنّا في (پارادايس) بتورينو. ثمّ قفز أمامي، وسألني ما إذا كنتُ أواصل عزف الگيتار ليلاً، وعمّا إذا كنتُ أواصل التفكير بإمكان العيش من خلال العزف.

"لكنْ، ما الذي يحدث؟"، سألتُه.

"شخصٌ ما يرغب في لقائكَ". كنّا قد بلغنا الشارع الرئيس. صعد درجات سُلّم فندق البلازا، وسألني "ألا تدخل؟".

وبينما كنّا ننتظر في بهو الفندق، كنتُ حائراً في تحديد ما يحدث. لحسن حظّي كانت السترة التي أرتديها بمنظر مقبول. نُدُل الفنادق الكبيرة هم أكثر مَنْ يُثيرون ارتيابي.

ثمّ رأيتُها، ترتدي ثوباً صيفياً. تنظر إليّ وهي جالسة على مقعد وثير، يغرق فيه الجالس. تعرّفتُ إليها من خلال إيماءاتها وصمتها، أكثر ممّا قد أتعرّف عليها من خلال ملامح وجهها أو ساقَيْها. نادتْني بإشارة من يدها.

فكّرتُ في تلك اللحظة "ما عاد بإمكاني الزوغان الآن، فإنّ عليّ انتظار كارليتّو". احتجتُ إلى ثانية واحدة فحسب، لأُدرك بأن ليندا هي التي أرسلتْه للبحث عنّي، وأنّها عندما عادت إلى تورينو، شعرتْ بالوحدة. وبينما كنتُ أُفكّر في هذا كله، بلغتُ المقعد الوفير الذي تجلس عليه.

احتفلتْ بي، وأرادتْ أن تعرف كلّ شيء، كانت توحي بأنّها غاضبة منّي، لكنْ، بمرح وضحك "لعينٌ، كارليتّو هذا. هرب كعادته"، قلتُ لها،

فضحكتْ في الحال، ثمّ تغنّجتْ قائلة "على أيّة حال، هل يُهمّكَ أن تراني أم لا؟ اذهبْ إذاً".

"أتريد أن نخرج؟"، سألتْني.

خرجنا إلى الشارع، وكنت أصدم العابرين خلال المرور، وبعد قليل، وجدنا نفسَيْنا عند ضفّة نهر التيبر، في النقطة الأخفض من جداره.

"ما الذي تريدين قوله لي؟"، سألتُها.

"لا شيء"، قالت "إذا كنتُ تتآصر مع الأمر بهذا الشكل. أنا سعيدة برؤيتكَ ثانية، حماقة، وسعيدة بأن أعرف بأنكَ سعيدٌ في حياتكَ".

"وكيف جئتِ إلى روما؟ ما الذي تفعلين هنا؟"، سألتُها.

كان لون بشرتها قد اصطبغ بلون البرونز بفعل الشمس وشعاعات البحر. ارتدتْ ثوباً خفيفاً، لا يُفصح عنها كما في السابق. "هل ذهبتِ إلى البحر؟"، سألتُها.

"أنتَ الآن أكثر سُمرة من ذي قبل"، قالت، وأضافت بأن الذهاب إلى البحر مغامرة حقيقيّة، لأنّكَ إذّاك واقع تحت رحمة الآخرين، فمَنْ يرغب في اللمس يفعل ذلك دونما واعز، وليس بمقدوركَ أن تبقى بمفردكَ أبداً.

"أمضيتُ في البحر ستّة أيّام"، قالت "كنتُ سعيدة للغاية، ولا أعتقد بأن أحداً بلغ مقدار سعادتي، وتساءلتُ ماذا لو كان پابلو هنا معي؟ كنتُ وحيدة من الصباح حتّى المساء. وأنتَ، أتذهب إلى البحر؟".

"نصف نهار الأحد، ومع ذلك، أشعر بالانزعاج السريع".

"ما تزال كما كنتَ"، قالت لي "لكنْ، كم من الأمور تُخفي عليّ، ولا تُفصح لي عنها؟ أتُحبّ روما؟ ما الذي تشتغل فيه الآن؟ وهل تتقاضى مبلغاً جيّداً؟".

"كارليتّو أسرّ إليّ ببعض الأمور"، أجابتْ بنفسها على تساؤلاتها "إلاّ أن كارليتّو ليس شبيهاً بنا، إنّه لا يفقه شيئاً. أريد أن أعرف ما إذا كنتَ راغباً في الحصول على المال، كما كنتَ تأمل في الماضي؟".

"هل عثرتَ على فتاتك التي تُحبّ؟ أخبرني كارليتّو بشيءٍ عن هذا الأمر أيضاً، قال لي إنّكَ عثرتَ عليها. هل ستتزوّجان؟".

أخبرتُها بأنني في وضع جيّد، وفي ارتياح كامل، لأنّني لا أشعر بالاهتمام صوب أي شيء أو أيّ شخص. "أُحبّ العمل الذي أمارس الآن"، قلتُ لها "أمّا المال، فقد أدركتُ أنّ بمقدوري الحصول عليه، بالذات في الوقت الذي أُشيح بتفكيري عنه، وأفكّر بغيره. وأشعر دائماً وكأنّني وصلتُ إلى روما بالأمس فقط، فالعالم هنا في احتفال دائم حتّى في أيّام العمل".

"اسمعْ"، قالت لي "يجب أن تروي أشياء كثيرة. أين نتعشّى الليلة؟ أين تسكن؟ هل نستطيع تناول العشاء معاً؟".

"ليس بمقدوري الالتزام بموعد لهذا المساء"، قلتُ لها "أنا أعمل طوال النهار".

ودون أن نفترق عن بعضنا دخلنا مقهى لنتناول الغداء. قالت "إنّهم بانتظاري، يجب أن أُخبرهم"، لم يكن الهاتف موجوداً في المقهى. "مَنْ هم أولئك الذين ينتظرونكِ؟"، سألتُها. وقفتْ عند باب المقهى تنظر إليّ، بعدها ابتسمتْ "فليذهبوا إلى الجحيم"، قالت "أُريد البقاء برفقتكَ".

عادت إلى الجلوس، وابتدأت بالحديث كما لو كنّا ما نزال عاشقَيْن. كنتُ مستعداً لدفع أيّ ثمن لأراها وهي تتناول الطعام برفقتي. تذكّرتْ الگيتار، وسألتني عنه "روما تُلائمكَ، أعرف ذلك جيّداً، فهنا يُحبّ الناس عازفي الگيتار".

"لم تُخبريني أبداً بأنّكِ سبق وزُرت روما".

ابتسمتْ وهي تحدجني بنظرة. روتْ لي عن أشياء كثيرة "لقد ارتكبتَ خطأً"، قالت لي "بالرحيل المفاجيء دون أن تُخبرني".

"يا للغرابة!"، قلتُ لها إذّاك.

سحبت نَفَساً من السيجارة، وأمسكت بيدي على الطاولة "لا تأخذْ ما أقول على محملٍ من الجدّ"، قالت "أعرف جيّداً مقدار ما قاسيتَ، وأنا أشعر بالذنب لذلك".

عندما بقيتُ وحدي، وغابت هي في عمق الشارع، بدت لي روما الآن شيئاً آخر تماماً. كنّا سنلتقي في الخامسة لنتناول العشاء معاً. قالت بأنّها تريد مرافقتي إلى الأماكن التي أرتادها. أن تعيش معي، حتّى ولو لتلك الأمسية فحسب "أُريد أن أرقص معكَ ثانية"، قالت "وأن أتحدّث معكَ الكثير".

كانت لديّ ثلاث ساعات فحسب لأعود إلى البيت، وأغتسل، ومن ثمّ، أمرّ بالمحلّ، وأُنجزُ الأمور الأخرى. "ما الذي يحدث؟"، هتفتْ مارينا وهي تراني أدخل البيت. ثمّ رأيتُ جينا واقفة في منتصف الدكّان، وبيدها رُزمة، أوصلَها إليها جوزيپّه . جاء إلى الدكّان قبل قليل من وصولي، ولم

يقل شيئاً، إلاّ أنّني كنتُ أعرف بأنّه سيعود في وقت متأخّر، وينتظرني. أرسلتُ إليه پيپّو برفقة إطار درّاجة، وليُبلغه بأنّني مشغول في المساء. انتبهتْ جينا بأن شيئاً ما يحدث. ربّما كان عليّ أن أمرّ بالدكّان أوّلاً، ومن ثمّ، أذهب إلى البيت "ذهبتُ لتغيير ثيابي، لأنّني سألتقي شخصاً ما"، قلتُ لها "لن أعود هذا المساء".

وأخيراً التقينا في الدرب والشمس ما تزال دافئة. كانت ليندا ترتدي الثوب ذاته الذي ارتدتْه في الصباح، كان ساقاها مكشوفين، وأطّرتْ معصمها بسوار ذهبي. بدونا وكأنّنا عند ساحل البحر.

كنتُ أعمل، أجول في الطُّرُقات، وأضحك، لكأنّي أقول "لن أُعيرَ هذا اليوم أيّ اهتمام، فهو لن يدخل في حساب الزمن. سأفكّر في الأمور في الغد". كنتُ أُفاجأُ بالكثير من الفتيات في الشوارع، وأقول فجأة "إنّها ليندا"، لم يكنْ عليّ أن أهرب من الوقوع في شراكها يوماً.

"أين ستأخذني؟"، سألتْني.

تجوّلنا دونما هدف، وتداولنا الأحاديث ذاتها التي كنّا نُجريها يوماً ما. قالت بأنها تجهل حتّى تلك اللحظة ما الذي حدث في آتيلييه الخياطة. كانت غاضبة بسبب ذلك من كارليتّو، ومن لسانه الطويل "القضيّة وما فيها هي أنّكَ كنتَ ترفض معرفة تفاصيل القضيّة"، قالت "ترفض قبول فكرة أنّ للمرأة أيضاً حياتها الخاصّة، كما الآخرين. أنتَ جُبِلتَ من هذه الطينة".

للحظة أحسستُ بأن قلبي عاد إلى الخفقان على وقع إيقاعها هي، وكنتُ على وشك التصديق بهذا الإحساس، وأنْ أصارحَها القول "تُخطئين، فإذا ما كانت تلك الليالي وحالات الغضب التي مررتِ عبرها خاوية

ودونما معنى، فقد كان من الأجدى لي بأن أرمي نفسي في نهر (البو). إلاّ أنّ نبضات قلبي استعادت إيقاعها الخاصّ، وما عادت تعاجلني. لم أكن مَعنياً في تلك اللحظة بأن لوبراني موجود في روما برفقتها، أو إن جينا بانتظاري في الكوخ. ما كان يُهمّني من تلك اللحظة هو أن أمتلكها إلى جواري فحسب، أن أُعانقَ ذراعها، وأحاورها وأناديها باسمها. كان يعنيني أن أرى فيها فتاة تعرّفتُ عليها للتوّ، وبأن تعلم هي أيضاً ما أتخيّل.

"بالنسبة لي"، قلتُ لها "هذا المساء شيءٌ آخر، فقد تعرّف أحدُنا على الآخر اليوم. شخص آخر، آميليو آخر، بعث بكَ تبحثين عنّي، وأنتِ الآن تجولين معي في شوارع روما".

عندها توقّفت ليندا عن المشي، وأطلقت صرخة.

"فاتني أن أُخبركَ بما كان يجول في خاطري، أن أُخبركَ إيّاه طوال رحلتي من تورينو إلى روما. هل تعلم ماذا كان آميليو؟"، ثمّ همستْ في أُذني "كان أحمرَ، شيوعيّاً، وقد وقع في الفخّ. اعتقلوه، وحملوه إلى السجن على نقّالة مرضى".

هززتُ كتفَيّ كعلامه على عدم التصديق. "هل أخبروكِ بذلك أنتِ بالذات؟"، قلتُ لها "مَنْ أخبركِ بأنّه كان يعمل مع الحمر؟". كانت يداي في تلك اللحظة ترتجفان. "أهذا ممكن الحدوث؟"، قلتُ "لقد كان طريح الفراش، ولا يقوى على الحركة حتّى ولو بخطوة واحدة".

"وهل هناك حاجة إلى أن يتحرّك؟"، قالت "كان يعمل معهم قبل الحادث. ألا تذكر الجرائد التي كان يقرؤها؟ لقد عثروا على موادّ مطبوعة في غرفته".

دخلنا إلى شارعٍ خالٍ من المارّة، كانت السماء قد اصطبغت حمراء بأكملها، وأُضيئت أنوار واجهات المحلات التجارية. أتذكّر ذلك الشارع حتّى هذه اللحظة. كان انعكاس الشمس يبرق في عينَيْ ليندا وهي تتكلّم، وتبدو كما لو أنّها تبتسم.

"ليندا، أنا لم أعدْ الإنسان ذاته الذي تعرّفتِ عليه"، قلتُ "سينتهي بي الأمر إلى أنْ أقتل أحداً ما".

قالت "يُحزنني ذلك، وما الذي عليكَ فعله؟".

لم تفهم ما رميتُ إليه. روتْ لي عن المرّات الأولى التي طاوعتْه فيها، وكانت تسافر معه إلى فيرتشيلّي ونوفارا. في ليلة الحادث التي انكسر فيها عموده الفقري، كانت ليندا أفرغتْ جيوب آميليو من الأوراق التي كان يحملها قبل وصول سيّارات الإسعاف والشرطة، وعندما قرأتْ تلك الأوراق فيما بعد، أدركتْ الخطر الكبير. كانت تلك الأوراق تدعو بوضوح بالغ إلى ضرورة لاستعداد، فلحظة الحسم آتية لا ريب فيها.

"ألهذا السبب هجرتِه، وقطعت علاقتك به؟"، سألتُها.

أجابتْ وقد احمرّ وجهها، أو ربّما هكذا بدا لي:

"هو الآن يرقد فوق سريره كالميت داخل زنزانة".

"سينتهي الأمر بأنّهم سيحملونه إلى روما"، قالت "لقد اعتقلوه في نهايات آيّار".

تحدّثنا عن آميليو حتّى وقت العشاء، وفي لحظة ما، قالت لي "الآن

كفى، إذا ما غادر السجن حيّاً، فبإمكانكَ الاستفسار منه كيف جرت الأمور"، وحاولتُ أن تُطلق ابتسامة. وابتدأنا بشرب النبيد حتّى ننسى الموضوع. قالت ليندا "هل نذهب إلى (بارادايس)؟". لو أنّ سؤالها أتاني قبل ساعة من ذلك، لكنتُ سأستمتع به، أمّا الآن، فهو يُعيد إلى ذاكرتي الشتاءَ، ويُشعرني بقشعريرته، وبالفترة التي كنتُ فيها إنساناً آخر.

"اشربي ما تهوين من النبيذ"، قلتُ لها "لا رغبة لديّ لسماع الموسيقى".

بعد قليل، دخل المكان مُغنٍّ، يحمل گيتاراً، وأزعجنا بعزفه وصوته. ضحكت ليندا، وسألتْني ما إذا تعلّمتُ عزف الگيتار كمهنة على طريقة الرومان. ذهبنا إلى المرقص على ضفاف نهر التيبر، وحدث ما كان يحدث في الماضي، تهمس في أُذني، وتُسند جسدها عليّ، وجاءت اللحظة التي قلتُ لها "لنذهب إلى البيت".

"لا بيت لديّ"، قالت "أنا لا أعيش بمفردي".

كنتُ أسرح بذهني مفكّراً بجوزِيپّه الذي طلب رؤيتي، أفكّر بتورينو وبذلك الألم الكبير. كنتُ أفكّر بخفقات القلب كلّها التي لم أعد قادراً على تجاهلها. لم يكن بإمكاني العودة إلى الوراء. ماذا سيقول آميليو لو كان هنا في هذه اللحظة. تساءلتُ عمّاذا سيقول إذا ما عرف بأنّني الآن أصبحتُ واحداً منهم، وبأنّني صرتُ مكملاً له.

لم تعُدْ تُخيفني فكرة أنّني خَطفتُ منه ليندا بالذات. في تلك الليلة، أدركتُ بأنه ما عادت النساء يُشكّلنَ أمراً هامّاً في حياتي، وبأنّ عليّ أن أُسارع في العمل مع الآخرين، فآميليو، فكّرتُ، بانتظارنا وهو في السجن.

رقصتُ مرّة أخرى مع ليندا، فقالت لي "أتذكر (الماسكيرينو)؟ هل تذكر الليلة التي لعبنا فيها لعبة المستقبل؟".

"ليس بالإمكان التنبّؤ بالمستقبل"، قلتُ لها "يمكنكِ معرفة ما حدث، وما أنجزتِ بالفعل، وما الذي ترغبين بإنجازه".

"أنتَ على حقّ"، قالت لي "إنّنا نُكرّر دائماً ما فعلناه في السابق".

فقلتُ لها "لكنْ، ليس بإمكانكِ تذكُّر ما فعلتِ، ففي كل يوم تتعلّمين شيئاً جديداً".

عندئذٍ توقّفت ليندا عن المسي،ر وقالت "هيّا نذهب".

وكانت تُكرّر جملة "يا لها من مدينة جميلة روما!".

"أترغبين أن نذهب إلى إحدى غاباتها". قلتُ لها . ضحكت، وقالت لي "صرتَ تعرفها جيّداً".

توقّفتُ، وقبّلتُها. أمسكتْ بيدي "في تورينو كنتَ أكثر تعقيداً"، قالت لي.

صعدنا سلالم مُدرّج حيّ (مونتي)، وكان المكان فارغاً من المارّة، جلسنا تحت الأشجار لبُرهة من الوقت.

"ما أجمل هذا المكان!"، قالت لي.

كان المكان مُغرقاً بعبير الأشجار، وبعطر ليندا "هل جئتَ إلى هذا المكان مع نساء أُخريات؟".

عندها قلتُ لها بأنّني فكّرتُ بالمجيء إلى هذا المكان برفقتها. "كان جميلاً أن تكوني برفقتي هنا في روما، لو لم تتزوَّجي"، قلتُ لها.

ضعطتْ على يدي، وحدَّثتْني عن الشقراء. "عندما تستمع إلى أحاديث كارليتّو عنها، تتوقّع بأنها بلهاء"، قالت "وأنّها تتبعكَ مثل جرو يتبع صاحبه، أمّا أنا، فأعتقد بأنّكَ تعشقها. هل حدَّثتْها عنّي؟".

قلتُ لها "إنّها شيء آخر، وأنتِ هنا".

قبّلتُها، قبّلتْني، وقالت "لنذهب إلى فندق البلازا".

١٨

قبل أن يطلع النهار بقليل، طلبتْ منّي مغادرة الغرفة "أنتَ تعرف كيف تسير الأمور. أنا أعرفكَ جيّداً، لن تتفهّم الوضع أبداً". كنتُ أعرف ذلك منذ بدايات المساء، إلاّ أنّني كنتُ مُتعباً.

"وهل سيكون هو قادراً على التفهّم؟"، سألتُها وأنا أُحدِّق في عينَيْها.

استدارت على السرير، ولم تفُه بشيء، ثمّ تمصّرتْ، وقالت "اتركْني أنمْ قليلاً، فسأقضي الليلة القادمة في القطار".

ارتديتُ ثيابي المبعثرة على سجّادة الغرفة. كنتُ أقف في وسط الغرفة ونسيم مُنعِش يصل من النافذة.

"روما جميلة في هذه الساعة"، قلتُ لها "في تورينو، كنتُ أشعر بالسعادة وأنا أُغادر غرفتكِ".

"خبيثٌ أنتَ"، قالت.

"لم أكنْ إلا فتى يافعاً. آه، لو أعلم مَن الذي احتلّ مكاني؟ ليندا، لماذا عُدْتِ؟".

"أيولمكَ ذلك شيء ما؟".

"أتألّم من أجلكِ".

قفزتْ من الفراش، وعانقتْني، لم تكن تريد لي أن أُغادر وما يزال في خاطري شيءٌ سلبيّ. لم تكن تُريدني أن أذهبَ لأُغرق نفسي في النبيذ. لم تستوعبْ سبب عجزي عن استيعاب الأمور.

"اسمعي"، قلتُ لها "لقد مرّتْ هذه الليلة كما نعرف أنتِ وأنا. أعرف قيمتكِ، وكم هو ثمنكِ. أنتِ ما تزالين كما كنتِ في السابق، أمّا أنا، فلم أعُدْ ما كنتُ عليه".

كان سوارها يضغط على عنقي. اقتلعتُ نفسي منها.

"كم هي تكلفة الغرفة في هذا الفندق؟"، سألتُها، وكانت تلك آخر الحماقات التي أرتكبها. ابتسمتْ لي. كانت تجلس على السرير، وتحدجني بنظراتها.

"أولستَ راغباً في إدراك الأمور، أم أنّكَ لم تدركْها حقّاً؟"، دمدمتْ.

شرعتُ نافذة الغرفة، ومددتُ رأسي إلى الخارج. كانت السماء صافية.

"لنُدخِّن آخر سيجارة بهدوء"، قالت.

وهكذا دخّنّا سيجارة ونحن ننظر من النافذة.

"هل أنتِ واثقة بأنهم سيُرحِّلون آميليو إلى روما؟".

"أما زلتَ تُفكّر بذلك؟"، قالت "هل تعتقد بأنّني كنتُ سأخفي الأمر عنكَ، لو أنيّ أعرف".

"سيأتون به إلى سجن (لونغارا)"، قلتُ "فذلك هو فندق (البلازا) الخاصّ بنا. متى سترحلين؟".

"هذا المساء في التاسعة، وسأكون بمفردي في القطار".

كانت تتكلّم وهي مستندة إلى ظهري. كانت ترتجف بفعل البرد الذي يصل من النافذة. أسمعتْني صوتها وكأنّها تبكي. حدَّقتْ بي.

"هل ستبحث عنّي إذا ما جئتَ إلى تورينو"، قالت.

رميتُ عُقب السيجارة، واقتلعتُ نفسي منها "وهل يفيد ذلك في شيء؟".

رمقتْني بعينَيْن مضطربَتَيْن، وقالت "أنتَ لم تشعر أبداً بحبّ حقيقي لي".

عندما وصلتُ إلى بهو الفندق في الأسفل، فكّرتُ بأنّني لم أستدرْ ولو لمرّة واحدة، لأُلقي نظرة على السُّلّم. عاملان من الفندق كانا ينفضان السجاجيد، ويُزيلان عنها الغبار. كانت النوافذ مفتوحة، والمصابيح مُضاءة، وكان ضياء النهار الحقيقي يخفّف من وقع الضياء المصطنع.

تخيّلتُ لوبراني وهو ينام مُمدّداً . تراءى لي بثيابه الداخلية وهو يحتضن ليندا. كان كلّ ما أترك ورائي في تلك الصالات عبارة عن فكرة حمقاء. كان الشارع الطليق والناس الغادون والقادمون أفضل بكثير بمئات المرّات ممّا تركتُ للتوّ.

توقّفتُ في حي (فلامينو) لأحتسي قهوة الصباح. مسكينة ليندا، فقد

كان الهجر هو الأسلوب الوحيد الذي ينبغي اتّباعه معها. الآن هي مَنْ يُثرثر بالكلمات فحسب. كنتُ أُعيد التفكير في متعتي النتنة، لو أنّني كنتُ قد عرفت الأمور في ما مضى، لكنْ، ما الذي يعنيه هذا كلّه بعد آميليو؟ وربمّا استوعبت ليندا ذلك كله.

أخذتُ درّاجتي الحمراء، وذهبتُ للقاء جوزيپّه، حيث وصل شخص ما من خارج روما. كان ينبغي العثور على مكانٍ لإسكانه. بحثوا عنّي في المساء في كلّ مكان، كنتُ الوحيد الذي بحوزته سريران، وعليّ التنازل عن أحدهما.

وهكذا تعرّفتُ على جينو سكاربا الذي عاد من إسبانيا، لم يكن ذلك هو اسمه الحقيقي، وهل كان بمقدور أحد أن يعرف ذلك؟ وجدتُه وقد وصل إلى الدكّان. كان جالساً يمازح پيپّو.

"أنا پابلو"، قلتُ له.

كان نحيفاً، لوّحت الشمس مُحيّاه وعيناه باسمتان، قال في الحال "أشعر بنُعاس شديد، أعطوني ما أنام عليه"، أرسلتُ پيپّو ليشتري بعض الحاجيات، وتحدّثت مع جينا. ربمّا كان من الأفضل إيواءه في الدكّان، "لكنْ، هنا رواحٌ ومجيء متواصل للزبائن، ثمّ هناك الصبي پيپّو".

"هنا أفضل مكان"، قال هو "لأن بالإمكان التسلّل عبر الحديقة الخلفية".

عاد پيپّو، بينما كان جينو سكاربا غارقاً في النوم منذ وقت طويل. كان قد ألقى بجُثّته على سرير جينا. أمضيتُ النهار بأكمله في العمل في الدرب. سحبتْ جينا الستارة، وراحتْ تُعدّ الغداء. كانت تنظر عبر

الكوّة بين الحين والآخر لتراني وترى پيپّو، حتّى اللحظة التي اصطدم فيها الصبيّ بإحدى الدرّاجات، وأوقع سطلاً معدنياً أثار صخباً كبيراً. أنّبتْه "نعم، حطّم كل شيء"، رمقني بنظرة دون أن يفوه بشيء، وأعاد الدرّاجة إلى وضعها المستقيم.

أخيراً أرسلتُه ليتناول غداءه، وقمتُ بدورة قصيرة في الساحة، واشتريتُ جريدة. وكانت الجريدة عبارة عن حديث واحد فحسب، ولم تُشرْ إلى إسبانيا إلاّ بشكل عابر "كلّ شيءٍ على ما يُرام إذاً"، تندّرت على الحالة.

عندما عُدْتُ رأيتُ جينو سكارپا واقفاً أمام مدخل الدكّان مرتدياً بدلة عمل الأشقر وهو يقضم تُفّاحة.

"لماذا أطلقوا عليكَ اسم پابلو؟"، سألني "هل كنتُ هناك أنتَ أيضاً؟".

"عن أيّ هناك تتحدّث؟ أسموني هكذا لأنّني كنتُ أعزف الگيتار فحسب".

ثمّ سألني عن تورينو وما إذا كنتُ أعرف فلاناً أو فلاناً. "كنتُ شابّاً يافعاً في تورينو"، أجبتُه "ولم أكن أقرأ الجرائد".

نادتْنا جينا قائلة بأنّ الغداء جاهز، وغطّت المائدة بشرشف ناصع البياض، وقطّعت الخبز إلى قِطَع صغيرة.

نظرتُ إليها مبتسماً، وقلتُ "إنّه يُشبهكِ وهو يرتدي بدلتكِ". لم أُحدِّق في عينَيْها منذ الأمس، ومنذ اللحظة التي قضّيتُ الوقت مع ليندا. أمّا الآن، فإنّ وجود جينو سكارپا معنا يُغيّر الوضع ويُبرِّر غيابي، الآن فقط كنتُ قادراً على النظر في عينَيْها. ولّدتْ جينا لديّ الإحساس بالانغلاق والاستياء. لم تبتسمْ، ولم تشاركنا المائدة.

"هل تعرّف أحدكما على الآخر؟" قلتُ لجينو سكارپا "لقد سرقتَ بدلتها، واسمكَ جينو، مثل اسمها".

"أُحبّ هذه البدلة"، قال "إنّها أكثر البدلات حقيقيّةً، لكنْ، لا أحد يعرف ذلك".

ثمّ حدّثني عن إسبانيا كما لو كانت حي (تراستيفيري) الروماني. "كان معي أربعة من مقاطعة بيدمونتي، يا لهم من شبيبة! وصلوا من (ديجون)، وقد غامروا بحياتهم، وإذا لم يُستشهدوا حتّى الآن، فهم بالتأكيد محاصرون في مدريد".

"ما الذي يقولونه هنا في روما؟"، فاجأني بالسؤال.

"عندما تذكر اسم إسبانيا ينفجرون بالضحك".

مضغ لقمته، وحدّق في الصحن الذي أمامه، أفسحَ لي الوقت لأُخبره عمّا أعرف. كانت جينا تستمع إلى أحاديثنا. هزّ رأسه، وقال "هذه الحرب تُنهكنا، وتُكلّفنا الكثير". وأضاف "فيما يبعث الفاشيّون المدافعَ والجنودَ، نفقدُ نحن أعداداً هائلة من الرفاق. لقد اختاروا هم اللحظة والأرضية التي تتناسب مع ما يرمون إليه".

"البعض هنا يقول بأن الذنب يقع على عاتق الروس".

هتف أحدُهم من باب الدكّان، ذهبتْ جينا لترى القادمَ، "لا شيء مهمّ"، قالت من خلف الستارة.

سألتُ سكارپا بهمس ما إذا كان على علم بالوضع في تورينو؟ ذكرتُ

له اسم آميليو، وأخبرتُه بأنّه طريح الفراش. لم يكن يعرف من الوضع شيئاً، فقد كان في إسبانيا في تلك الفترة. "وقع العديد من جرحانا بين براثن العدوّ"، قال "أُتيحتْ لي فرصة اللقاء بعدد منهم. كانوا قد تعرّضوا إلى تعذيب وحشي، واقتُلعت عيون البعض منهم؟".

عادت جينا برفقة جوزِيبِّه الذي حيّانا "مرحباً"، ووقف ينظر إلينا. بعد لحظات، توقّف سكارپا عن الكلام.

"هذه الليلة"، قال جوزِيبِّه بهدوء.

وناولتْنا جينا القهوة "وصديقكَ ذاك"، قال سكارپا "ألم تسأله عن الرفاق هنا؟".

تحدَّثْنا عن تورينو، وعمّا حدث هناك.

"اعتقلوا الكثيرين"، قال جوزِيبِّه "لكنْ، دون إعلان الأسماء على صفحات الجرائد".

"هناك أسماء، نشرتْها الجرائد".

"عندما ينشرون اسماً، فذلك يعني بأن صاحبه ليس شخصية هامّة، أيّ شخص، ولم يعد يُشكِّل معضلة لهم"، قال سكارپا بعينَيْن باسمَتَيْن. "فقط عندما يُحجمون عن ذكره أو الحديث عنه، فذلك يعني بأنّ مَن اعتُقل هو واحدٌ منّا".

لم يكن لذلك الوجه المُلوّح بالشمس إلاّ أن يكون إسبانيّاً عاش في تلك البلاد شهور تلك الحرب. انتبهتُ بأن عينَيْ جينا تُشبهان عينَيْه. كانت صامتة ومنغلقة على ذاتها، لكنْ، دون أن تفقدَ دفئها المعتاد.

مكتبة أهد
telegram @ktabpdf

لم ينتبه سكارپا وجوزِپِّه بأن جينا كانت تُنصت إلى أحاديثنا، وسمعنا نداءً من باب الدكّان، فخرجتْ جينا لترى القادم. كنّا نتحدّث أمامها باعتيادية، إلاّ أنّني كنتُ الوحيد الذي يُفكّر بتلك البدلة.

"الليلة"، قال جوزِپِّه "أردنا الاجتماع لديكَ، لكنّ مكانكَ بعيد بالنسبة للبعض". ثمّ دلّني على المكان الذي ينبغي لجينو سكارپا أن يذهب إليه، وأوصاني بالحذر الذي ينبغي أن نتصرّف به. كان عليّ أن أُراقب المكان "ربمّا من الأفضل أن تحمل معكَ الگيتار، فقد ينفع في بعض الحالات".

نهض ليُغادر، وبعد أن عبرا الستارة عبرتْ وراءهما، وجدتْ ليندا بانتظاري في وسط الدّكان.

كانت ليندا وجينا ترمقان بعضهما بنظرات وكأنهما بانتظار شيء ما. جلستْ ليندا على صندوق خشبي. لم تنهض عندما رأتْني، وقالت "تشاو"، وابتسمتْ بخبث منتظرة أن أبدأ أنا بالكلام.

"هل أُزعجكم؟".

"ألن تغادري الليلة؟".

"اهدأ. كنتُ أرغب في التعرّف على شركتكم".

قال جوزِپِّه "اتّفقنا؟"، أحسستُ بأنّ سكارپا يراقب المشهد مستمتعاً. كانت جينا ما تزال واقفة بمواجهة ليندا دون أن تفوه بكلمة.

"استعنتُ بخدمات كارليتّو، ليُدلّني على الطريق. كنتُ أشعر بالحيف أن أُغادر دون أن أُحيّيكَ. وعلى ما أرى أنتم هنا تعملون ليلاً ونهاراً".

نهضتْ من مكانها، وقالت "پابلو يظلّ كما هو العادة، لن يتغيّر. يريد منّي أن أحمل تحاياه إلى أهل تورينو أجمعهم. أنا بلهاء، لأنيّ أُسدي له هذه الخدمة. إنه لا يحتاج إلى أيٍّ منهم، لكنْ، بإمكان الجميع أن يفيدوه".

نطقتْ جملتها الأخيرة بصوت كائنٍ آخر. قال سكارپا "أنتَ مشغول، نحن ذاهبان"، إلاّ أنّ ليندا ابتدأتْ ليندا بالصراخ في تلك اللحظة بالذات، وغرقتْ في ضحك هستيري وكأنّها شخص آخر تماماً "لا، لا، ليست لدى پابلو أسرار. هذا معلوم. إنّه الصبيّ الذي يحتاج دائماً إلى أمّه. هنا يعرف الأمر ثلاثة منّا فحسب. نعرفه نحن. إنّه يحتاج إلى أمّه، لتغسل له الفاكهة حين يُبادر بأفعاله الطفولية".

"أهذا كلّ ما تريدين قوله لي؟"، سألتُها بخُبث. كان كلُّ ما تقول صحيحاً، رمقتُ جينا لأرى ما إذا كانت تبتسم بدورها، لكنّي رأيتُها غاضبة ومنغلقة، وكفاني ذلك لاستعادة هدوئي. قلتُ لجينو سكارپا "هل لكَ أن تتركنا أُكلِّمْها للحظة واحدة".

قالت ليندا "لستَ بحاجة إلى الحديث معي، فأنا راحلة".

ثمّ توقّفتْ عند باب الدكّان، واستدارت لتُلقي نظرة على الجميع، وقالت:

"لكنّي أعتقد أنّه كان بمقدوركَ استقبال صديقة لكَ بشكل أفضل، يبدو لي وأنا أدخل هذا المكان وكأنّني داخل مقصف شعبي".

رأيتُ جينا تستجمع قواها، وتقول "كلّ ما كان راغباً أن يقوله لكِ، قاله في الليلة الماضية".

فتوجّهتُ إليها ليندا "إذا سمح الآخرون، أرغب في الحديث معكِ على انفراد".

"لا حاجة إلى ذلك، بإمكانكَ الكلام أمام الآخرين".

عندها هزّتْ ليندا رأسها، وحدجتنبي بنظرة، رفعتْ يدها، وألقت التحيّة على الجميع، وقفزتْ خارجة. ذهبتْ، وكان آخر ما رأيتُه منها هو سوارها الذهبي.

لم يكن سكارپا معنا في تلك اللحظة. عاد إلى المكان. استندتْ جينا إلى الطاولة دون أن تفوه بشيء. لم تُحدِّق فيّ، بل كانت نظرتها مرتكزة على الباب، وعلى الطريق.

"أنا آسف لما حدث"، قلتُ بحزم.

قالت جينا "إذا ما عادتْ، فسأقتلها".

كنّا نُحدِّق بالباب "تعرفين هذه الأمور كلّها"، قلتُ لها "لا شيء جديد. ثمّة أمرٌ واحد فحسب، وهو أنّكِ أغلى ما لديّ".

"إذا ما عادتْ إلى هنا، فسأقتلها".

لم ألمسْها، ولم أتكلّم معها، لأُواسيها.

"لدينا ما ينبغي عمله"، قلتُ "كلُّ ما حدث انتهى".

دعاني سكارپا إلى الغداء في المقصف المقابل "لنعبرَ الشارع"، قال "من الأفضل أن يراكَ الناس، وألاّ تختفي عن الأنظار".

جلسنا إلى زاوية، وأرسلتُ بيبّو ليشتري لنا سيغاراً من نوع (توسكانو)، وطلبْنا النبيذ. "هذا المطعم"، قال "لو أصبحتَ مالكاً له، فإنّكَ تعيش في الظلمة دائماً، تجول وتُهرول، وتتراكض هنا وهناك دون امتلاك القدرة على بالاستمتاع حتّى بيوم واحد للراحة، أو لمَدّ ساقَيْكَ، لتُريحهما قليلاً".

ثمّ حدّثني عن الرغبة التي تعتلج في داخله، أنْ يغوص في حياة الريف يربّي الحيوانات، وأن يظلّ هناك على الدوام "أسوأ ما في الأمر هو أنّني كلّما قرّرتُ التوقّف، اندلعتْ حرب ما، إمّا حرب الآخرين، أو حربنا. فهناك دائماً حربٌ ما. في ما مضى امتلكتُ بيتاً، لكنّ ذلك كان في الماضي".

"أمّا أنتَ، تمتلك الكثير من البيوت"، قال لي "حذارِ، فقد تعرّفتُ على كثيرين مثلكَ".

"المشكلة تكمن في أنّ بعض الأحداث لا تنتهي حيث ينبغي لها أن تنتهي"، أجبتُه "أعتقد بأنّني أوضحتُ الأمور بأكملها".

كانت عينا سكارپا باسمَتَيْن "أوَلمْ تعلم بأن الأحداث تقع لمرّتَيْن، في المرّة الأولى بشكلٍ جدّيّ، أما في المرّة الثانية، بشكل مُضحك. مثل الميت غرقاً، يصعد، ليعوم جثّة فوق سطح الماء ثانية".

انتابتْني الرغبة في الشرب أكثر من الرغبة في الضحك، ولحسن الحظّ، عوّض سكارپا عنّي بالكلام أيضاً. أدرك جينو سكارپا هو الآخر ثِقل الصفعة التي وجّهتْها ليندا إلى وجهي، وشعر بأنّي لا أرى المرأة إلاّ مُجرَّد رغبة عابرة أو فعل طفولي. "عليّ أن أتكلّم معه في هذا الأمر"، فكّرتُ.

١٩

في الليل، ذهبنا إلى الاجتماع في حانة. دام الاجتماع حتّى الفجر حتّى لا نقع في براثن دوريات الشرطة. هبط جينو سكارپا برفقة الآخرين إلى سرداب، يُفضي بدوره إلى سرداب آخر، يُستخدَم في حالات الطوارئ.

مكثت برفقة جوزِپّه في الصالة العليا من الحانة. حملت الگيتار معي، لكنّي لم أعزف، لأنّه لم يكن هناك مَنْ يستمع إلى العزف. كنتُ أشعر بالنعاس، بسبب ثِقل الليلة الماضية. كان جوزِپّه يصعد من السرداب، ويعود إليه عبر السُّلّم، ويصيح بي "أفِقْ"، ويُردف "أتريد أن يعتقلونا جميعاً؟".

نبضات القلب المتسارعة بفعل الخوف هي ما أبقتْني مستيقظاً. كنتُ أعرف بأنّ عدد الرفاق المجتمعين في السرداب كبير، لكنّي شعرتُ سكارپا يعادلهم في الأهمّيّة جميعاً، وليس مصادفة أنّهم تناقشوا طويلاً. طلبتُ من جوزِپّه أن يستعلم عن بعض الأخبار عن تورينو. عند الفجر فقط، سمعتُ "لقد انتهوا"، وأعدّ صاحب الحانة القهوة للجميع. وقال لي جوزِپّه بهدوء "أنتَ على حقّ. صديقكَ ذاك كان رفيقاً".

لم يعرفْ أكثر من هذا، أو ربّما لم يرغب في الكلام عنه، وعلى أيّة حال، خرج بعض الشباب، وتوجّهوا إلى أعمالهم مباشرة. كان باب الحانة مواراً، وصاحبها يكنس الأرضيّة لإبعاد الأنظار. لم أرَ أحداً من الآخرين.

عندما غادرتُ المكان برفقة جينو سكارپا كان ضوء النهار واضحاً بأولى شعاعات الشمس. فهمتُ منه بأن الاجتماع لم يستنفد الموضوعات التي نُوقشَتْ، ما كان يستدعي ضرورة عقد اجتماع آخر.

عبرنا حدائق (البينتشو) مع بدايات الشمس الأولى. كنتُ مُتعباً، وأمشي بلا صواب كالسابح عكس التيّار. ولولا وجود سكارپا معي، لرميتُ بجثّتي فوق إحدى مصاطب الحديقة، ونمتُ. "ما رأيكَ؟" قال سكارپا "هل نتناول إفطار الصباح؟ إنّه جميل أن تأكل وهذه الأشجار تُظلّلكَ".

إلاّ أنّنا نزلنا إلى ساحة (فلامينيو)، وتوجّهنا إلى المقهى ذاته الذي قصدتُه في اليوم السابق مع ليندا. "إنّه قَدَري"، فكّرتُ "بأن أعود إلى البيت في هذه الساعة".

"انتبهْ"، قال لي سكارپا "فما أنتَ فيه الآن حرب أُخرى".

لم تكن سحنة سكارپا على حيويّتها المعتادة، رأيتُ في وجهه الأخاديد الناتجة عن النحافة. وكانت تروي كلّ ما قاساه هذا الإنسان، لكنّ قوّته كانت كامنة في عينَيْه. وبينما كان يحتسي القهوة بالحليب، تذكّرتُ آميليو المُلقى على فراشه.

"إذا ما رآنا أحدٌ الآن، فسيكتشف مَنْ نكون"، رمق سكارپا محاسبةَ المقهى بنظرة، وقال بجدّيّة "لكلّ الرفاق وجه مَنْ ينام تحت السرير. هذه هي الحياة التي نعيشها".

طلبتُ أن توضع رشفة (غراپّا) في قهوتي مستجيباً في ذلك أيضاً إلى قَدَري. أدركتُ بأنّني قاسيتُ مرّة، إلاّ أنّني الآن أعي جيّداً مغزى ماذا أفعل. ورغبتُ في سماع رأيه، فيما فكّرتُ فيه..

خلال عودتنا إلى البيت، شعرتُ بشرودٍ في ذهنه. ألقى نظرات على الغمامات في السماء، وحدّق في أشجار الصنوبر التي تُكتظّ بها التلال المحيطة بالمكان.

"روما هذه"، قال لي "عسيرة على الفَهْم. يبدو الجميع بأنّهم اصحاب مقدرة على الفَهْم، وحين تُحادثهم، يبدو لكَ وكأنّكَ داخل إحدى دوائر الحكومة. أينما جُلتُ بناظرَيْكَ، تجد الفاشيّة ماثلة أمامكَ. إنّها تُساكنهم في البيوت، يحاربونها على أرضها. يبدو الجميع وكأنّهم أبناء حيّ واحد. لكنْ، إذا ما سألتُهم عمّا امتلكتِ الفاشيّة من سيماء أمام ناظري العالم، فإنّ ذلك لن يمرّ بخاطرهم أو يتراءى لهم في حلم".

إذّاك سألتُه ما إذا كان مَن اجتمع وإيّاهم رفاقاً؟

"جميعهم يعدّون أنفسهم رفاقاً"، أجابني "أنتَ لم تكن هناك الليلة"، ثمّ رمقني بنظرة متثائبة ومسترخية، غلّفها الوسن "للنقاش جماله الخاصّ. آه، لو تدري كم هو جميل أن تتناقش مع الآخرين!".

قلتُ له بأنّني أدركتُ جيّداً بأنّنا في روما.

"هو ذا الأمر"، قال "يحدث دائماً بهذا الشكل، فكلُّ شيء في روما يبدو أسهل من أيّ مكانٍ آخر. حدث لي الشيء ذاته عندما كنتُ طالباً، ثمّ، لحسن الحظّ، أو ربّما لسوء الحظّ، رأيتُ الجانب الآخر من الصورة".

أدهشَني أن أعرف بأن جينو سكارپا كان يوماً ما طالباً. كان يبدو واحداً منّا، لكنْ، بقدرات تتجاوز قدراتنا. في الغضون، وصلنا إلى البيت.

"إذاً، فأنتَ تعرف روما بشكلٍ جيّد" قلتُ له.

"لقد تغيّرتْ كثيراً عن زماني"، قال لي مبتسماً "إلاّ أنّ الرومان لا يتغيّرون أبداً".

استقبلتْنا جينا عند باب الدكّان مُستبشرة. انتظرتْنا، لتُطعمنا، إلاّ أنّني أخبرتُها بأنّني سأتهاوى. ذهب جينو سكارپا إلى الحديقة، ليُراقب الغيوم . ارتميتُ على السرير، وأغمضتُ عينَيّ.

مررتُ في المساء ببيت مارينا، لأُكلّمها.

"أنتَ إنسان طيّب القلب"، تندّرتْ عليّ "فأنتَ لا تستهلكُ مفاتيح الباب".

"العمل كثير"، قلتُ لها.

"سُحنتُكَ تدلّ على ما تقول".

"كيف حال الجيران؟"

سدّدتُ لها الإيجار، وسألتُها، ما إذا لديها اعتراض إذا ما نام معي أحد أصدقائي.

"تعرفه منذ يومٍ واحد"، قالت "وتأويه في بيتكَ؟".

بعدذاك، مررتُ ببيت دورينا، ورأيتُه مقلوباً رأساً على عقب. وافقتْ إدارة المسرح على ضَمّ كارليتّو، وسيوُقّع العقد في المساء. كان خارج البيت، وعلى وشك الوصول "أنا سعيد لأجلكم"، قلتُ لدورينا "لكنّ كارليتّو بُلبلٌ صدّاح صغير".

انزعجتْ لذلك، وسألتْ عن سبب نعتي كارليتّو بالثرثار.

"لا يحدث هذا إلاّ في روما"، قلتُ لها "للأمور كلّها نهايات سعيدة".

طالبتْني دورينا بأن أكفّ عن ذلك الكلام، وبأنّ خلاصة الأمر هو أنّني لم أعد الصديق الصدوق لكارليتّو، فقد تغيّر سلوكي مُذْ ارتبطتُ بجينا، وبأنّني غضبتُ منهم بسبب اعتقال لوتشانو. برأيها أنّني ارتبطتُ بأناس، تفوح منهم رائحة النتانة، وسينتهي الأمر بأنيّ سأواجه المشاكل بسببهم. وهذا هو رأي الجميع.

احمرّ وجهها، وتحشرج صوتها. بتحصيل الحاصل، كانت تنصحني بالعودة إلى قضاء الأمسيّات برفقتهم، وأن أعود إلى الگيتار، وأن أحاول دخول عالم المسرح. "بإمكان كارليتّو الآن مساعدتكَ"، قالت "ينبغي عليكَ ألاّ تثق بالآخرين"..

أدركتُ في الحال بأن من الأفضل أن ينام جينو سكارپا حيث هو الآن، وفي الأحوال جميعها، كان الأمر يتعلّق بيومَيْن لا أكثر. كان جينو يشعر بالراحة في ذلك الدكّان، وقد بدأ بمعاونة پيپّو في تركيب العجلات. تناولْنا العشاء في الحديقة الخلفية، وقضّينا الليل هناك. لم تردْنا أخبارٌ من الآخرين. كان علينا العودة إلي الاجتماع ثانية في منتصف الليل، وانتظرْنا جوزيپّه.

telegram @ktabpdf

"اعزفْ لنا شيئاً بگيتاركَ".

"إذا كنتَ طالباً بحقّ"، سألتُه "وكان أبوكَ برجوازياً، فلماذا تعمل معنا؟ لماذا هربتَ من محيطكَ؟ ألا يتوافق وجود الفاشية في إيطاليا معكَ؟".

"ثمّة مجانين داخل الطبقات الاجتماعية جميعها"، قال "فإذا لم يكن

الأمر على هذه الشاكلة، لكنتَ ترانا ما نزال نراوح مكاننا في زمان روما القديمة. فهناك ثمّة حاجة إلى المجانين لتغيير العالم. هل تساءلتَ أبداً ما معنى المجنون في هذا العالم؟".

ثمّ قال لي "أنتَ أيضاً مجنون، فهل يفيدكَ ويكفيكَ العمل الذي تشتغل فيه الآن؟ مَنْ سيدفع لكَ إذا ما وضعوكَ أمام كتيبة الإعدام أو أدخلوكَ السجن؟".

"جميعُنا مُستَغَلّون".

"ومَن الذي يستغلّكَ الآن؟ جينا؟".

كان يتكلّم بحدّة واستمتاع. اجتاحتْني الرغبة في الردّ عليه.

"أقول لكَ شيئاً"، قال لي "هناك فرقٌ واحد وبسيط بيننا، وهو ما كلّفني شهوراً لأُقرّر، وكلّفني كُتُباً وخوفاً ورعشة ممتزجة بتسارع في خفقات القلب رعباً. أمّا أنت وأبناء طبقتكَ، فتحملون ذلك الشيء في دمائكم، ويسري في عروقكم. هل تعتقد بأن هذا الفارق ضئيل، ولا طائل من ورائه؟".

"لقد واجهتْني صعوبات، واستغرقني العثور على الرفاق وقتاً طويلاً".

"ولماذا كنتَ تبحث عنهم؟ هل كنتَ تأمل في شيء؟ بحثتَ عنهم، لأنّ كينونتكَ دفعتْكَ إلى ذلك".

"أرغب في قراءة كلّ يُتاح من الكُتُب، إذا ما آلت ملكية المدارس إلينا...".

"إن ما تمنحه إيّاكَ الكُتُب قليل للغاية. في إسبانيا، رأيتُ مثقّفين كُثُراً يقترفون حماقات مثل الآخرين. كلّ ما نحتاج إليه، وما هو ذي فائدة، هو الحسّ الطبقي".

كنّا جالسين في الحديقة نتحاور. لم يكن الظلام قد نزل بعد، إلاّ أن الأنوار العامّة أُضيئَتْ. بعض النوافذ كانت مُضاءة. إنّ مُجرَّد التفكير بأنّ سكارپا سيرحل في اليوم التالي كان يُثير لديّ الأسى. فقد كان بمقدوره أن يُعلِّمني الكثير.

وصل جوزِپّه، وأخبرنا بأن "أحدهم انهار، واعترف". وأنّ الحانة التي اجتمعوا فيها كانت تحت المراقبة. بعض الرفاق لمحوا العَسَسَ، فيما كانوا يتبادلون مهمّة المراقبة في إحدى زوايا الشارع. لم يعتقلوا أحداً حتّى الآن، فهم يترقّبون الرؤوس الكبيرة.

"سيعتقلون صاحب الحانة"، قال جوزِپّه "وهو لا يعرف أين يسكن سكارپا. أمّا أنتم، فلتكونوا حذرين، أيّها الرفاق".

غادر جوزِپّه بخطوات وئيدة كما وصل. قال سكارپا بأن صاحب المكان يُعتقل على الدوام في مثل هذا الحالات، وتمنّى أن يقعَ في الشرك مَنْ هو قادرٌ على الصمود وتحمُّل التعذيب. "نتنمشّى قليلاً"، قال لي.

تفحّصتُ الطريق، وقلتُ لجينا "تعالي معنا أنتِ أيضاً"، وكانت تترقّب هذه الدعوة بفارغ الصبر.

صعدنا إلى التلّ حتّى الكنيسة، كان الناس يجيئون ويذهبون ويأكلون. كانت رائحة النبيذ تفوح في المطعم. ولم يكن يُحجم عن الصياح إلاّ أولئك

الذين انشغلت أفواهم بالأكل. كانت سماء روما مُلفّعة بسواد الليل، وملأى بالنجوم. "إذا ما اعتقلونا الليلة"، قلتُ "فإن ما نراه الآن هو آخر ما سنتذكّر".

"يا للفأل السَّيِّئ!"، قالت جينا.

"يا لأهل روما، يأكلون، يشربون، ويتصايحون!"، قال سكارپا "أليس كذلك؟".

إذّاك سألتُه ما إذا كان قادراً دائماً على تخمين الأمور وتقديرها.

أجابني بأنه مثل صديق عاشق، وكل ما يفوه به معروف سَلَفاً. فجميعاً وقعنا في شراك العشق مرّة.

"ليس هذا رأي پابلو"، قالت جينا.

ثمّة ما في صوتها قد أثار الفرح فينا. "ليس ما نقول إلاّ كلاماً عابراً"، قال سكارپا "فپابلو رفيق رائع".

ثمّ روى لنا عن سجنه في روما، "قبل عشر سنين، كان عمري حينها عشرين سنة فحسب، وكنتُ أعمل مع الفوضويِّيْن. أفرجوا عنّي، لأنهم عدّوني أبلهاً".

"كيف يتعاملون مع الناس هناك؟"، سألتُه.

"ليست معاملة السجن سيّئة، بل معاملة مَنْ هم خارجه. أنا أيضاً كنتُ عاشقاً حينها، وبعد شهر واحد، خانتْني حبيبتي".

قالت جينا "أهذا معقول؟".

"هكذا هي الحياة. الحالة تتدهور عندما يقبع المرء هناك خلف الأسوار. ثمّ إن هناك ما هو أخطر وأدهى، فعندما تقضي زمناً طويلاً هناك خلف القضبان، تبدأ بنسيان الناس. وعندما تغادر الزنزانة، تُدرك بأن العالم كان يسير ويعيش فيما كنتُ أنتَ غائباً عنه. عندها تُدرك جيّداً معنى أن تكون ميّتاً" .

"الموت أفضل من ذلك". قالت جينا.

تجاوزْنا المنازل، وكنّا نرى نصف روما.

قلتُ لسكاربا "أعليكَ أن ترحل غداً؟".

"يا له من أمر قبيح للغاية!"، قال "أنْ يكون بمقدوركَ البقاء فقط عندما تعلم بأنّهم يقتفون آثارَكَ".

رجعنا إلى الدكّان، وأرسلتْ جينا إلى بيت العجوز مارينا. أمّا نحن، فدخلنا، وتناقشنا حتّى انقضاء منتصف الليل. "سيّان أن تهرب أو أنْ تسقط في براثنهم"، كان يقول "ما يُهمّني أنْ يكون هناك آخرون. ولا مناص من أنْ تحلّ اللحظة التي تتوقّف فيها وترغب في أن تقع في شباكهم".

"الأمور هنا هيّنة، أو هي لا شيء بالقياس إلى أوضاع أخرى"، وابتدأ يروي لي عن السجون الألمانية والإسبانية، فيما بدأ العَرَقُ يُبلّل جسدي. "إنّ علينا تصفية الحساب مع العالم بأسره"، قال لي "حاذر من خداع ذاتكَ، ما قد لا تستوعبونه جيّداً، هو أنّكم، هنا، تدافعون عن الصحن والجيب، أمّا البرجوازية، فعلى استعداد أن تُبيد نصف العالم، وأن تذبح الأطفال، مقابل الإبقاء على مصالحها. لقد وصلوا إلى إيطاليا أيضاً. اطمئنّ، وكنْ واثقاً بأنّهم سيتحدّثون عن الله وعن الأم".

تذكّرتُ بأن كارليتّو قد تحدّث معي بشيء من هذا القبيل. أخبرتُه بذلك.

"ليس بمقدورك أن تكون رفيقاً إذا كنتَ تجهل هذا الأمر"، قال لي "لكن المعرفة وحدها لا تكفي، ثمّة ضرورة لتنظيم الذات، وترتيبها. كُلّنا برجوازيون حين يتسلّل الخوف في جنباتنا، ونرتعش إزاءه. أن تُغلق عينَيْكَ، وتتغاضى عن رؤية العاصفة، فذلك هو الخوف. إنّه الخوف البرجوازي. أولا تعني الماركسية بالتحديد: رؤية الأشياء كما هي على حالها، واستشرافها؟".

ثمّ أوضح لي اللعبة التي يمارسها البرجوازيون في إيطاليا: "أيّتها الشبيبة الرائعة"، يقول لنا البرجوازيون "نحن أيضاً نقاسي من الأوضاع مثلكم، فلنتّفق، ولنتّحد معاً، ولنصرخ بوجه الحكومة بأن تكفّ. إن ذلك يتوافق مع مصالحنا، لكنّه يتوافق مع مصالحكم أكثر منّا. انظروا ما الذي يقترفه الأشرار في الخارج، تعالوا معنا. سنُنقذكم".

"في حين"، قال في تلك الليلة، وهو يُنهي حديثه "علينا الخلاص أو الموت برفقة الآخرين. لقد خسرنا الحرب في إسبانيا".

وصلتْ جينا في الصباح التالي، وأيقظتْنا. ابتدأتُ العمل، أمّا هو، فقد بقي في الحديقة، ليغسل ثيابه. سألتُ جينا عمّا قالتْه النساء في البيت، أجابتْني مبتسمة:

"أبدينَ اندهاشاً، لأنّكَ نمتَ مع جينو".

"وهل قُبِلَ كارليتّو في المسرح؟".

"دعونا على العشاء عندهم هذا المساء".

لم نفكّر بتلك الدعوة طوال النهار. أمضى سكاربا النهار هادئاً ما بين الحديقة والسرير. كنّا قد قرّرنا أن نتفسّح قليلاً لمُجرَّد حلول الظلام. أردنا أن نفعل شيئاً ما، وأن نحتسي النبيذ. كنّا نفكّر بذلك، عندما وصل درّاج يحمل العجلات على كتفه. كنتُ أعرفه، فهو أحد العمّال الذين يعملون مع جوزِيبِّه في شارع (آوريليا). "لقد أدلى صاحب الحانة بالاعترافات"، قال "بدؤوا باعتقال الناس، لذا قرّر الرفاق بأن على سكاربّا مغادرة المدينة في الحال، وعليّ اصطحابه إلى محطّة قطارات (تراستيفيري).

قال سكاربا "لحسن الحظّ، غسلتُ ثيابي".

ارتدى الثياب، ووضع بدلة العمل جانباً. قبَّلَني وقبَّلَ جينا.

"لا تنسَ رفاق إسبانيا"، قال لي، ورحل.

٢٠

كُلّنا جبناء. فلمُجرَّد رحيله، شعرتُ بالارتياح. كنتُ واثقاً بأن صاحب الحانة ذاك لا يعرفني، ويجهل مكاني. قلتُ لجينا "أترغبين بالذهاب إلى المسرح؟".

نظرتْ إليّ بفرح.

كان كارليتّو والنساء ولوتشانو وزملاء العمل يتناولون طعام العشاء قرب مسرح (الأرجينتينا)، وحتّى أصل إلى هناك، قمتُ بدورة طويلة، ألقيتُ خلالها نظرة على حانة الليلة السابقة. كانت مُغلقة بالسلاسل دون أن يُثير ذلك انتباه أو اهتمام المارّين من أمامه. مَنْ يدري؟ ربمّا سيستطيع أحدٌ ما أن يُفصح عن كلّ شيء في يوم من الأيّام.

كان العرض المسرحي هو المعتاد، ولم أشاهدْه منذ وقت طويل. انقطعتْ عنه في تورينو، ولم أُغيِّر فكرتي عنها في روما. وشعرتُ بأنْ لا أحد في روما يُهمُّه عرض مثل ذلك. كنتُ قد اعتقدتُ أنهم لن يسمحوا له بسبب أولئك الفاشيِّيْن المنتشرين كلّهم في روما، وبسبب حضور البابا وساحة (فينسيا). لكنْ، يبدو أنّنا إزاء أناس آخرين وعادات مختلفة. ثمّ أنيّ شاهدتُ عند ساحل البحر نساءً يرتدينَ لباس السباحة بقطعَتَيْن، وأينما وُجِدَ الرجل، فهناك ثمّة امرأة تقبل العرض. وكان الجميع على استعداد للاستماع بوقت جميل.

في هذه المرّة، رأيتُ أيضاً ضمن فاصل الرقص امرأة سوداء البشرة أيضاً. خرجتْ على خشبة المسرح عارية بالكامل، تقافزتْ مثل الجنادب. هذه تليق بلوبراني، قلتُ في نفسي في الحال، مَنْ يدري إنْ كان هو مَن اكتشفها ودفعها إلى الخشبة؟ لكنْ، يبدو بأن السوداوات لسنَ عاريات بما يكفي، لذا تراهنّ يتقافزنَ، ويُطلقنَ الصرخات. كان صوتهنّ رهيباً، يلمس الدماء في العروق. وأُعجب المشاهدون الرومان بالمشهد، وطالبوا بإعادة الرقصة. مكتبة أحمد

ثمّ شاهدنا كارليتّو في الصالة. قالت له جينا بأنّها بانتظار مشاهدة منوّعاته. أجابها، بعد أن رمقها بنظرة متكابرة، بأن التزامه سيبدأ خلال ستّة أيّام. "سترى" فكّرتُ في داخلي "بأن بُرج (ليتّوريا) سينكث الوعد معه ثانية، ويتركه وحيداً".

ثمّ جاء الآخرون، وعمّ الاحتفال، تحايا وابتسامات متبادلة. لم أشعرْ بالارتياح وأنا وسط هرج تلك الوجوه. تخيّلتُ أنّ جينو سكارپا كان معي في تلك اللحظة، وكنتُ أترقّب أن يبزغَ صوته أو ضحكته من بين صراخ أولئك الناس .

"هل نذهب لتناول طعام العشاء؟"، قالت دورينا.

"تناولْنا العشاء في مطعم مشهور بلحم الخنزير في الفرن، وبجُبن الموتساريلا. أعاد كارليتّو تمثيل بعض مشاهده المختصرة. كان أداؤه أفضلَ بقليل من السابق، وكان النادل الذي ارتدى صدرية بيضاء يُتابعنا، لذا جاء كلّ شيء منظّماً ومُنسّقاً. ضحكتْ جينا كالمجنونة وهي تعضُّ على يدها. كنتُ أُدرك بأنّ تلك المرأة المسكينة تضحك بشكل مُضاعف،

عنها وعنّي. كان قلبها عامراً بالخوف، لذا ضحكتْ كما لو أنها ثُملتْ. لم تشتكِ من شيء، ولم تتألّم خلال اليومَيْن الماضيَيْن.

انتهت الأمسيّة، وعدنا جميعاً بالقرب من جسر (بونتي ميلفيو). كان يُخامرني إحساس بالغرابة وأنا ألتقيهم ثانية، وأعاود معهم أحاديث فترة مضتْ. لقد وقعتْ أحداث كثيرة خلال تلك الفترة، أشعرتْني بأنّني لم أعدْ الإنسان ذاته الذي كنتُ عليه في الماضي. كانوا يضحكون، يفعلون كلّ شيء دون سبب أو مبرّر. استطعتُ أن ألمس بأنهم هم أيضاً فعلوا شيئاً ما، وحسب قول لوتشانو، فهم ما يزالون يفعلون شيئاً ما. إلاّ أنّني شعرتُ بأن حاجزاً ما قد استقام بيني وبينهم، جدار مُغلَق من الأسلاك الشائكة. كنتُ قادراً على الكلام في موضوعات عمومية مع جوليانيلا وحدها، وأنْ أضحك برفقتها. تمازحتُ بعد ذلك مع كارليتّو بخصوص اللقاء في فندق (البلازا). طلبتُ منه ألاّ يبحث عنّي في المرّة المقبلة "خذها معكَ إلى البيت"، وجاءتْني الرغبة في أن أصفَعَه "لا أدري لماذا أراكَ تُحشر نفسكَ في هذه القصّة دائماً؟"، قلتُ له "لِمَ ذلك؟ أخبرْني، على الأقلّ، إن كانا قد سافرا؟"، أكّد لي بأنهما سافرا. فشعرتُ ببعض الأسف.

لم ألتقِ الرفاق لبعضٍ من الوقت، لم أعرفْ شيئاً عن مصير صاحب الحانة والآخرين. لو كان سكاربا في روما، لأُتيحت لنا فرصة اللقاء حتّى بالصدفة. مرّتْ أيّام شعرتُ خلالها بالطمأنينة. ثمّ أرسلتُ پيپّو إلى المصنع في شارع (آوريليا) لشراء بعض قِطَع الغيار، وأوصيتُه أنْ يحذر من السّيّارات خلال قيادته للدرّاجة. فأرسلوا معه رسالة، تطلب منّي الهدوء لبعضٍ من الوقت، إذْ ما يزال الخطر قائماً، وليس بالإمكان إنجاز شيء، أو تغيير الأوضاع.

هكذا أمضيتُ الأيّام الأخيرة دون انشغالات وقلق. كانت جينا تستشعر بأن هناك ثمّة ما يحدث، لكنّها لم تُحدِّثني في ذلك، وكانت تردِّد عليّ "ليس علينا أن نشتغلَ؟ أغلقِ الدكّان، ولنذهب إلى مكان ما برفقة دورينا. ألا ترغب أن تنعمَ بعدد من الأيّام القليلة الهادئة؟". عدْنا إلى ساحل (أوستيا)، وأمضينا وقتاً تحت أشجار الصنوبر خارج روما. بإمكاننا أن ننعم بالسعادة بمفردنا. كان شهر أيلول، وكان الهواء بصفاء الزجاج.

أمسكتُ بالگيتار بيدي ثانية، وكنتُ أشعر بأن لديّ العديد من الرغبات. وأنا أخرج صوب المساء. تذكّرتُ أيّامي في تورينو عندما كنتُ أذهب برفقة لاريو وكيلينو إلى التلال، لننعمَ بجمالها. كانت تلك الأيّام حبلى بكل ما حدث فيما بعد. كان آميليو ما يزال من عالمنا. لم يمضِ من ذلك الوقت إلاّ عامٌ واحد. أهذا ممكن حقّاً؟.

"أأنتَ سعيد في روما؟"، كان كارليتّو يقول وأنا أسمع وقع حوافره ورائي.

"بإمكاننا أن ننعمَ بجمال هذا العالم، يا خنزيري العجوز".

وكانت جوليانيلا تقول "أتصوَّر بأنّكَ ستتزوّج عمّا قريب، ها أنتَ تحدِّق في قمركَ الساكن في قعر البئر".

لكنّ ذهني كان منشغلاً بالآخرين، بالقابعين خلف قضبان السجن. كنتُ منشغل التفكير بأموات الأرض، وبالمحتضرين، ما الذي سيحدث لهذا العالم لو أنّنا حقّقنا الانتصار في حربنا هذه؟ لكنْ، مَنْ يدري، فلربمّا يكمن جمال العالم في كونه لا يدوم إلاّ للحظة واحدة فحسب، وليس بالإمكان تغيير مسار الأمور والأحداث.

في إحدى الليالي، صادفتْنا عاصفة ممطرة، كنّا قد خرجنا من المسرح

للتوّ، واضطُررنا إلى حماية أنفسنا في أولّ كوّة التقيناها. وكما يحدث دائماً في مثل هذه الحالات عندما تجتاحكَ الرغبة في الاستمتاع بما يحدث، وعندما تجد نفسكَ بالصدفة في المكان المناسب، تصرّفنا وكأننا صبيان صغار. كانت روما ترعد وتبرق بأكملها، وتغرق بالمطر الهاطل من السماء، وتتطاير أوراق الشجر. كان الشارع خالياً حتّى من الكلاب، ولم يكنْ هناك أحد غيرنا. شربْنا النبيذ، وشربتْ جينا أيضاً، وابتدأ كارليتّو حديثاً طويلاً عن (الحزب الفاشي)، فأغلق صاحب الحانة الباب، وأحضر لنا قارورة نبيذ، كان يحتفظ به للاحتفال بذلك اليوم الذي لا يعلم أحد متى سيحلّ، وصار يتحدّث هو الآخر. "عندما أسمع البروق"، صاح بأعلى الصوت "يبدو لي بأنّ أبواق النصر قد أفاقتْ من رقدتها، سيأتي ذلك البرق لا محالة، وسيعمّ ذلك الشعاع، سيأتي وسيصبّ غضبه على قصر (فينيسيا) وفوق سماوات روما. في ذلك اليوم، سنشاهد موت الجرذ".

كان صاحب الحانة في نهاية الأمسيّة ثملاً، لكنْ، ليس إلى الدرجة التي يُتيح فيها لنا بالانصراف، كان يستحلفنا ويتوسّل إلينا، كما لو أنّنا أبناؤه، بأن لا نُميط اللثام على ما حدث الليلة، وأن نكون إنسانيِّيْن، وننسى حكاية هذه القارورة الاحتفالية. قال بأنه يدخل حالة التماهي هذه لمُجرَّد سماعه الرعود ومشاهدة التماعات الرعود، إلاّ أن السياسة ليست إلاّ مهنة المغامرين.

ولطمأنته، قال له لوتشانو "يا سيّدي، نحن نجهل حتّى موقع حانتكَ".

هدأتْ قسمات وجهه، ودمدمتْ جوليانيلا "أبالإمكان أن يكون المرء أبلهاً إلى هذه الدرجة؟"، أفزعنا كارليتّو، وقلنا له بأنه يبدو بأنّ صاحب الحانة شاهده على الخشبة. تآكلتْه الشكوك لبرهة، لكنّه قال "كان صادقاً في مشاعره. مَنْ سيدفع ثمن قناني النبيذ الذي احتسيناه؟".

فأردفتْ جينا قوله "كان الجميع صادقين، لكنّه إذا شعر بالرعب، فسيكون أوّل مَنْ يشي إلى الشرطة عنكم".

"يا للحالة المزرية التي بلغناها في إيطاليا!"، قال لوتشانو "يشون بنا حتّى لا يشي بهم أحد".

وهكذا عدنا إلى الحديث ثانية حين بلغنا قُرابة البيت. طالبوني بأن أبقى وأعمل معهم. "ليس مستبعداً أن يقع الحدث بعد يوم أو آخر"، كانوا يقولون "إنّه وضع مريض ومنخور وآيل للسقوط. لابدّ أن نكون مستعدّين للضربة التالية. ينبغي الحفاظ على أواصرنا، وإلاّ فإن الجماهير ستفلت من أيدينا في تلك اللحظة، وتحدث المجزرة".

"ربّما سيحدث ذلك"، قالوا "لا ينبغي منح الهدنة في هذه الحرب، لأنّنا إذّاك سنتحوّل إلى أسبانيا ثانية".

كنتُ أشاهدهم عبر حاجز بيني وبينهم. كانوا كمَنْ يقف وراء جدار زجاجي. ففي المخاوف جميعها ثمّة حديث محظور، مصلحة خفيّة، تقود وتُسيِّر الأمور، تدافع عن ذاتها، وعن سلامها الخاصّ. بالإمكان استيعاب ذلك كله، فهي تحدث للجميع، لكنْ، ما لم أتمكّن من استيعابه هو دفاع كارليتّو ولوتشانو عن المال البرجوازي، عن ذلك المال الذي خَلَقَ الفاشيّة، وقد سألتُهما عن ذاك باسماً.

أقرّ كارليتّو بأنّي قد أكون مُحقّاً، لكنّه عاد إلى موضوعه الأثير، موضوع الضربة النهائية "لقد حدث ذلك"، كان يقول "وأضعْنا الفرصة، فلتتْ مجموعة من الجماهير من بين أيادينا، وعرّضتْ نفسها إلى الإبادة. لقد رأينا بوضوح المذابح التي حدثتْ عبر التاريخ".

كانا راغبَيْن في الحديث مع القادة. هذا كلّ ما في الأمر. أجبتُهم بأن القادة عادة قليلو كلام، وقد استوعبوا هذه الأمور منذ وقت طويل، "تعال أنتَ إذاً"، قال لوتشانو، "تعال معنا أنتَ، وتحدَّثْ مع أحد منهم".

و"أحدهم"، هذا كان رجلاً يضع على عينَيْه نظّارَتَيْن بإطار مُذهّب، ويرتدي بدلة بيضاء. التقيتُه أمام المسرح. كان برفقة جوليانيلا، وبدا سعيداً. قدّم القهوة إلى الجميع، ثمّ بدأنا نتكلّم: "المُقدّم"، قال لوتشانو "يرتاد الحفلات الموسيقية بانتظام، وسيكون سعيداً، إذا سمع عزفكَ".

"ليس ذلك أمراً عسيراً بالمرّة"، قلتُ "يكفي أن ينضمّ إلينا في المقصف في إحدى الأماسي".

"لنذهب إلى مطعم بيبّي"، قال المقدّم "هناك بإمكاننا أن نتكلّم أيضاً".

كان "المقدّم" حذراً، وتحدّث بالفعل عن الگيتار والكمان. في الدرب، كان يتوقّف عن المشي بين الفينة والأخرى، ليقول رأيه، وكان علينا أن نتوقّف، وننتظر نهاية حديثه. كان يتأبّط ذراع جوليانيلا، وبدا كما لو أنّه جدُّها.

اخترنا للجلوس في المطعم زاوية. وكانت الموائد مغطّاة بشراشف ملوّنة بالزهري.. لم أستوعبْ سبب دخولنا إلى هذا المطعم فيما كنّا نفكّر باحتساء قدح من النبيذ فحسب. على أية حال، كان الحبور الطاغي يتطاير من كارليتّو ولوتشانو وجوليانيلا.

واصلْنا حديثَنا عن الموسيقي. تحدّث المقدّم بموضوعات صعبة للغاية. كان يرمقني بنظراته خلال الحديث، وأنا أرمق بدوري لوتشانو.

واستمرّ الأمر إلى أن بلغْنا اللحظة التي قطع فيها كارليتّو خطٌ انسياب ذلك الحديث. "لنأتِ إلى موضوعنا الأساسي. هذا بابلو، وهو لا يعرف مَنْ نكون."اشرحْ له، أيها المقدّم، مَنْ نحن".

عندها أسند العجوزُ ظهرَه إلى قائم الكرسي، حدَّق فيّ بعينَيْن زاد التماعهما. وابتدأ بمديحي، وبالثناء عليّ. قال إنّهم بحاجة إلى أُناس مثلنا، وإن عدد المتواجدين منّا الآن ضئيل للغاية، وبأنّنا نُشبه القدّيسين، إلاّ أن العيب الوحيد الذي يَسِمُنا هو أنّنا نُخبّئ أنفسنا. لماذا لا نسعى إلى توحيد قوانا مع الإيطاليِّيْن الآخرين؟ ما الذي كان يُطالب به الإيطاليون الآخرون؟ أن ينقضّوا على الوضع الذي يُهيمن عليه الطُّغاة والرُّعاع والسُّرّاق. أن يستعيد الإيطاليون احترام ذواتهم، واحترام القوانين، أن يُعيدوا إعمار إيطاليا، ويستعيدوا حُرّيّتها.

"أي ما يعني هدم الفاشية دون إيذاء الآخرين"، قاطعه كارليتّو.

أغمض المقدّم عيناً، وفتحها، وواصل حديثه. "مرّة في السابق"، قال لي "تركنا المجال مفتوحاً بيد الجماهير. ماذا كانت النتيجة؟".

قلتُ له بأنّنا نحن الجماهير، أمّا النتيجة، فيعرفها البرجوازيون من أمثاله.

ابتسم المقدّم من جديد، وقال إنّ من المؤكّد بأن للفاشيّة جذوراً عديدة ومنتشرة، إلاّ أنّنا عندما نُشيع الرعب في داخل الناس، فإنّنا سنمنح الفاشيّة سلطات وقوّة إضافية. كان علينا أن نتحاور، وأنْ نُعرِّف بأنفسنا، كان علينا أن نلتزم ببرنامج مشترك. "وهذا"، قال لي "ما كان سيُطلبه من قادتنا إذا ما التقاهم".

كان عجوزاً فظيعاً، وكان ابتدأ بإقناعي بوجهات نظره بالتدريج، وفغر

الآخرون أفواههم إعجاباً، وحدّقوا فيه. ما أزال أتذكّر كيف كانت جوليانيلا تُطفئ سيجارتها بعصبيّة.

حاولتُ الاحتفاظ بالهدوء، وقلتُ له. نحن نقوم بشيء ما منذ وقت لا بأس به. لستُ أنا، لأنّني لستُ شيئاً يُذكَر، لكن القادة يستهلكون الوقت في النقاشات، وبأن الالتزام المشترك ينبغي أن يكون أساساً، يستند إليه الجميع. وأضفتُ بأنّ علينا النأي بأنفسنا من خداع الذات بانتظار الأوقات الجميلة، وإذا ما كنّا نُثير مخاوفهم، فإن هناك كثيرين يُثيرون الشفقة. وزادتْ متعتي عندما رأيتُ تلك الوجوه مندهشة عندما قلتُ بأن هناك حواراً مشتركاً منذ فترة من الزمن.

إلاّ أنّ المقدّم ابتسم بعد أن عَلَتِ الريبةُ سحنَتَهُ. قال "لا شيء يُزهر خارج زمانه"، وحتّى نبلغ ما أشرتُ إليه "ينبغي توفّر النوايا الصادقة"، قال وعلى أيّة حال، فقد أبدى سعادته بلقائي، وجدّد عليّ الرجاء بأن أُعيد التفكير فيما أثرناه من موضوعات، واقترح أن نحتسي نخب آمالنا.

التقينا مرّة أُخرى بعد عدّة أيّام، ليستمع إلى عزفي بالگيتار. لم نذهبْ إلى مطعم بيبّي هذه المرّة، بل التقينا على شرفة بيت لوتشانو. لم أكنْ قد زرتُ بيت لوتشانو من قبل، وأرثْنا جوليانيلا نصف روما من تلك الشرفة.

استمع المقدّم إلى عزفي، وتحاور معي قائلاً بأنّ الأحزاب تُشبه الأوتارَ التي تُنتج الموسيقى، ليس بالإمكان أن تعزف الموسيقى، إذا ما قطّعتَ الأوتارَ، بل إنّ عليكَ ملامستها ومداعبتها بعذوبة.

التقينا مرّة أخرى. وجُلنا في أرجاء روما. سألتْني جينا ما إذا كان الرفاق ما يزالون على قيد الحياة؟

لمْ آسَف على استعادة الأنفاس، إلاّ أنّ ذلك الصمت صار ثقيلاً ومُقلِقاً. مررتُ مُجدّداً من أمام الحانة، ورأيتُها مُغلقة. كان ذلك يوم الأحد. "غداً"، قلتُ لنفسي "سأذهب إلى شارع آوريليا"، لم يُسعفْني الوقت، فقد اعتقلُوني فجر اليوم التالي، وأنا ما أزال راقداً في فراشي.

٢١

سحبوني من فراشي، وفي غضون نصف ساعة، قلبوا البيت رأساً على عقب. كانت مارينا ترمقني بعينَيْها المُشرعَتَيْن على اتّساعهما. في البدء، اعتقدتُ بأنّ لاعتقالي صلة بجينو سكارپا، وكان ذهني منشغلاً بجينا، وانتابتْني رغبة كبيرة في الضحك. "لا بأس". قلتُ لنفسي. وعندما أنزلوني كان باب كارليتّو ودورينا موصداً.

فكّرتُ "وجه البوم كارليتّو ما يزال نائماً. تُرى أيّ فزع سيُصيبه عندما يعلم باعتقالي. سيهرب هو ودورينا إلى الأرياف بالتأكيد. شعرتُ بالسعادة، لكون جينو سكارپا غادر خارج المدينة. وصلتِ السّيّارة إلى سجن (لونغارا). أنزلُوني، وأدخلُوني قبل أن تُتاحَ لي فرصة إلقاء نظرة على السماء والغيوم الراحلة فيها. تذكّرتُ وأنا داخل زنزانتي بأنّي شاهدتُ فتاة بشَعْر متطاير في الريح تمرّ من فوق الجسر. ريح في ساعة خَلَتْ فيها المدينة من المارّين. زنزانتي تُتيح لي رؤية الجدران وبقعة من السماء فحسب.

عندما تركَني الحرّاس داخل الزنزانة، كنتُ أشعر بألم في فمي، تذكّرتُ بأنّني لم أكفّ عن الضحك في الشارع، وفي غرف السجن، وعند موظّف تسجيل نُزلاء السجن. قسمات وجهي شابهتْ وجهَ مَنْ لن يواجه أيّ تغيير. كنتُ أترقّب شتائم، وقليلاً من الدم السائل، إلاّ أنّهم كانوا يحدجونني بنظرات منزعجة فحسب، كما لو أنّنا في مقهى. جاء آخرهم وأنا في الزنزانة،

فتح الكُوّة الصغيرة، ونادى باسمي. "لقد حلّتِ الساعة"، قلتُ في داخلي "سيبدؤون"، إلاّ أنّه ناولَني القُصعة والملاعق والمنشفة ولوزام أخرى. بدوتُ بليداً للغاية وأنا أسأله عن سبب اعتقالي. لم يُكلِّف نفسه عناء الرّدّ على سؤالي، وأغلق الكُوّة.

مرّ يومي الأوّل في السجن على هذا المنوال ودونما شيء يُذكَر. كان هناك سرير استلقيتُ عليه. رأيتُ بُقعة السماء وأنا مُستلقٍ على السرير. سُيِّجَت النافذة بمشبّك حديديّ، وأُغلقَت بالزجاج بشكل مائل، لا تُتيح للمقيم في الزنزانة رؤية باحة السجن. "ليس الوضع سيّئاً كما يترقّب المرء"، فكّرتُ "يكفيني أن أعرف بأن المدّة ستطول أم لا".

كانت الكُوّة تُفتَح بين الحين والآخر، ويناولني أحدُهم شيئاً ما، خبزاً، قدحاً، وأشياء أخرى. "لو أنّي أعرف أن الفترة ستطول"، فكّرتُ "بإمكاني شراء بعض علب السجائر".

كنتُ ما أزال أحتفظ ببعض من ذُعر الصباح: لم أمتلكِ الوقت الكافي للتفكير بالأسئلة، وعجزتُ عن تخمين ما يعرفون عنّي. إذا كانوا قد اعتقلُوا الصبيّ پيپّو، فتلك هي نهاية الأمر. ثمّ كنتُ أُجيب على تساؤلاتي: "طالما أنّهم اعتقلوني، فذلك يعني أنّهم يعرفون شيئاً ما عنّي".

لا يعني السجن الانغلاق، بقدر ما يعني فقدان اليقين. كنتُ أذرعُ أرضَ الزنزانة، وأسترجع في ذهني صورة الرفاق، المقدّم، سكارپا وأحاديثهم جميعها "لا بأس في ذلك، فهذه الحالة تُشبه الموت"، قلتُ. "يا لذلك المجنون!".

وكنتُ أعود إلى الاستلقاء، وإعادة التفكير. هل هرب سكارپا، أم

لا؟ مَنْ كان يعرف عنواني إضافة إلى جوزيبِّه؟ ثمّ تذكّرتُ الليلة الماطرة وصاحب الحانة الثمل، ورأس الجدي المعلّق في السقف. لكنه ربمّا تعرّف على كارليتّو، وليس عليّ. المقدّم؟ ذاك لم يكن ليحشرَ نفسَه في المشاكل بالتأكيد.

وشعرتُ بالبرد يتسرّب إلى أوصالي لمُجرَّد التفكير بأن الذنب هو ذنبي فحسب، فإذا ما أدلى أحدهم باعترافات، واعتُقل الرفاق، لن يبقى لي خيارٌ غير أن أرمي بنفسي في نهر (الپو).

وحين مرّ نهر (الپو) بخاطري، تذكّرت بأنّني توجّهتُ بالفعل مرّة إلى ضفّة النهر، لأرمي نفسي في مياهه. كان ذلك في شهر آذار، وكنتُ أفكّر بذلك الخيار، بسبب الأُخرى، ليندا. رأيتُها في الدرب في ذلك المساء. في فندق البلازا وهي تتحدّث عن آميليو بانزعاج وكراهية. فكّرتُ، هذه المرّة نحن في سلام. كنتُ مستلقياً على السرير، أغمضتُ عينَيّ، ونطقت باسم آميليو.

صوب المساء، ابتدؤوا بالضرب على قُضبان الزنزانات، وتصاعد عويل الحديد مالئاً الزنزانات. مطرقة بدت وكأنها تعزف أغنيّة، كان رنين الطَّرْق على القُضبان كما الجنون، حديد يضرب ويُغنّي. ثمّ سمعتُ صوت إغلاق الزنازين بمفاتيح. كان هدير المفاتيح الحديدية يقترب منّي رويداً رويداً. فُتحَ الباب، ودخل حارسان. وبينما قال لي أحدهما "مساءُ الخير". توجّه الآخر صوب النافذة، وطَرَقَ على القُضبان الحديديّة بالطول وبالعرض، ثمّ غادرا بعد أن أغلقا البابَ بجرّة واحدة. أدركتُ عندذاك بأن المساءَ قد حلّ.

بدا لي أنّ من المستحيل أن يُفكّر المرء بالهرب من هنا، فقد كان هذا

السجن يُشبه برجاً عالياً لكنيسة - عزفوا لنا قليلاً لإرسالنا إلى النوم سعداء. مكثتُ واقفاً أمام النافذة أُدخّن آخر سيجارتي، نظرتُ من خلال النافذة إلى صفاء السماء، وبدا لي بأنّني أعرف روما عبر تلك البقعة الضّيّقة من السماء. كانت تلك هي ساعة خروجي للذهاب إلى وسط المدينة. الساعة التي تُضاءُ فيها أضواء المدينة، ويجلس الناس إلى الموائد، إمّا لتناول العشاء أو الرقص أو لعزف الگيتار.

مَنْ يدري ما إذا كانت جينا التقتْ لوتشانو أو كارليتّو والنساء؟ يكفيني أن تتّسم جينا بالحذر. لم تُتحْ لي حتّى فرصة أن أُعبّر لها عن شكري، فكّرتُ بها قليلاً في تلك الليلة. كنتُ ما أزال مذهولاً.

ثمّ أُضيء المصباح المعلّق بالسقف. نورٌ عليل يُشبه ضياء المستشفيات القاسي والجافّ. صوتٌ خشنٌ طَرَقَ على الكُوّة دون أن يفتحَها، وصاح "إلى النوم".

لا أدري ما إذا كنتُ قد نمتُ أم لا. كنتُ أترقّب أن يأتوا إليّ لإجباري على الكلام. اعتقدتُ بأنّهم يمارسون الضرب خلال الليل، لذا كنتُ متيقّظاً، وعلى حذر لما يحدث حولي. فكّرتُ بحكايات إسبانيا وألمانيا، وقلتُ في نفسي بأنّ أولئك لا يُبدون أدنى اعتبار للحمر. في لحظة ما، أفقتُ من النوم بعد أن مسَّ أحدُهم البابَ، لم أمتلكِ الوقت الكافي للنهوض عندما أغلقَ الحارسُ البابَ ثانية، وهتف "إنّها ساعة فطور الصباح".

حلّ النهار، وكانت النافذة تتوضّح شيئاً فشيئاً. تحرّكتُ على السرير طوال الليل، وشعرتُ بعظامي مُهشّمة، وبثقلٍ في الرأس، إلاّ أنّني لم أفتحْ عينَيّ، وكنتُ أُعيد التفكير بالردود على أسئلتهم.

رنّ جرس كبير لإيقاظنا. وصلتِ القهوة وعلبة الماء. بعد ذلك، مرّوا ليطرقوا على القضبان، وقال أحدُهم "هناك رُزمة لكَ". وصلتِ الرُّزمة، وكانت تحتوي على بعض لوازمي، وكان اسمي ولقبي مكتوبَيْن على الكيس بخطٍّ جينا.

هذه الأمور تمنح المرء قدراً من الجرأة، فما وصلني ذلك اليوم بدا وكأنّه حديثٌ مع مَنْ هو خارج أسوار السجن. دخّنتُ سيجارتي الأولى بفرح. تمشّيتُ في الزنزانة، وحسبت خطواتي: خمس خطوات للذهاب، وخمس أخرى للإياب. فكّرتُ بذلك الكائن العاجز عن الحركة، والذي حُمِلَ إلى الزنزانة مُمدّداً على نقّالة مرضى. منحنتْني تلك الصورة قدْراً من الجرأة بينما كنتُ أُحدِّق بالقضبان "إذا ما كنتُ أنا الآن هنا، فذلك يعني أنني اخترتُ أن أكون"، فكّرتُ.

جاء مَنْ يُخبرني أنّ بإمكاني الخروج لنصف ساعة الهواء. نزلتُ السّلّم، ومررتُ عبر الممرّات، أُخِذْتُ إلى باحة صغيرة، صُبّتْ أرضيّتها بالإسمنت. أغلقوا الباب، وكنتُ أرى بقعة من السماء العالية.

وهكذا مرّ اليوم التالي دون حدوث ما يُذكَر. ثمّ اكتشفتُ القملَ خلال الليل، وانقضى النهار الثاني ونصف ساعة الفُسحة. كان تفكيري مُنصبّاً على الأجوبة دون معرفة ما ستكون الأسئلة. في الليل، تذكّرتُ الكُتُب التي قلتُ لجينا بالتصريح بكونها من بقايا الأشقر، إذا ما اعتقلوني، لذلك السبب، فكل ذلك دليل على الجنون الكامل".

وصلتْني رُزمة أخرى، ثمّ سألوني ما إذا كنتُ أرغب بالكتابة إلى أهلي في البيت "لا بيت لديّ"، أجبتُ "ألا تُريد الكتابة إلى صديق؟".

"أُجري حساباتي على أساس أنّي سأُغادر السجن قريباً".

"أليسَ لديكَ فتاة؟".

"وهل بالإمكان الكتابة إلى النساء؟".

"بإمكانكَ تقديم طلب بهذا الصدد إلى مدير السجن".

كانت الأماسي جميعها متشابهة فيما بينها. وكانت ما بيني وبين سجن (لونغارا) خمس بوّابات، تُفتَح إحداها تلو الأُخرى. تخيّلتُ أنّهم اعتقلوني بطريق الخطأ، أو بدل شخص آخر - بدلاً من كارليتّو مثلاً -. ربمّا سينادون على اسمي، ويفتحون الأبواب. حماقات كثيرة بدأت تُلحّ على خاطري. دكّان بائع الفواكه، أو قدح البيرة. مَنْ يدري ما الذي كنتُ مستعدّاً لدفعه في أن يكون لديّ عمل ما. حتّى لو كان وضيعاً؟ ربمّا يمكنني أن أعمل حمّالاً أو بحّاراً يُلامس الموجة بيَدَيْه، أنْ أكون قادراً على الحركة، وعلى القول، والكفّ عن التفكير بالأسئلة المُفترضة وبأجوبتها. تذكّرتُ الفتاة ذات الشَّعْر المتطاير على الجسر. وكنتُ أخترع الأشياء، كأن أتصوّر تلك هي ساعة ذهابها إلى العمل. بماذا كانت تُفكّر تلك الفتاة؟ من أين أتتْ؟ حملتُ نفسي، ووضعتُها عند مفترق الطُّرُق في (فلامينيو)، وفي شارع (تريتوني)، رأيتُ الناس، وتعرّفتُ على الوجوه، وبدا لي بأنّني أضعتُ أجمل ساعاتي هباءً. "أيُعقَلُ أن يحدثَ لي هذا كلّه في روما بالذات؟"، تساءلتُ، ثمّ تخيّلتُ نفسي مريضاً بانتظار وصول الطبيب وأنا عاجز عن حمل جسدي عن السرير. كنتُ أعزف مقطوعاتي اعتماداً على الذاكرة، وأُحرّك أصابعي مُخترعاً الألحان. وفي بعض الأيّام، تصوّرتُ بأنّني لم أكن إلاّ صبياً أو أبله يمارس الحماقات التي تُثير ضحك الجميع. لكنّ جينا لم

تكن تضحك منّي بالتأكيد. فكّرتُ بالدكّان، بسولينو وبمواقع عمّال بناء الجسر. أنا أبله مسكين، كنتُ أقول. كان من الأفضل لي أن أواصلَ عزف الگيتار، وأن أمكث حيث كنتُ.

وعلى رُغم ذلك كله، فقد ألقيتُ نظرة على زنزانتي قبل اصطحابي إلى مديريّة الشرطة. تسارعتْ نبضات قلبي أكثر من المعتاد، ليس بسبب الخوف، بقدر ما كانت رغبة في الإحجام عن رؤيتهم. عبرنا البوّابات، وتوقّفنا عند مكتب سجلّ الخروج. رأيتُ الأشجار على ضفّة نهر (التيبر) عبر النافذة. قبضوا على يَدَيّ في أثناء الخروج. انتبهتُ بأن تعابير لا أُبالية وخالية من الرغبة كانت تعلو وجهي.

في مديرية الشرطة، انتظروني جالسين وراء طاولة كبيرة، ابتدؤوا هم بالكلام. سألوني أوّلاً عن اسمي، وعن لقبي، اسم أبي والوضع الاجتماعي والأحكام السابقة، إنْ وُجِدَتْ. متى وصلتُ إلى روما، وأين كنتُ أقضي أماسيّ، وما هو ذلك الكتاب.

ثمّ مدُّوا إليّ بكتاب الأشقر.

"حتّى جينا"، فكّرتُ. أردتُ أن أُصرِّح بأن ذلك الكتاب كان من بين موادّ الدكّان، لكنّي أقلعتُ عن الفكرة. قلّبتُ عدداً من صفحات الكتاب، وقرأتُ، كنتُ أُفكّر بجينا. لا يُمكن أن تكون هنا وراء قضبان إحدى الزنازين، وإلاّ مَن الذي أرسل إليّ بالرزمَتَيْن. لا ذنب لها. "أيّتها الجِيَف"، كنتُ أُفكّر "لقد تحرّوا بيتها أيضاً".

"وأين وجدتُم هذا الكتاب؟".

"يُفترَض أن تُخبرنا أنتَ بذلك".

كنتُ أُفكّر بكارليتّو وبحدبته، لو أمسكتُ به الآن، فسأركل مؤخّرته.

"أنا لا أقرأ الكُتُب"، قلت لهم "بالكاد أقرأ الجريدة في بعض المرّات".

"لكنّكَ ترتاد المسرح؟".

"عندما تُتيح لي الصدفة ذلك"، قلتُ.

"هل تعرف جوليانيلا؟".

"أعرف كارليتّو، أحدب عزفتُ معه وهو كان يُغنّي".

"متى؟ وأين؟".

عندئذٍ ابتدأتُ بالكلام عن لوبراني، تحدّثتُ عن تورينو، دخلتُ في التفاصيل إلى الدرجة التي طلبوا منّي السكوت والكفّ عن الكلام.

"وهل تعرف المقدّم؟".

"المقدّم؟".

قلتُ لهم بأنّني كنتُ أرتاد ساحة مسرح (آرجينتينا) لتناول العشاء مع كارليتّو وزوجته، وفي بعض المرّات، كنتُ أحمل معي الگيتار. كنتُ أعمل في النهار، وأتناول عشائي خارج البيت. كان هناك أُناس كُثر، لا أعرف أسماءهم، والمقدّم ذاك كان واحداً يعيش في الصالة.

"تكلّمْ بوضوح"، قالوا لي "لماذا جئتَ إلى روما؟ هل أنتَ متسابق درّاجات أم ماذا؟".

رمقتُهم بنظرة مَنْ يشعر بالانزعاج.

"لم أكنْ أشعر بالارتياح في تورينو"، وواصلتُ التحديق بهم.

"مَنْ أعطاكَ هذا الكتاب؟".

"هذا الكتاب ليس لي".

"هل أعطاكَ إيّاه المقدّم؟".

"كنتُ أجهل بأنّني أمتلك شيئاً من هذا القبيل".

عندها أمسك أحدُهم بكتفي، وجاءتْني لكمةٌ على أُذني. كان الجالس أمامي يواصل أسئلته "هل كنتَ تعرفه؟".

"لم أره أبداً"، أجبتُ وأنا أُحدِّق فيه.

كنتُ ما أزال أشعر باليد التي تُمسك بكتفي. قال لي الآخر بعد أن سحب من جرّارة الطاولة مظروفاً "هنا رسالة لكَ"،

أعطاني الرسالة. كانت من جينا.

"بإمكانكَ قراءتها"، قال لي.

"لستُ مَعنياً بذلك"، قلتُ له.

كانت جينا تكتب بأنّها تأمل في رؤيتي عمّا قريب، وتسألني ما إذا كنتُ أحتاج إلى لوازم ونقوداً. قالت بأنّ العمل في الدكّان يسير على ما يُرام، وترجوني أن أُصلّي للرّبّ "أتذكّرك دائماً"، ختمت الرسالة بهذه الكلمات.

كانت تلك اليد ما تزال جاثمة على كتفي. قال لي أحدُهم "أترغب في تدخين سيجارة؟".

"نريد أن نعرف"، واصل الآخر "ما كان يفعله المقدّم والآخرون. ألم يطلبوا منكَ أبداً اللقاء بهم؟ بأن تحمل بعض الرُّزم، أن تذهبَ إلى الريف؟".

"لا".

"أصدقاؤكَ، أولئك، جميعهم متآمرون. هل تعرف ذلك؟".

"لا".

"ما هي الموضوعات التي كنتَ تتحدّث فيها معهم؟".

"حماقات".

"ومع ذلك، فإنّ جوليانيلا تتّهمكَ بأنّكَ تعاونتَ معهم. هل أنتَ عضو في الحزب الفاشي؟".

"لا".

انفجروا في الضحك، وضغطتْ تلك اليد على كتفي.

"هذه هي أوّل حقيقة تنطق بها. ألقينا عليكَ القبض بشكل مُبكّر. هل كنتَ على علاقة مع جوليانيلا وحدها، أم مع الأخرى أيضاً؟".

وصلتْني لكمة أُخرى. "المقدّم كان يفعلها مع جوليانيلا. أتعرف ذلك؟ هل دفعتْ هي تكاليف مجيئكَ إلى روما؟".

قلتُ "وما علاقة جوليانيلا بهذا كله؟".

"أنتَ مَنْ يعرف ذلك".

عندما شبعوا واستنفدوا همومهم كلها، كتبوا كلّ شيء على ورقة، وطلبوا منّي "وقِّعْ هنا". ألقيتُ نظرة على الورقة. كانت تحتوي على معلومات عن تعرُّفي على هذا وذاك وعن أزمنة تعارفي بهم. لم أجدْ في الورقة أيّ شيء عن الرفاق. وقّعتُ.

عندما عُدنا إلى سجن (لونغارا) بالتاكسي. جُلتُ بناظري في الطريق، لأُشاهد الناس وهم يرتادون المقاهي، إلاّ أن تفكيري كان مُنصبّاً في هذه المرّة على الزنزانة فحسب، وبأنهم لم يُفلحوا في اعتقال أحدٍ من الرفاق، وقلتُ في داخلي "يا لهم من حيوانات!".

٢٢

كتبتُ إلى جينا لطمأنتها، ولأخبرَها بأنّ الأمور تسير على ما يُرام، وبأن أصدقاءنا المساكين لم يرتكبوا أيّ ذنب، وبأن تحاول مواساة دورينا. ثمّ أعربتُ لها عن اقتناعي بأنّه ليس بالإمكان الإبقاء على بريء رهن الاعتقال لوقت طويل.

في المساء، عندما كانوا يطرقون على القضبان، كنتُ أُفكّر بأولئك الأربعة. مَنْ يدري ما إذا كانوا هم أيضاً يقولون "إنهم يذهبون إلى بابلو الآن"؟ وعندما كان الطَّرق يبلغ أشُدّه، كنتُ أُصيخ السَّمْع، لأستمع جيّداً. كنتُ أقول ها قد جاء دور كارليتّو، والآن دور جوليانيلا. لم أكن قادراً على تصوّر أنّها هي الأخرى مرّت بمديرية الشرطة، بأنّ أحداً صرعها. تصوّروا ما إذا كان هناك جينو سكارپا، كنتُ أُفكّر. وتذكّرتُ لوتشانو، وصدّقتُ بما كان يقول. هذه أشياء لا يُفصح عنها إلى الآخرين.

مسكينٌ لوتشانو، عاودتُ التفكير. الآن أُدرك ما يعنى أن تقبع في السجن، خاطركَ يسرح مع أشياء عديدة، إلاّ أنّكَ لا تجرؤ على التفكير بها. لقد أجبتَ على الأسئلة، واستمعتَ إلى كلامهم، فلماذا يواصلون الإمساك بكَ الآن؟.

كنتُ أحشر نفسي صباحاً ومساءً في فضاء ذلك الطَّرق على القضبان، أتذكّر وأتخيّل. أحياناً كنتُ أفكّر "اتركوني أخرج. أتنزّه قليلاً عند ضفّة نهر (التيبر)، وأعود. أقسم لكم بأنّني سأعود".

مكتبة أهمد
telegram @ktabpdf

كنتُ جادّاً في ما أقول. مضى على بقائي هناك شهرٌ كامل. كنتُ أعرف بأن الرفاق أحرار، وهم بخير، لكن ذلك لم يكن كافياً بالنسبة لي. كانت المساءات أصعب على الانقضاء. في النهار، كنتُ أُردّد دائماً "سيحدث ذلك خلال اليوم".

إلاّ أن الأمر وقع في المساء في أثناء الطَّرْق على القضبان. دخل الحرّاس، ليمارسوا عزفهم اليومي، وقال لي رئيسهم "لَمْلِمُوا لوازمَكُم".

لم أُدرك ما يقول "احملُوا لوازمَكُم"، قال لي "هيّا، ستخرجون إلى الحّياة".

في غرفة السجلات، سلّموني إلى شخص يرتدي زيّاً مَدَنياً، بدا من سحنته وكأنه من سكّان نابولي، قال لي "تعالوا"، وذهبنا إلى مركز الشرطة بسيّارة أُجرة.

عندما خرجتُ إلى الساحة بمفردي، كان الوقت ما يزال نهاراً. مشيتُ وأنا أتصادم مع المارّة، أتطلّع في وجوههم، وأستمع إلى أحاديثهم. كنتُ أشمّ ذلك الهواء الزجاجيّ، وأتحسّسه. خلال مسيري، قرأتُ الأوراق التي سلّموها إليّ. عليّ الحضور في مديرية شرطة تورينو خلال يومَيْن. كانت تذكرة القطار مدفوعة الثمن، وبرفقتي حراسة خاصّة.

توقّفتُ عند جسر (ميلڤيو)، نظرتُ إلى التلال. روما لم تتغيّر، وبقيتْ على حالها، وماء النهر يجري سلساً تحت خيمة السماء. رأيتُ مواقع العمل في الجسر الجديد. كان كلّ شيء جليّاً ودافئاً. "في تورينو، يبدأ الضباب بالتكاثف في هذه الساعة"، كنتُ أقول "ما بين الهضبة والجبل". سِرتُ ببطء شديد، كنتُ أعرف بأنّ تلك متعة لن تدوم طويلاً.

دخلتُ الدكّان قائلاً "سيّدتي، ربّة العمل!". رأيتُ جينا تنظر إليّ. لم تكن ترتدي البدلة، وهُرعتْ نحوي، كما لو أنّها طفلة صغيرة.

حلّ المساء، وكان محظوراً أن أمكثَ عندها. ذهبنا معاً إلى بيت العجوز مارينا التي هتفتْ مُرحّبة بي من على شرفتها. وجدناهما، هي ودورينا عند السّلّم مستئارَتَيْن. تناولنا العشاء معهما. أخبرتُ دورينا بكلّ ما أعرف. كانت عيناها قد احمرّتا، لكنْ دون أن تذرف الدمع، وكرّرتْ بأنهم سيُطلقون سراحه "سترى بأنّ الحدبة ستحمل إليه الحظّ السعيد"، كانت مارينا تقول "لقد حملت الحظّ السعيد إليه مرّات في السابق".

"المهمّ ما الذي كانوا يفعلونه؟"، سألتُ.

لم يكن بالإمكان معرفة ذلك. كانت دورينا مُقتنعة بأنهم سيُفرجون عن كارليتّو، وأنكرتْ بأنّه التقى بالمقدّم. في الليل، أخبرتْني جينا بأنهم عثروا على الجرائد مع كارليتّو، وأنّ المقدّم قفز من الشرفة بثياب النوم.

"هل أخبركِ فابريتسيو بذلك؟".

ابتسمتْ "أخبرني جوزِيبِّه. جاء يبحث عنكَ. الرفاق يعرفون كلّ شيء".

كانت منذ يومَيْن على علم بأنهم سيُزوِّدونني بورقة الترحيل إلى تورينو لمُجرَّد الإفراج "لن أستسلمَ"، قالت "هل ينبغي عليكَ العودة إلى البيت حقّاً؟".

حلّ الصباح، وأعدّتْ لنا مارينا آخرَ قهوة. تذكّرتُ صورة القدّيس الذي دسّتْه في يدي، وقالت لي أمام جينا "لقد شملتْكَ السّيّدة العذراء ببركتها، كنتَ عليلاً".

"أيّ بركة؟"، سألتُ جينا.

رفعتْ مارينا عينَيْها إلى السماء "اسكتي"، قلتُ لجينا "أنتِ أيضاً بحاجة إلى ذلك".

أعددتُ حقيبتي، وكانت دورينا تراقبنا ونحن مغادران.

"يا للألم!" قالت لي "أن أراكَ ترحل بمفردكَ وحيداً".

"يؤلمني أنا أيضاً، إلاّ أنّني واثقٌ بأنيّ سألتقيكم في (الماسكيرينو) في العام المقبل".

"ليس الجميع"، قالت "فعلى جوليانيلا أن تدفع ثمن ما اقترفتْ".

عدتُ مع جينا إلى الدّكان. كان عليّ أن أُغادر في المساء. وبينما كنتُ أُدخّن سيجارتي، رأيتُ پيپّو يغادر الدكّان مهرولاً "إلى أين هو ذاهب؟".

"سيأتي جوزِپّه"، قالت "يريد الحديث معكَ". قالت ذلك ببساطة، ودونما تكلّف.

"أأنتِ مجنونة؟!".

عندها رفعت جينا كتفَيْها، وقالت "أليس هذا هو عملكَ؟!".

"كنتِ تنظرين إلى الأمور فيما مضى بشكل مغاير".

"ذلكم هو القَدَر، وهو كذلك"، قالت.

عندما عاد پيپّو، ذهبتُ برفقة جينا إلى المقصف المقابل "أترغبين في المجيء إلى تورينو؟"، سألتُها.

"رمقتْني بعينَيْها الحانيَتَيْن "نعم، آتي".

تناولنا الغداء معاً، وتحدَّثْنا عن الدكّان "دعي جوزِيبِّه يساعدكِ. بيعي كل شيء، وتعالي إلى تورينو".

وصل جوزِيبِّه في حدود الواحدة. لم يتحدّث عن سجن (لونغارا) كثيراً. "كنّا نخشى"، قال "أن يكونوا شاهدوكَ هناك. ما أجمل لو كانت الأمور كلها تسير على هذا المنوال".

ثمّ أخبرني عن الرفاق الموجودين في تورينو. "حاولْ أن تلتقيَهم"، قال "على أيّة حال، سنُرسل مَن يُبلِّغهم ومَنَ يلتقي بكَ. لا تأتمن كثيراً".

أردتُ أن أعرف منه ما إذا كان أصدقاء المقدّم جميعهم وقعوا في الفخّ، "هناك مَنْ يهتمّ بمواصلة العلاقة من بعده"، قال.

"لستُ واثقاً بأنّهم سيُحقّقون شيئاً جديراً بالاهتمام".

"مَنْ يدري؟"، قال "إنّهم قوّة".

ثمّ أخبرني بأنّ جينو سكارپا متواجد في مقاطعة توسكانا بالقرب من فلورنسا.

رغبتْ جينا بإغلاق الدكّان في ذلك اليوم، وهكذا فعلتْ. وضعتُ الگيتار جانباً بعد أن عزفتُ قليلاً. استمعتْ جينا إلى العزف، وقالت "لنذهب إلى تلك الحانة". وكانت تعني الحانة الواقعة في الطريق الريفية عندما ذهبنا إليها برفقة الآخرين. أركبتُها على الدرّاجة الهوائية، وعبرنا روما. كان يتملّكني إحساس غريب وأنا أشاهد تلك الشوارع. فما بين التفكير بالسجن والاضطرار إلى الرحيل في تلك الليلة، بدت لي روما مدينة جديدة،

بل هي بدت لي أجمل مُدُن الدنيا. لكن الناس لا يُدركون مقدار السعادة التي يحظون به. كان ذلك الإحساس يُشبه مَن انتبه بأنّه كان طفلاً فيما مضى، ويقول "لو أنيّ كنتُ أعرف ما سيحدث، كنتُ سألعب". لكنْ، إذا ما صرّح لكَ أحد باللعب، لن تعرف أبداً من أين تبدأ.

لقد أصبحتُ إنساناً آخر، مستقلاً وسعيداً. نظرتُ إلى الحانات والأشجار غامقة الخُضرة، وإلى القصور والحجارة القديمة والجديدة. أدركتُ بأنّ شمساً مثل هذه، لا يُمكن أن تراها العين لمرَّتَيْن. كم من الفاكهة يبيعون في روما! كلّ ذلك الأخضر والأحمر والأصفر فوق العربات، كانت هي التي تعكس نور الشمس. فكّرتُ بأنّني حين سآكلُ الفواكه في تورينو، فإنّني سأستشعر مذاقات روما.

وصلْنا إلى ذلك المكان. قالت جينا "ما أكثر الأشياء التي أرغب في القيام بها الآن!".

"تعرفين كيف تسير الأمور"، قلتُ لها "ليس الوقت كافياً أبداً، كما هي الحال داخل الزنزانة. يقول السجين سأُفرغُ همومي كلّها عندما يُفرَج عنّي. أرغب في الإتيان بأكثر الأمور جنونيّة. لكنْ، عندما يغادر الزنزانة، وبمقدوره أن يفعل أيّ شيء، ترينه يُنجز فقط ما كان معتاداً على القيام به".

"كم أودّ أن يكون هذا هو اليوم الأوّل، عندما وصلتُ إلى روما".

"غداً سيكون كما تقولين".

"يا للهول! لقد جئتُ إلى روما بالصدفة المحضة".

"ليس مهمّاً، فالأمور تحدث. يكفي أن يكون لدى المرء الشَّغَف في ما يفعل".

كنّا جالسَيْن في الهواء الطلق تحت شُعاعات الشمس.

"ما أُريد هو عبارة عن أشياء قليلة"، قلتُ لها "وهي الآن أقلُّ بكثير من ذي قبل".

"كان سكاربا يقول بأن الحياة داخل زنزانة السجن تُشبه الموت"، قالت "إنّ مُجرَّد التفكير بذلك يُثيرُ فيّ الرُعب".

"لا ينبغي لكِ أن تُفكّري بذلك".

ثمّ قلتُ لها "هناك الأموات أيضاً، مُجمل الأمر يكمن في الصمود، وفي إدراك مُسبّبات ما نفعل".

بقيْنا في الحانة ما يكفي من الوقت، وشربْنا. كانت جينا تُداعبُ الجنادب وهي ترمق الشمس، وحلّقتِ الطيور على انخفاض. قفزتْ قطّة على مائدتنا. كانت جينا متكوِّرة على نفسها محدودبة الظهر.

تحدَّثْنا عن تورينو مرّة أخرى، وعن البيت. سألتْني عن أختي كارلوتّينا، وعن أمّي "هل سأراهما عندما آتي إلى تورينو؟"، قالت.

عند المساء، عدْنا سيراً على الأقدام. كان ضياء الشمس مثل نهر من الذهب النابع من بين الصخور والأشجار. رويتُ لجينا عن آميليو، أنصتتْ إليّ وهي ممسكة ذراعي.

افترقْنا عن بعضنا عند باب الدكّان. كان الليلُ قد حلَّ.

مكتبة أهد
telegram @ktabpdf

من الرواية:

عدتُ إلى البيت مساءً، وما يزال عبق البحر عالقاً بشَفَتيّ. الآن فقط أعرف لماذا يملأ الناسُ في روما الشوارعَ، وتعلو البسمةُ وجوهَهم، وليس ذلك ديدن الأغنياء فحسب، بل هو ما يفعله الجميع. كان يكفيهم الصعود إلى سطوح منازلهم، ليشاهدوا البحر على مرمى خطوات منهم. حتّى الفقراء والمعدمون كانوا يتحسّسون البحر عبر نوافذهم وشُرفات منازلهم. عمّال بناء، فتيات، أطفال، شغّيلة، وناس بُسطاء مُتعبين، كانوا يخرجون إلى الشوارع، ويتخاطبون بأصوات عالية، ويضحكون. في إحدى الصباحات، مررتُ بالقرب من بعض الفاشيِّين، حتّى هم كانوا باسمين، كانوا عائدين من تظاهرة سياسية وهم يُنشدون، ويضحكون.

«باڤيزه هو الكاتب الإيطالي الأهم، والأكثر عمقاً، والأشد تعقيداً في زماننا. وليس من صعاب تواجهنا إلا وحذونا حذوه»

إيتالو كالفينو

«كان باڤيزه أحد الكتاب الأساسيين الذي قرأتهم في مرحلة الشباب، وقد أثر بي بلا شك، ربما ليس من ناحية الأسلوب، ولكن من ناحية المخيلة الأدبية»

أومبرتو إكو

تشيزَره باڤيزه: روائي وشاعر ومترجم وناقد أدبي إيطالي. ولد في العام ١٩٠٨. بعد تخرجه من كلية الآداب اشتغل باڤيزه بالتدريس لفترة قصيرة. كتب الشعر والقصة القصيرة واشتغل بترجمة الأدب الأمريكي لصالح دار النشر "إيناودي"، الذي أصبح أحد أعمدتها لاحقاً، وترجم لهم الكثير من الكتاب الأمريكيين غير المعروفين إلى الإيطالية.

اعتقل في العام ١٩٥٣ بتهمة النشاط المعادي للفاشية وقضى عاماً في المعتقل. في العام ١٩٤٦ انضم إلى الحزب الشيوعي. بعد الحرب تفرغ تماماً للنشاط الأدبي ونشر الكثير من الروايات والمقالات الأدبية حول علاقة الأدب والمجتمع. ونال تقديراً واسعاً من جمهور النقاد والقراء الإيطاليين.

في ذروة نشاطه ونجاحه، وبعد حصوله على جائزة "ستريغا" أعرق وأرقى الجوائز الأدبية الإيطالية عن ثلاثيته الروائية "الصيف الجميل"، وجد ميتاً في غرفة فندق في مدينة تورينو مع زجاجة حبوب منومة فارغة.

بطل باڤيزه في هذه الرواية، شاب من الطبقة البرجوازية محدود الثقافة ولا يحب العمل. وفجأة يجد نفسه في مواجهة مسؤولياته الشخصية. يعيش بابلو، الذي سُمي بهذا الاسم لأنه عازف غيتار، في تورينو، مسقط رأسه، لكنه كان يعاني من المشاكل الوجودية في تلك الفترة، بين الحرب الأهلية الإسبانية والحرب العالمية الثانية، وحيث كان النظام الفاشي يواصل فقد سطوته على الشعب، وحتى فقد الخضوع الشعبي له والذي كان صمامه الآمن. يحاول بابلو أن يملأ الفراغ والنقص الآيدلوجي الذين سببا له الضياع والقلق. يغادر مدينته تورينو ويلجأ إلى روما، فيجد لنفسه هناك، وسط الفوضى العارمة، سبيلاً للعيش، ليتمكن بعدها من العودة إلى مدينته، وقد عقد العزم على انجاز شيء ما.

رواية (الرفيق) لـ باڤيزه هي من أكثر الروايات تأثيراً في النفس، وقد صرّح بذلك الكاتب باڤيزه نفسه، في مذكراته (مهنة العيش) وهو يتحدث عنها، يقول: «٨ اكتوبر ١٩٤٨، أعدت قراءة جزء لا على التعيين من رواية الرفيق. وقد أحدث فيّ ما تُحدِثه لمسة سلك كهربائي. ثمة توتر جنوني وغير طبيعي، واندفاع مجهض باستمرار، كنَفسٍ لاهث».

مكتبة ٢٩٠

ISBN 978-88-85771-61-1

المتوسط